مكتبة حراء

الوحي والإنسان

نحو استئناف التعامل المنهاجي مع الوحي

أ.د. أحمد عبادي

دار النيل

الوحي والإنسان

نحو استئناف التعامل المنهاجي مع الوحي

Copyright © 2013 Dar al-Nile
Copyright © 2013 Işık Yayınları

دار النيل للطباعة والنشر

الطبعة الأولى : ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

تصميم وغلاف: مراد عرباجي

رقم الإيداع : 978-975-315-623-3 ISBN

DAR AL-NILE
Bulgurlu Mah. Bağcılar Cad. No:1
34696 Üsküdar - **İstanbul / Türkiye**
Tel: +90 216 5221144
Faks: +90 216 5221178

مركز التوزيع / فرع القاهرة

العنوان: ٧ ش البرامكة، الحي السابـع،

مدينة نصر-القاهرة/جمهورية مصر العربية

هاتف : ٠٠٢٠٢٢٦١٣٤٤٠٢-٥

المحمول : ٠٠٢٠١٠٠٠٧٨٠٨٤١

www.daralnile.com

الوحي والإنسان

نحو استئناف التعامل المنهاجي مع الوحي

أ.د. أحمد عبادي

دار النيل

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس

المقدمة ١٣

المبحث الأول:
إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً

إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً ١٩
الثقل المعنوي ٢١
الثقل في القدرة على الدحض ٢٢
الثقل من حيث القطع والحسنات ٢٣
الثقل من حيث قدرته على شفاء ما في القلوب ٢٤
الثقل من حيث تمكين الإنسان من الاعتبار ٢٤
الثقل والرجحان حين المقارنة مع الكتب السابقة ٢٥
الثقل في حوار الإنسان مع ذاته ٢٥
الثقل من حيث التحدي ٢٦

المبحث الثاني:
بنائية القرآن المجيد.. دعامة من دعامات الختم

بنائية القرآن المجيد.. دعامة من دعامات الختم ٣١
أهمية بنائية القرآن المجيد في المجال المعرفي ٣٤

علاقة التسخير بالوحدة البنائية للكون ٣٦
علاقة التيسير بالوحدة البنائية للقرآن المجيد ٣٨

المبحث الثالث:
من مكونات المنهج النقدي في القرآن الكريم.. التصديق والهيمنة

من مكونات المنهج النقدي في القرآن الكريم..
التصديق والهيمنة ٤٩
العلوم الاستنطاقية ٥٠
طفرات بين مراحل الجمود ٥٢
الكتاب المبين ٥٤
وجهتا التصديق والهيمنة ٥٥
الكلمة المفتاح ٥٧
منهجية التصديق ٦٠
منطق الظاهر الحضاري ٦٤

المبحث الرابع:
الجمع بين قراءتين تجليا من تجليات التكامل المعرفي في القرآن المجيد

الجمع بين قراءتين تجليا من تجليات التكامل المعرفي
في القرآن المجيد ٦٩
المواءمة البنائية ٧٠
التسخير والتيسير ٧٣

الاهتداء بالعلامات ٧٥
مقوّم المنهاجية ٧٨

المبحث الخامس:
الوجهة

الوجهة ٨٣
الوجهة في المجال الإنساني ٨٤
تحديد الوجهة السليمة باستتباع حركة السجود ٨٦
الغرب واستتباب الوجهة المادية ٨٩
الإنسان ثنائي البُعد والأحادية تنهيه ٩٠

المبحث السادس:
القبلة

القِبْلة ٩٥
حول البيت العتيق يتجلى التوحيد ووحدة الأمة ٩٧
موكب الساجدين ١٠١

المبحث السابع:
النبوة والإنسان

النبوة والإنسان ١٠٩
انسلاك الإنسان في موكب الساجدين ١١١
إحلال الوحي في واقع العالمين ١١٢
تجريد الوحدة القياسية ١١٥

الإسلام وردم الهوة بين المتأسي والمتأسى به............ ١١٧
الوحدة القياسية على المستوى الفردي........ ١٢٠
الوحدة القياسية على المستوى الجماعي........ ١٢١

المبحث الثامن:

التأسي بين التبرك والوظيفية:

نحو استئناف التأسيس المنهاجي لعلم التعامل مع آثار النبوة

التأسي بين التبرك والوظيفية: نحو استئناف التأسيس المنهاجي
لعلم التعامل مع آثار النبوة........ ١٢٩
يوطبيات وأبطال........ ١٣٠
تقديس أم حرمان من ثمرات النبوة؟!........ ١٣١
الإسلام وردم الهوة بين المتأسي والمُتأسَّى به........ ١٣٢
نحو استئناف التأسيس المنهاجي لعلم التعامل مع آثار النبوة.. ١٣٦

المبحث التاسع:

نحو منهجية معرفية للدراسات القرآنية

نحو منهجية معرفية للدراسات القرآنية........ ١٤٧
من الكتاب المستبين إلى الكتاب المبين........ ١٥٢
نحو علم منهاجي في التعامل مع القرآن الكريم........ ١٥٣
شروط المُحاوِر........ ١٥٧
مستويات منهجية القرآن المعرفية........ ١٥٩

المبحث العاشر:
العلوم الإسلامية ومقتضيات الاجتهاد والتجديد

العلوم الإسلامية ومقتضيات الاجتهاد والتجديد ١٧١

العلوم الإسلامية والوعي بالسياق ١٧١

ولقد يسّرنا القرآن للذكر ١٧٤

العلم قبل القول والعمل ١٧٨

نحنُ، علومُنا، والمستقبل ١٨٢

تجديد العلوم الإسلامية: مسار أمة ومصيرها ١٨٩

عن القيم الدينية والأخلاقية.. والمدنية-الاجتماعية ١٩٧

في محورية السند الديني للأخلاق والقيم ٢٠١

النظر المقاصدي وسؤال التجديد ٢٠٤

المقاصد ومقتضيات الاجتهاد والتجديد ٢٠٩

المبحث الحادي عشر:
مفهوم الواجب في الإسلام
مقتضياته التشريعية وتطلّباته الحكَمية

مفهوم الواجب في الإسلام مقتضياته التشريعية
وتطلّباته الحكَمية ٢١٥

التأسيس القرآني لموضوع الواجب ٢١٧

تعريف الواجب ٢٢٣

الأسس الاعتقادية والتصورية المؤطرة للواجب في الإسلام ٢٢٣

التعريف الشرعي للواجب ٢٢٦

معظم الواجبات كفائية ٢٣٣
فقه الموازنات واعتبار المصالح ٢٣٣
مرحلة الجمود وأسبابه ٢٣٦

المبحث الثاني عشر:
المسلمون وحقوق الإنسان
قراءة في المقتضيات السياقية،
والمستلزمات المعرفية، وآليات التعاطي

المسلمون وحقوق الإنسان.. قراءة في المقتضيات السياقية،
والمستلزمات المعرفية، وآليات التعاطي ٢٤٩
أولاً: المرتكزات ٢٥٣
أ- التكريم ٢٥٣
ب- التكليف ٢٥٨
ج- الجزاء ٢٦٠
ثانيا: التشريعات ٢٦١
أ- الحفظ ٢٦٢
ب- العدالة ٢٦٦
ج- المساواة تحت القانون ٢٦٩
د- الحسبة العامة والخاصة ٢٦٩
و- تحريم الظلم ٢٧١
ثالثا: الآليات ٢٧٢
١- إعمال أصل المصلحة المعتبرة ٢٧٣

٢- إعمال أصل سد الذرائع ٢٧٤
٣- إعمال أصل"فتح الذرائع" ٢٧٤
٤- إعمال أصل اعتبار المآل.. ٢٧٦
٥- إعمال أصل الاستحسان.. ٢٧٦
٦- إعمال فقه الموازنات ٢٧٧
الخاتمة ٢٧٨

المبحث الثالث عشر:

فقه المجتمع نحو استئناف التأسيس

فقه المجتمع نحو استئناف التأسيس.................................. ٢٨٥
بين فقه المجتمع وفقه الأفراد..................................... ٢٨٥
الانحراف التاريخي.. ٢٨٧
العزوف عن النهج الشوري ٢٨٨

المبحث الرابع عشر:

الحوار بين الحضارات.. مقاربة تصنيفية ومقترحات منطلقية

الحوار بين الحضارات.. مقاربة تصنيفية ومقترحات منطلقية ... ٢٩٣
في ضرورة الحوار ٢٩٣
أنواع المحافل الحوارية ٢٩٦
الواقع البحثي في مجال الأديان المقارنة.......................... ٣٠٠

المبحث الخامس عشر:

مفهوم استئناف بناء الحضارة.. فتح الله كولن والأفق الجديد

مفهوم استئناف بناء الحضارة.. فتح الله كولن والأفق الجديد .. ٣٠٧

رحلة أفق حول كتاب "ونحن نبني حضارتنا" ٣١١

الخاتمة ٣٤٥

فهرس المصادر والمراجع... ٣٤٧

المقدمة

يعيش العالم اليوم مجموعة من التقلبات والتجاوزات والانتهاكات، وكأننا في أتون كابوس دلفت إليه البشرية بمحض إرادتها عبر العقود والقرون؛ فواقعنا اليوم عبارة عن ترسبات مفاهيمية وسلوكية أشبه ما تكون بالترسبات الجيولوجية المزمنة، ولا انعتاق إلا بالوقوف على جليتها وكيفية تكوينها؛ إذ ما نراه اليوم واقعا ليس إلا ثمرة قد تبلورت من خلال وصول النُّسغ المغذي إليها، عبر جذور وجذوع وفروع، والتعامل مع الثمرة في إهمال للجذور والجذوع والفروع كالتعامل مع النتيجة في إهمال للأسباب.

وإن من أولى علامات الحضور والشهود الحضاريين عند أمة من الأمم قدرتها على فهم واستيعاب ما يحيط بها من أحداث ووقائع، وتبين ما يكمن وراءها من مفاهيم ومعتقدات وقيم ومناهج وأفكار، وكذا قدرتها على بلورة مواقف إزّاء كل ذلك؛ مواقف يتم قياس جدواها بحسب تأثيرها في تأطير السلوك العام وتعبئته لاجتناب مصادر الخلل، وكذا القدرة على صوغ أحلام لها قدرتها التعبوية الموجهة لجهد الإنسان في تناسق مع المكان، واستعمال راشد للزمان، ومن المؤسف أن نرى أن كسب أمتنا في هذه الاتجاهات قد غِيض وانحسر منذ زمن غير قصير، فانفكت عرى العلاقة مع الواقع والكون والوحي، وطفقنا نتعامل مع

هذه المصادر الموجهة لكسب الإنسان، تعاملاً تجزيئيًّا واجتراريًّا ومقلدًا في بُعد تام عن التكامل بينها.

إن الكون في المنظومة القرآنية عبارة عن كتاب الله المنظور، والوحي هو كتاب الله المسطور، ولكل أبجده الخاص به الذي يعتبر مدخلا للحوار الباني معه، وللقراءات التأسيسية المحررة للفاعلية الكامنة فيه. والذهول عن المعرفة بالأبجدين يمنع من المتح الراشد من معيني هذين الكتابين الربانيين، لكي يحل الاستظهار والتقليد والترداد محل الإبصار والاسترشاد والاستهداء؛ مما يقتضي تجديدا ناجزا لمناهج القراءتين في أفق الجمع بينهما، مصداقا لقوله تعالى في سورة العلق: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(العلق:١-٥).

ولئن تطلب إنجاز المدونات الفقهية والأصولية والبيانية الممكنة من الاهتداء في الواقع بآيات الوحي وبصائره كل الجهد الجبار الذي توغل بالمكلفين في دقائق هذا الواقع وتفاصيله وأحكامها، فإن عدم تحيينها يجعلها أشبه بتلك الخرائط في الأقمار الاصطناعية التي لم يتم تحديثها، فهي على ألقها وشموخها وعظيم قيمتها، لن تنفع السائقين في تعقيدات الواقع إذ بُدلت الأزقة غير الأزقة، والدروب غير الدروب، والقناطر غير القناطر؛ اللهم إلا فيما ثبت.. مما يستدعي استنانا بسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم جهدا تجديديا مستداما يمكن من اعتبار المستجدات، وإعطائها مواقعها ومقاديرها وأحكامها في تناسق مع المنظومة التشريعية الشاملة، وتجانف عن السقوط في مهاوي التجزيء والتعضية.

ولاشك أن عالمنا أصابته رضوض وجراحات، وسكنته أقراح وأتراح؛

غير أن هذا العالم أيضا انبجست فيه عيون أمل كبيرة، واندهقت فيه مصادر فرح كثيرة، والإنسان إن استعان بالقراءة التكاملية الجامعة بين هاديات الكون الممكنة من الحركة، وهاديات الوحي الممكنة من الوجهة والقبلة، سوف ينعتق ولا شك في واقعية من إكراهات هذا الحاضر، وينطلق نحو آفاق المنشود في استكشاف لمناجم الجمال البلسم، وواحاته في كل من الوحي والكون.

أ.د. أحمد عبادي

الأمين العام للرابطة المحمدية للعلماء

المغرب

المبحث الأول:

إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً

القول الثقيل نزل على رسول الله ﷺ لِيَعْبُر منه إلى العالمين. فمرور هذا القول الثقيل من الذات النبوية الشريفة التي كانت تعاني أيما معاناة من تنزل هذا القول الثقيل، لطَّفه بإذن الله تعالى، فأصبحنا نحن بمحدودياتنا متعدّدة الأبعاد وأضرب الضعف التي تعتورنا، قادرين على تلقّيه، وقادرين على سماعه.

إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً[1]

القول الثقيل نزل على رسول الله ﷺ لِيَعْبُر منه إلى العالمين. فمرور هذا القول الثقيل من الذات النبوية الشريفة التي كانت تعاني أيما معاناة من تنزل هذا القول الثقيل، لطَّفه بإذن الله تعالى، فأصبحنا نحن بمحدودياتنا متعدّدة الأبعاد وأضرب الضعف التي تعتورنا، قادرين على تلقّيه، وقادرين على سماعه.

هذه بصيرة من بصائر القرآن الكريم، تبصّر الإنسان بقيمة وثقل هذا القول الملقى إليه من رب العالمين سبحانه وتعالى، وهي قوله جلّ وعزّ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾(المزمل:٥).

تتضمن هذه الآية المباركة مفهومًا محوريًا هو مفهوم الإلقاء؛ والإلقاء في القرآن المجيد يبرز باعتباره للتحلية: ﴿فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلاَئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾(الزخرف:٥٣)، والأساورة كما هو معلوم تستعمل للتحلية مصداقًا لقوله عز وجل: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾(الحج:٢٣). كذلك يبرز "الإلقاء" مفهومًا للدمغ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾(الأعراف:١١٧)، فالإلقاء هنا هو ذاكم الذي من شأنه أن يدمغ كل

[1] مجلة حراء، العدد: ٣٤ (يناير - فبراير ٢٠١٣).

باطل: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾(الأنبياء:١٨)، مفهوم الإلقاء إذن، فيه معنى التحلية ومعنى الدمغ، غير أن الإلقاء على سيدنا رسول الله ﷺ يستبطن معنى آخر مفاده، أن هذا القول الثقيل الذي قال الله ﷻ في حقه: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾(الحشر:٢١)، نزل على رسول الله ﷺ لِيَعْبُر منه إلى العالمين. فمرور هذا القول الثقيل من الذات النبوية الشريفة التي كانت تعاني أيما معاناة من تنزل هذا القول الثقيل، لطَّفه بإذن الله تعالى، فأصبحنا نحن بمحدودياتنا متعدّدة الأبعاد وأضرب الضعف التي تعتورنا، قادرين على تلقّيه، وقادرين على سماعه.

ومن تجليات شدّة وطأة القول الثقيل على الذات النبوية الشريفة، أنه حين نزلت سورة الأنعام[٢] كان رسول الله ﷺ فوق راحلته فبركت به وسُمعت لعظامها طقطقة[٣]. وعن زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ أملى عليه: ﴿لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾(النساء:٩٥)، قال فجاءه ابن أمّ مكتوم وهو يُمِلُّها عليَّ، فقال يا رسول الله لو أستطيع الجهاد لجاهدتُ ـ وكان رجلاً أعمى ـ فأنزل الله تبارك وتعالى على رسوله ﷺ وفَخِذُه على فَخِذي، فثقُلتْ عليَّ حتى خفتُ أن ترُضّ فخِذي ثم سُرّيَ عنه فأنزل الله ﷻ: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾(النساء:٩٥)، مما يدل على أن هذه الذات النبوية الشريفة كانت تعاني حسًّا ومعنىً من

---

(٢) عن ابن عباس رضي الله عنه: نزلتْ سورة الأنعام جملةً بمكةَ لَيْلاً وحَوْلَها سبعون ألفَ ملَكٍ يَجْرُون حولها بالتسبيح. أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢١٥/١٢).

(٣) قال سفيان الثوري، عن ليث عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد: نزلت سورة الأنعام على النبي ﷺ جملة [واحدة] وأنا آخذة بزمام ناقة النبي ﷺ، إن كادت من ثقلها لتكسر عظام الناقة. انظر تفسير سورة الأنعام عند ابن كثير.

ثقل هذا القول المبارك الكريم. لقد كان يوحى إليه ﷺ في اليوم الشديد القر، وإن جبينه ليتفصّد عن مثل الجمان، أي إن عرقه ﷺ كان يشبه اللؤلؤ في كبر حجمه بأبي هو وأمي ﷺ. قالت عائشة ل:"ولقد رأيتُه ينزل عليه الوحيُ في اليوم الشديدِ البرد فَيَفْصِمُ عنه، وإن جبينَه لَيَتَفَصَّدُ عرَقًا"(٤).

الثقل المعنوي

فمفهوم الثقل في هذه البصيرة المباركة يتضمّن الثقل المعنوي، إذ إن هذا القول قول من أحاط بكل شيء علمًا، يقول سبحانه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾(يوسف:٣)، كما يقول سبحانه: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾(الزمر:٢٣)، ويقول عز من قائل: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾(الزمر:٥٥)، فهذا القول منتقى عصارة ما في هذا الوجود من حكمة. فصيغة التفضيل "أحسن" فيها، أن رب العزة الذي عنده خزان الوجود وما هو فيه، وما كان فيه، وما لو كان فيه كيف كان سيكون، ما كان وما سوف يكون في المستقبل، رب العزة سبحانه وتعالى ينتقي لنا أحسن ما في هذا الخزان، ينتقي لنا أحسن الآيات، أحسن الأمثال. وللاستبصار بدقة هذا الملمح نستعرض المثال الآتي، ولله المثل الأعلى: فحين تُكلم شخصًا ذا خبرة في مجال معيّن، فإن قوله يكون متسمًا بالتركيز، ويكون متسمًا بالدسامة، وبالتبع يكون متسمًا بالثقل. فليس قول ذي أو ذات التجربة في مجال معيّن كقول غير ذي أو ذات التجربة في هذا المجال نفسه، فكيف بالله عز وجل خالق كل شيء وربه سبحانه ومليكه.

---

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، باب بدء الوحي، كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ؟ حديث رقم: ٢.

إن قوله جلّ وعلا ثقيل بهذا الاعتبار المعنوي، كما أنه ثقيل باعتبار قيمته، إنه قولٌ حين يُتملّك من قبل هذا الإنسان، ويُسْتَدْرَجُ منه بين الجنبين، كما قال ﷺ: "مَنْ قرأ القرآن فكأنما اسْتَدْرَجَ النبوةَ بَيْن جَنْبَيه، غيرَ أنه لا يوحى إليه"(٥)، تعلو قيمته، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم إذا حفظ الرجل منهم الزهراوين (البقرة وآل عمران) يجل في أعينهم. ويستفاد ذلك من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: "عن أنس، أن رجلاً كان يَكْتُب للنبي ﷺ، وقد كان قرأ: البقرة، وآلَ عمران، وكان الرجل إذا قرأ: البقرة، وآلَ عمران، جَدَّ فينا ـ يعني عَظُمَ"(٦).

ولأن هذه الحكمة التي في القرآن المجيد، وهذه العصارة، وهذه القابلية للهداية للتي هي أقوم، حين يُستدمج كل ذلك ويُستدرج بين الجنبين، فإن قيمة المُستدمِج والمُستدرِج تعلو، ويصبح جليلاً سواء أدرك الناس ذلك أم لم يدركوه. كما أن الثقل في هذه البصيرة المباركة يفيد الثقل من حيث الفاعلية، حيث يتّسم بالفاعلية في فتح السبل، وإنارة الدروب، والأخذ بيد الإنسان نحو الأكثر نجاعة ونحو الأكثر إنتاجية والأكثر حكمة.

الثقل في القدرة على الدحض

ومن معاني الثقل في هذه البصيرة المباركة أيضًا، الثقل في القدرة على الدحض، لذلك سمى الله عز وجل الحجج دون حجة كتابه بـ"الداحضة": ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾(الشورى:١٦)، أي أنها مدحوضة لثقل هذا القول، حيث يتنزّل هذا

(٥) حديث مرفوع أورده السيوطي في باب فضائل القرآن.
(٦) أخرجه أحمد في مسنده، حديث رقم: ١٢٢١٥.

القول الثقيل على التلبيس وعلى التمويه، وعلى الباطل وعلى الفساد، وعلى الخطأ فيدحض كل ذلك، ويخلص منه ويبدده، فالثقل في هذه الآية الكريمة وارد بهذا المعنى كذلك.

الثقل من حيث القطع والحسنات

كما أن من تجليات الثقل في هذه البصيرة، الثقل من حيث القطع؛ حين يكون الناس مختلفين، يتناقشون ويتباحثون ويتدارسون ويتجادلون، ثم يأتي قول الله ﷻ، فيقطع قول كل قائل آخر، لثقله ولبنائيته، ولكونه يستدرج كل هذه المحددات المنهاجية التي تجعله قادرًا على القطع والبتر مع كل خطإ ومع كل بهرج.

ومن معاني الثقل في هذه البصيرة الجليلة، ثقل هذا القول من حيث الحسنات، لقوله: "من قرأ حرْفًا من كتاب الله؛ فله به حسنة، والحسنة بعشْرِ أمثالها، لا أقول: (الم) حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف"[٧]، ويقال لقارئ هذا القول الثقيل يوم القيامة: "اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية كنت تقرأ بها"[٨]. وأما من عمل به فذاك متبوّؤه من الجنة حيث يشاء، قال تعالى في حق العاملين بهذا القول الثقيل وعلى لسانهم: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾(الزمر:٧٤). فهو قول ثقيل في ميزان الحسنات: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۞ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا

---

[٧] أخرجه الترمذي في سننه، أبواب فضائل القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء فيمن قرأ حرفًا من القرآن ماله من الأجر، حديث رقم: ٢٩١٠.

[٨] أخرجه الترمذي في سننه، أبواب فضائل القرآن عن رسول الله ﷺ، حديث رقم: ٢٩١٤.

أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾(الأعراف:٨-٩)، قول ثقيل في ميزان رب العزة، حيث ترجح كفة من أُكرم بهذا القول واستدرجه بين جنبيه، ثم عمل به من حيث الحسنات ومن حيث الأجر العظيم.

الثقل من حيث قدرته على شفاء ما في القلوب

إن الله ﷻ سمى كتاب موسى وهارون عليهما السلام بالكتاب المستبين، وسمى القرآن المجيد بالكتاب المبين، ولذلك كان هذا القرآن إمام الكتب، وكان المرسل به عليه الصلاة والسلام لثقل القول الذي أنزل عليه، هو الإمام الذي أكرمه الله ﷻ بإمامة الأنبياء جميعًا هذا القول أيضًا ثقيل من حيث قدرته على شفاء ما في القلوب وإحيائها: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(الإسراء:٨٢)، فحين يستقر هذا القول الكريم في قلب المؤمن أو المؤمنة، فإنه لا يمكن أن يتزاحم معه هناك لثقله شيء آخر، من شبهة أو شهوة أو نزغة أو نفثة أو غير ذلك، حيث يملأ هذا القول المبارك القلب فيخبت له ولا يترك مكانًا لسواه أو لغيره، مصداقًا لقول الله ﷻ: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾(الحج:٥٤).

الثقل من حيث تمكين الإنسان من الاعتبار

ثقيل هذا القول كذلكم من حيث تمكينه الإنسان من الاعتبار: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾(الحشر:٢)، فسفينته لا يمكن أن تعترضها أساطيل الشبهات ولا المغالطات، إذ عندها القدرة على شق طريقها من عدوة إلى أخرى، من عدوة الجهل إلى عدوة العلم، من عدوة الحيرة إلى عدوة الهداية، من عدوة الشك إلى عدوة اليقين... إنها سفينة قادرة

ـ بإذن العلي الكريم ـ على مخر المياه الفاصلة بين هذه العدوات لثقلها، والسفينة كلما كانت أثقل، كانت أقدر على مخر عباب البحر ﴿وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾(يونس:٢٢).

الثقل والرجحان حين المقارنة مع الكتب السابقة

كما أن من معاني الثقل في هذه البصيرة الكريمة، الثقل والرجحان حين المقارنة مع الكتب السابقة، فالله ﷻ سمى كتاب موسى وهارون عليهما السلام بالكتاب المستبين: ﴿وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ﴾(الصافات:١١٧)، وسمى القرآن المجيد بالكتاب المبين: ﴿طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾(النمل:١)، ولذلك كان هذا القرآن إمام الكتب، وكان المرسل به عليه الصلاة والسلام لثقل القول الذي أنزل عليه، هو الإمام الذي أكرمه الله ﷻ بإمامة الأنبياء جميعًا، كما ثبت في حادثة الإسراء والمعراج المباركة. فقد أخرج مسلم من حديث الإسراء قوله: "وقد رأيْتُنِي في جماعةٍ من الأنبياء (...) فحانت الصلاة فأَمَمْتُهُمْ"[٩]، فهو قول ثقيل بالمقارنة مع النبوات السابقة والسالفة.

الثقل في حوار الإنسان مع ذاته

ثقيل هذا القول أيضًا في حوار الإنسان مع ذاته، فالإنسان ليس وحدة مفردة، وإنما هو يُكِنُّ جملة من الوحدات الأخرى، فهناك الروح، وهناك النفس، وهناك الملك، وهناك القرين، وهناك شياطين الجن والإنس، وهناك المحيط العام، وإيحاءات هذه الأصوات الشتى التي تؤثث باطن

[٩] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب ذكر المسيح ابن مريم، والمسيح الدجال، حديث رقم: ١٧٢.

الإنسان تظهر وتلوح كما لو كانت متساوية من حيث وزنها ومن حيث حجيتها، داخل ذات الإنسان. وفي إطار كل هذه الوحدات المكونة له حين يتدخل هذا القول الثقيل، فإن برد اليقين يحل بقلب المرء ولا يبقى، كما قال الله ﷻ: ﴿فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾(الزمر:٢٩)، وإنما يصبح "سَلَمًا" لله رب العالمين، ويصبح أقدر على أن يدخل في السلم كافة، قال ﷻ: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۞ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ۞ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ ۞ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۞ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(الأعراف:٢٠٠-٢٠٤).

الثقل من حيث التحدي

أختم هذا القول عن القول الثقيل، بالإشارة إلى أن من معاني الثقل أيضًا، ثقل هذا القول العظيم من حيث التحدي الذي قد تحدى الله ﷻ به الجن والإنس: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(البقرة:٢٣). هذا التحدي قائم منذ أربعة عشر قرنًا، وقد شهد التاريخ ما وقع للذين سولت لهم أنفسهم أن يزاحموا في هذا المضمار، أو أن ينافسوا هذا القول الثقيل. ولذلكم فإن هذا الثقل ينصرف لكل هذه المعاني وزيادة، فهو الدواء، وهو البلسم، وهو الشفاء، وهو الرقية المباركة التي حين تدخل ذات الإنسان فإنها لثقلها تقضي على الأدواء وعلى الأمراض كلها: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ

آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾(فصلت:٤٤).

نسأل الله جل وعز أن يشفينا بهذا القول الثقيل من كل أدوائنا وأَضْرُب ضُرِّنا الظاهرة والباطنة. آمين.

المبحث الثاني:

بنائية القرآن المجيد..

دعامة من دعامات الختم

إن من آكد مقتضيات التعامل مع كتاب الختم، الوقوفَ على المنهج القرآني المكنون النابض المتجدّد الذي يقود الإنسان نحو آفاق الإفادة من قابلية القرآن المجيد للهداية للتي هي أقوم، ولن يتيسّر ذلك إلا عن طريق الاطراح الملحّ، استنطاقًا واستهداء، بين يدي كلام الله تعالى.

بنائية القرآن المجيد.. دعامة من دعامات الختم[١٠]

يعتبر مفهوم المنهج (Méthode) من أنفس ما اهتدى إليه العقل البشري عبر قرون متتالية من الكدح والمكابدة في المجال المعرفي، وهو عبارة عن آليات متضافرة للكشف عن الحقائق المعرفية في مجالاتها المتعددة والمتنوعة، إذ ينصبغ المنهج دومًا بصبغة المجال الذي يُعمَل فيه.

وقد أدى إعمال المنهج إلى بروز مفهوم أدق هو مفهوم "المنهجية" (Méthodologie)، وهي عبارة عن إطار مرجعي جامع لمجموعة آليات استنطاقية بحثية متواشجة ينتظمها ناظم موحد.

ولم يهتد العقل البشري إلى المنهجية في المجال الكوني إلا بعد أن اكتشف أن الظواهر الكونية موحدة عضويًّا، انطلاقًا من إدراك بنائية الكون ووحدته العضوية. وقد تمت تعدية هذا المفهوم إلى المجالات الاجتماعية والإنسانية من لدن مجموعة من المدارس.

وفي مقابل بنائية الكون، التي أطلق اكتشافُها إمكانَ البحث المنهاجي وفجر كلَّ هذه العطاءات المعرفية والمادية التي نشهدها اليوم، فقد منّ الله سبحانه بأن أقر بين ظهرانينا القرآن ترتيلاً، والترتيل لغة من "الرتل وهو حسن تناسق الشيء. وثغر رتَل ورتِل: حسن التنضيد مستوي النبات، ورتّل

---

[١٠] مجلة حراء، العدد: ١٧ (أكتوبر - ديسمبر ٢٠٠٩).

الكلامَ: أحسن تأليفه. والرتيلاء: جنس من الهوام" وهي العنكبوت التي تنضد بيتها بشكل شبكي بديع تتفاضى كل مكوناته. غير أننا نجد كثيرًا من المفسرين ـ رغم اتفاق أقوال أئمة اللغة على أن الترتيل مأخوذ من النضد ومن الاتساق ومن التنسيق ومن الانتظام على استقامة ـ قد قصروه على الجانب الصوتي منه؛ فقالوا هو: "إرسال الكلمة من الفم بسهولة واستقامة". ولما كان الأمر في القرآن ينصرف بالأصل إلى تدبر المعاني وتفهمها، إذ هو كتاب هداية، فإن قَصْر المعنى على الجانب الصوتي من القرآن رغم الحشد الحاشد من الآثار، كآثار ابن عباس ومجاهد وقتادة، ومن كلام أئمة اللغة، كابن الأعرابي والجوهري وابن منظور وابن عباد وغيرهم مما ينص جميعه على حسن تفهم المعاني وتفهيمها، أقول: رغم كل تلك الآثار والأقوال فقد تم إهمال البعد البنائي/النَّضْدي الاتساقي الذي تتضمنه هذه الكلمة: الأمر الذي يعد تحكمًا بغير برهان، خصوصًا إذا وجدنا في تعريفات بعض القراء كأبي البقاء الكفوي للترتيل، النصَّ الصريح على أنه للتدبر والاستنباط أيضًا وذلك في قوله: "وأما الترتيل، فإنه للتدبر والتفكر والاستنباط".

إن الوحدة العضوية في القرآن المجيد، والتي تشكل أحد أهم وجوه الإعجاز فيه، تفتح المجال أمام القراءة المنهاجية للآيات/البصائر صُعُدًا نحو مآلات معرفية لا حصر لها.

ولطالما دندن علماؤنا كالإمام ابن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦هـ)، والإمام عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ)، والإمام أبي بكر بن العربي (ت٥٤٣هـ)، والإمام أبي إسحاق الشاطبي (ت ٧٩٠هـ) وغيرهم حول بنائية القرآن تحت عناوين مختلفة؛ فتارة سموها النظم، وتارة سموها

الترتيب، وأخرى سموها الاتساق أو المعمارية أو البنائية مباشرة.

ومن أعظم وأجلى ما كتب حول بنائية القرآن تلك الورقات الوضيئة التي كتبها الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه القيم "النبأ العظيم"، وسوف نجتزئ منها بثلاث فقرات نرى فيها تعبيرًا واضحًا عن إدراكه العميق لهذه البنائية، محيلين على باقيها ليراجع في موضعه.

يقول: "فلو أنك نظرت إلى هذه النجوم عند تنزيلها... فرأيتها وقد أُعِدّ لكل نجم منها ساعة نزوله سياجٌ خاص يأوي إليه سابقًا أو لاحقًا، وحُدد له مكان معين داخل السياج متقدمًا أو متأخرًا، إذن لرأيت من خلال هذا التوزيع الفوري أن هناك خطة تفصيلية شاملة قد رُسمت فيها مواقعُ النجوم كلها من قبل نزولها، بل من قبل أن تخلق أسبابها، وأن هذه الخطة التي رسمت على أدق الحدود والتفاصيل قد أبرمت بآكد العزم والتصميم.. فما من نجم وضع في سورة ما ثم جاوزها إلى غيرها، وما من نجم جعل في مكان ما من السورة آخرًا ثم وجد عنه أبد الدهر مصرفًا ومحولاً..."[١١].

ويقول: "أقبل بنفسك على تدبر هذا النظم لتعرف بأي يد وضع بنيانه، وعلى أي عين صنع نظامه... ولسوف تحسب أن السبع الطوال من سور القرآن قد نزلت كل واحدة منها دفعة، حتى يحدثك التاريخ أنها كلها أو جلها قد نزلت نجومًا، أو لتقولن إنها إن كانت بعد تنزيلها قد جمعت عن تفريق، فلقد كانت في تنزيلها مفرقة عن جمع، كمثل بنيان كان قائمًا على قواعده، فلما أريد نقله بصورته إلى غير مكانه قدّرت أبعاده ورقمت لبناته، ثم فرق أنقاضًا، فلم تلبث كل لبنة منه أن عرفت مكانها المرقوم،

---

[١١] النبأ العظيم، (ص:١٥٠-١٥١).

وإذا البنيان قد عاد مرصوصًا يشد بعضه بعضًا كهيئته أول مرة"[١٢].

ثم قال: "ولماذا نقول إن هذه المعاني تنتسق كما تنتسق الحجرات في البنيان؟ لا، بل إنها لتلتحم فيها كما تلتحم الأعضاء في جسم الإنسان، فبين كل قطعة وجارتها رباط موضوعي من أنفسهما، كما يلتقي العظمان عند المفصل، ومن فوقهما تمتد شبكة من الوشائج تحيط بها عن كثب، كما يشتبك العضوان بالشرايين والعروق والأعصاب... كما يأخذ الجسم قوامًا واحدًا ويتعاون بجملته على أداء غرض واحد، مع اختلاف وظائفه العضوية"[١٣].

أهمية بنائية القرآن المجيد في المجال المعرفي

إن القرآن المجيد في اتساق وحدته البنائية يحقق للبشرية وحدة معرفية تلملم شتات الإنسان المعرفيَّ، وتوحد بين زوايا إدراكه، بما يشبه إكسابه جهاز تنسيق معرفي يُمَكِّنه من الخروج من التفرع الإدراكي ومرحلة الشركاء المتشاكسين، إلى صيرورته سلمًا لله رب العالمين، فيطفق في السير سويًّا على صراط مستقيم. وقد تنبهت دة. منى أبو الفضل -رحمها الله- بلوذعية إلى هذه الحقيقة فقالت في معرض حديثها عن حيوية الخطاب القرآني:

"إن هذه الحيوية إنما ترجع في جانب منها إلى الإعجاز البياني في الأسلوب القرآني في الخطاب؛ والذي يجمع بين خطاب النفس الإنسانية في أبعادها الفطرية والوجدانية وخطاب العقل في أبعاده المنطقية

---

[١٢] المصدر نفسه، (ص:١٥٤-١٥٥).

[١٣] النبأ العظيم، (ص:١٥٥).

والبرهانية. ومناطُ الإعجاز هنا هو في تجاوزه للقوانين النفسية التي بمقتضاها نرى العقل والعاطفة لا يعملان إلا بالتبادل، وبنسب عكسية نحو تضافر وائتلاف بينهما... والدلالة العملية لذلك في مجال بحثنا، هي أن الأصول المنهجية للتعامل مع مصادر التنظير الإسلامي لابد أن تعتبر بهذا المعنى في أسلوب البيان القرآني. فإذا كان هناك موضع للتمييز بين تنوع جوانب ومصادر السلوك الإنساني والسلوكيات في المجتمع، فإن علينا أن نتعامل مع الإنسان في وحدته المتضمنة لأبعاده المتنوعة، وأن تنطلق مناهجنا في التعامل مع الظواهر الاجتماعية من تلك القاعدة التي توفِّر لها أوسعَ قدر من التكامل الممكن وسعة الأفق.

والوجه الآخر لهذه الملاحظة أن علينا أن نتعامل بكثير من التحفظ مع المناهج المتداولة في مجال التخصص، ليس فقط للاعتبار الجوهري الذي يحكم منحاها جميعًا، والذي ينشأ عن المنطلقات الفلسفية المعرفية التي تقوم عليها، مما يتنافى مع الأصول المعرفية الإسلامية، ولكن لأنها لا محالة واقعة بين مثالب الإفراط والتفريط، على النحو الذي من شأنه أن ينعكس في كل من طبيعةِ ونتيجة الدراسات التي ترتكز إليها.

وأول ما نستفيده من التعامل مع أسلوب البيان القرآني، هو ضرورة اتساق الأصول المعرفية ومحتوى الرسالة مع الأصول المنهجية أو طرقِ الاقتراب والتناول لها. بل إننا نرى أنه من شأن تمايز الخطاب القرآني على هذا النحو الذي يؤلف فيه بين المتنافرات، أنْ أوجد نسقًا إسلاميًّا خاصًّا في المعرفة، قوامه الوحدة والاتساق، وإمكاناتُ التأليف بين المتباينات، وهذا على خلاف النسق السائد في المجال المعرفي المعاصر، والذي هو وليد وميراث التطور التاريخي الخاص بالحضارة الأوروبية في أبعادها

الفكرية والروحية والواقعية"[١٤].

ولقد سُقت هذا النص بطوله ولم أشأ أن أثلمه بتصرف لما له من بالغ الأهمية في هذا الباب.

إن إدراك هذه الحقائق يضع على عاتق علماء الأمة مهمة تجليةٍ مستأنفةٍ لمعالم النسق المعرفي الإسلامي. ومن الواضح قيام هذا النسق على المنهاجية المؤسَّسة بدورها على إدراك البنائيتين في الكتابين: المنظور (الكون) والمسطور (القرآن المجيد). وفيما يلي بيان لعلاقة العلوم المتصلة بالكتابين بوحدتهما البنائية.

علاقة التسخير بالوحدة البنائية للكون

مفهوم التسخير: قال الزبيدي: "والتسخير: التذليل، وسفن سواخر مواخر من ذلك. وكل ما ذل وانقاد أو تهيأ لك على ما تريد، فقد سخِّر لك. وسخره تسخيرًا: ذلّله وكلفه عملاً بلا أجرة... قال الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾(إبراهيم:٣٣). وقوله تعالى: ﴿وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾(الأعراف:٥٤). قال الأزهري: جاريات مجاريهن"[١٥].

وتسخير الخليقة للإنسان عام، يقول تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾(الجاثية:١٣).

إن الذي يحول دون الإنسان وتسخير الكون هو التعضية والتفرقة بين مظاهره وعدمُ الاستبصار ببنائيته. فمن خلال الاتساق يتمكن الإنسان من إدراك استمرارية النظام الكوني القائم على قوانين وسنن تؤدي وظيفتَها

---

[١٤] نحو منهاجية للتعامل مع مصادر التنظير الإسلامي بين المقدمات والمقومات، (ص:٢٠).

[١٥] انظر: تاج العروس (١١/٥٢٢-٥٢٣)، مادة "سخر".

فيه، وتسري سريانًا لا يتخلف ولا يقصر عن مظهر من مظاهره، ما علم منها الإنسان وما لم يعلم، وبالطرائق التي أحاطت بها معرفته أو تلك التي لم تبلغها بعد.

إن الكون نظام هادف نابض بالحياة مفعم بالمعنى، حيث إن كل أجزائه تكوّن "بناء عضويًّا تتفاعل أجزاؤه وأعضاؤه بطرق لا يزال البشر في بداية الطريق إلى اكتشافها بفضل العلم، لكن في أجزاء محدودة جدًا من الطبيعة. أما المسلمون فهم يعلمون أن الخليقة كيان عضوي، وأن كل جزء فيها يخدم غاية ما، حتى ولو كانوا لا يعرفونها. وهذا العلم ثمرة لإيمانهم".

ورغم أن وحدة الكون البنائية أضحت اليوم مُدرَكًا لا يحتاج إلى مزيد برهنة، فإنه من النافع استحضار الآيات من القرآن التي تفيد بنائية الكون وغائيته وملابسته الحكمة لكل مظاهره ودقائقه آيات كثيرة يتعذر حصرها في مثل هذا المقام، منها قوله تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۝ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ۝ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۝ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۝ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۝ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ۝ مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾(النازعات:٢٧-٣٣)، قال الزبيدي: "والسَّمْك: السقف، أو هو من أعلى البيت إلى أسفله"[١٦].

وتلفت الآيات العديدة التي فيها ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾(الأنعام:٧٣)، النظر إلى أن الكون بناء تسري في جنباته الحكمة والقصد والغائية.

قال برهان الدين البقاعي في معرض حديثه عن قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾(إبراهيم:١٩): "بالأمر الثابت من

[١٦] تاج العروس: (٢١٠/٢٧)، مادة "سمك".

وضع كل شيء منها في موضعه على ما تدعو إليه الحكمة"[١٧].

إن هذه الوحدة البنائية في الكون هي التي مكّنت العقل البشري -بعد اكتشافها- من تأسيس كل العلوم التي يمكن أن نصطلح على تسميتها "علوم التسخير"، ثم تطويرها إلى حد بلورة المنهجية التوحيدية بين التخصصات، والتي أعطت الفكر العلمي الجديد مددًا قويًّا، وفتحت أمامه إمكانات في غاية الكثرة والتنوع والنفع.

علاقة التيسير بالوحدة البنائية للقرآن المجيد

أ- مفهوم التيسير: اليسر بالفتح، ويحرك: اللين والانقياد... ويسره: لاينه. واليسر محركة: السهل اللين الانقياد... واليسر بالضم: السهولة والغنى. واليسر ضد العسر، واستيسر الشيء: تسهّل، ويسره: سهّله... ويسّرت الغنم: كثر نسلها ولبنها.

وقد وردت لفظة التيسير مقترنة بكتاب الله تعالى في ستة مواقع[١٨] من القرآن المجيد، منها أربعة في سورة القمر بلفظ واحد هو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾(القمر:١٧-٢٢-٣٢-٤٠) ومنها قوله تعالى في سورة مريم: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾(مريم:٩٧)، ثم قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(الدخان:٥٨). ولفظ التيسير في هذه الآيات جميعها يفيد تسهيل القرآن للذكر من لدن الله الذي يفضي إلى لين وانقياد ذاتي لمن أراد الذكرى.

ب- العلاقة بين علوم التيسير والوحدة البنائية للقرآن الكريم: في مقابل

---

[١٧] نظم الدرر، (١٠/٤٠٢).

[١٨] المعجم المفهرس للألفاظ القرآن الكريم، (ص:٩٣٨).

التسخير للكون إذن، نجد تيسير القرآن، وفي مقابل التفكر في الكون المنتج للمعرفة فيه ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّٰهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً﴾(آل عمران:١٩١)، نجد التدبر في القرآن المنتج للاهتداء به: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ﴾(ص:٢٩). وكما أن علوم التسخير تنتج عن الوعي ببنائية الكون وخضوعه لسنن قابلة للتعقل والإدراك بمقتضى المواءمة التي بين الكون والإنسان، وأنها علوم تتطور بفعل اتباع المنهجية الآياتية، وتفعيل القدرة على تسمية الأسماء -كما سيأتي بيانه حين الكلام عن المنهجية الآياتية- فإن علوم التيسير تنتج عن الوعي ببنائية القرآن المجيد وتضمنه لسنن قابلة للتعقل والإدراك من لدن الإنسان، بمقتضى المواءمة التي جعلها الله بين الإنسان والقرآن. غير أن علوم التسخير -وللنفع السريع الظاهر الذي ينتج عنها- قد شهدت وتشهد تطورات في غاية الأهمية والسرعة، في حين أن علوم التيسير قد أصابتها صنوف من الانتكاس، بسبب عوامل متعددة، أهمها التقليد وانعدام الرؤية وانقطاع الطريق، بفعل الحضور الجبار الكابت للاجتهادات وللجهود الموسوعية التي بذلها السابقون، إلى درجةِ رواج مقولات محبطة في أمتنا، من مثل: "ليس في الإمكان أبدع مما كان" وغيرها، مما يحتاج إلى استدراك ناجز من لدن مؤسساتنا العلمية والبحثية.

المنهجية الآياتية ثمرةٌ من ثمرات إدراك البنائيتين (بنائية الكون وبنائية القرآن) وبوابةٌ للمعرفة الناجعة الراشدة.

ونقصد بالمنهجية الآياتية المعرفية القائمة على قراءة الآيات والبصائر باسم الذي علم الأسماء، الله الذي خلق.

وقد كان هذا المضمون، هو أول وحي تلقاه سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ، وهو قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(العلق:١-٥).

والآيات والبصائر مبثوثة في الكون، كما أنها مكونات القرآن. إن آيات سورة العلق تأمر سيدنا محمدا ﷺ، ومن خلاله الإنسانَ في كل زمان وفي كل مكان، أن يقوم بضربين من القراءة: قراءة آيات وبصائرِ الخلق: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾، وقراءة في الوحي الذي حفظه الله في السطور وفي الصدور: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾. فهي قراءة في آيات وبصائرِ الكون بتوجيهٍ وترشيد من آياتِ وبصائر القرآن.

إن الآيات والبصائر في القرآن المجيد تمكّن من إضافة الوجهة إلى قدرات الإنسان التسخيرية، والناجمة أساسًا عن تعليم الأسماء الممكّنة من قراءة الآيات والبصائر الكونية كما يتضمن قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۞ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾(البقرة:٣١-٣٣)، بيد أن الوجهة التي تحررها لنا آيات الكتاب الحكيم، وهي من الضرورة بحيث بدونها لا ينال رشد ولا يُهتدى إلى قبلة.

نعم، إن الآيات والبصائر الكونية، حتى حين تقرأ بدون هداية من آيات القرآن المجيد تُكسب الإنسان الفعالية التسخيرية، ولكنها فعالية قد تكون

مردية في غياب الاستبصار بالوجهة؛ يقول تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمَ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾(العنكبوت:٣٨).

قال الفراء: "كانوا عقلاء ذوي بصائر"، فهم كانوا ذوي بصائر تسخيرية، غير أن عدم استجابتهم لرسلهم -والذين كسائر الرسل جاؤوا لإضافة الوجهة إلى الفاعلية- أدى بهم إلى الهلاك.

إن قراءة الآيات والبصائر الكونية استهداءً بالآيات والبصائر القرآنية في ضوء الإدراك المنهاجي للبنائيتين، تمكّن الإنسان من وجهته فقبلته، وبالتبع من السجود والاقتراب.

وهنا الفيصل بين منظومتين: منظومة الجمع بين الآيات الكونية والقرآنية، ومنظومة التعضية والتفريق بينهما. وهي منظومة لا ترى في كسب الإنسان إلا أداة إنتاج للمال والطعام/للقيمة المضافة، مما يشكّل حالة عدم إبصار مردية، إذ الكون في منظومة أرحم الراحمين عطاء غير مجذوذ، يسخر بالقراءة لآياته وبصائره في نور آياتِ وبصائرِ القرآن المجيد، للتمكن من الوجهة والقبلة فالسجودِ، وليس فقط مجالاً لإنتاج القيمة المضافة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ۞ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ ۞ إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾(الذاريات:٥٦-٥٨).

فالكون إذن في منظومة أرحم الراحمين ليس معملاً مقتصرًا على إنتاج "القيمة المضافة" كما تراه منظومة الذين لا يوقنون، بل هو ابتداء معمل لعبادة الله وحده، ووظيفة كل من فيه هي هذه، سجودًا وتسبيحًا، وهي وظيفة لا تنفي الوظائف الأخرى بل تؤطرها وتكملها، وحين تُعَطَّل

من قِبَل مَن حمَل أمانة القيام بها إراديًا، فإنه ترتّبت على ذلك عواقبه. قال رسول الله ﷺ: "لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق"[١٩]، أي بعد أن تعطل الوظيفة الأصلية للوجود الإنساني في هذا الكون.

إن الإعراض عن الاهتداء بالآيات والبصائر القرآنية في عملية القراءة للآيات والبصائر الكونية، يفضي إلى هلاك لا يصيب المعرضين خاصة، بل يعم معهم مَن يضلونهم بعلم وبغير علم. يقول تعالى: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ۞ لاَ جَرَمَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ۞ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾(النحل:٢٢-٢٥). إن العقل العلمي المعاصر يرفض استدماج مفهوم الوحي في بنيته المعرفية، وهو إذ يتسامح مع بعض موضوعاته، فإنه يصمم على رفض منهجيته ووحدته البنائية، وإطاره الغائي، مؤكدًا على أن اختصاص الكتب الدينية يجب أن يتوقف عند القناعات الإيمانية، وغيبيات ما وراء الطبيعة... فطالما أن هناك مقولات في الكتب الدينية تتعلق بالغيب، فإنه لا مجال لاتخاذها مصدرًا من مصادر العلم، ومن ذلك تعريف المعرفة على أنها "كل معلوم خضع للحس والتجربة".

إن القراءة الآياتية للكون تتجاوز بالإنسان حالة الإفراز الذهني للمعرفة، المنفصل عن الكون والتجريب (الأنموذج اليوناني القديم)

[١٩] جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم"، حديث رقم: ١٩٢٤. وصححه الألباني في المشكاة، حديث رقم: ٥٥١٧.

كما تتجاوز به حالة الغرق في التجريب، دون النظر إلى الغائية والقصد (الأنموذج المعرفي الغربي المعاصر)، إنها قراءة تمكّن الإنسان من تجاوز المحدودية التي تفرضها عليه الحتمية الكزّة، نحو آفاق الوصل غير المتناهي بين آيات الكتابين، باعتبار إمكان النظر إليها من زوايا مختلفة، أو باعتبار التفصيل للمجملات الذي يُتيحه إعمالُ قدرة الأسماء، وهو لا شك تفصيل يفتح أمام العقل الإنساني إمكانات في غاية السعة.

إن المنهجية الآياتية تحول دون مُعتمِدها واستبداد سَوْرة الإحساس بامتلاك الحقيقة المطلقة/الاستغناء، مما يوقع في الطغيان، كما تحول دون مُعتمِدها ورفض ما خضع من المعارف لتأييد الآيات وشهادتها.

إن المعرفة الناتجة عن المنهجية الآياتية أشبه ما تكون بصراط لامتناه نظرًا لتجدد القراءة في كل حين، بسبب تعددِ وتنوع الآيات. أما إذا تم الانطلاق نحو الربط بين الآيات وبين ما ينبثق من آيات جديدة بعد تفصيلها، فإن المعرفة تصبح نابضة بفعل تصديقها لما بين يديها والهيمنة عليه نحو تصديق آخر جديد، بما يشبه حركة نواسية متنامية سيارة، وهنا تتحول القدرة على التسمية إلى مَعبر نحو إبصار الآيات والبصائر، إذ الأشياء والحقائق تُعرف بكيفية أدق وأمثلَ عبر آياتها، وليس عبر مسمياتها. فتسمية الحياة حياة ليست أقدر على التبصرة بماهيتها من الآيات الدالة عليها: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(فصلت:٣٩).

إن المسمى في نشأته الأولى كان عبارة عن رؤية للآيات/قراءة لها، فهو تسجيل وتعبير عن رؤيةِ راءٍ وقراءة قارئ. والمنهجية الآياتية تلغي الوسائط

وتجعل الإنسان في كل مرة محقِّقًا للاتصال المباشر بالآيات، فحديث المتحدثين بالأسماء لا يعدو -في ظل المنهجية الآياتية- أن يكون تنبيها للنظر الشخصي في الآيات: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ۞ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(العنكبوت:١٩-٢٠)، ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(الأنعام:٩٧)، ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾(الأنعام:١٠٤).

إن هذه المنهجية الآياتية باعتبارها ثمرة من ثمرات إدراك الوحدة البنائية للكتابين المنظور والمسطور هي التي تعطي لسير الإنسان في الكون معناه، وتجعل كسبه التسخيري كسبًا باحثًا عن الرشد، إذ هي منهجية يشعر إنسانها بالافتقار إلى الوحي: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ۞ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ ۞ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾(الأنعام:٧٥-٧٧).

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾(الأنبياء:٥١). وفي مرحلة الختم للنبوة والحفظ للذكر واتضاح معالم المنهجية الآياتية يصدع القرآن بتحميل إنسانها كامل مسؤوليته، كما يصدع برفع نير الإكراه ونتق معالم القدرة عنه لِما استقر في واقعه بطريقة جلية بينة محفوظة من البراهين والحجج، ومن الآيات والبصائر الدالة جميعها على سبيل الرشد: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ

فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۞ اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(البقرة:٢٥٦-٢٥٧).

والرشد في القرآن المجيد من الجلاء والبيان بحيث ما لبثت الجن حين سمعته أن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۞ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾(الجن:١-٢).

وإجمالاً، فإن من آكد مقتضيات التعامل مع كتاب الختم، الوقوفَ على المنهج القرآني المكنون النابض المتجدّد الذي يقود الإنسان نحو آفاق الإفادة من قابلية القرآن المجيد للهداية للتي هي أقوم ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾(الإسراء:٩)، ولن يتيسّر ذلك إلا عن طريق الاطراح الملحّ، استنطاقًا واستهداء، بين يدي كلام الله تعالى. ومن مقتضيات هذا الاطراح، التلقي المسلّم من الوحي عن طريق الإعمال المتصاعد المتنامي لمنهاجيته السارية فيه والتي تتكشف بالاجتهاد عبر الزمن، وهي منهاجية قد تبدّى من خلال ما سلف، أن من دعاماتها الأساس، الوقوفَ على بنائية القرآن المجيد، وإدراكَ أنه ترتيل، ولنا بعون الله عودة إلى الموضوع.

المبحث الثالث:
من مكونات المنهج النقدي في القرآن الكريم.. التصديق والهيمنة

إن الإنسان قد خُلق موائمًا للوحي وموائمًا للكون، ولولا هذه المواءمة لما استطاع أن يتعقَّل الكون من حوله فيسخّره انطلاقًا من التفكر، ولما كان قادرًا على التعامل مع الوحي وبنائيته ليستطيع بذلك أن ييسره انطلاقًا من التدبّر.

من مكونات المنهج النقدي في القرآن الكريم.. التصديق والهيمنة[٢٠]

الحديث عن المنهج النقدي في القرآن الكريم، حديث يقتضي أن يُقدّم بين يديه ضبط مصطلحيٌّ من أجل إبراز التمايز بين الذي يُراد بالنقد وبالمنهج في هذا السياق القرآني الاستثنائي، وبين ما يُراد بهما في سياقات أخرى.

والحاصل أن الذهول عن هذه القضية يمكن أن يجعل شائبات مفاهيمية كثيرة تشوب البحث والتناول لهذا الموضوع. ذلكم أن السياقات الأخرى التي يُطلق فيها مصطلح النقد ويمارَس، تكون سياقات مؤطرة بمجموعة من النماذج المعرفية "البراديغمات" ومن الثوابت النفسية التي توجّه استعمال هذا المصطلح، أي إن ثمة مجموعة من النماذج الكامنة التي تحدد المقاصد والغايات المتوخاة من العملية النقدية؛ وغير خاف أن كل منظومة لها منطلقاتها ومقاصدها وغاياتها التي تؤطر ممارسة عملية النقد من داخلها، وتصبغها بصبغتها، وهذا في النسق القرآني أبرز.

لن أتناول في هذا المقام تلافيف وتفاصيل البحث المصطلحي اللغوي حول المنهج النقدي، وبحسبي أن أركز على ثلاثة أمور:

الأمر الأول: أنّ النقد يُراد من ورائه تمييز الصالح مما دون ذلك، ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ﴾(الجن:١١)، وهذه قضية بارزة في كل نقد.

---

(٢٠) مجلة حراء، العدد: ١٤ (يناير – مارس ٢٠٠٩).

الأمر الثاني: أن النقد يمكن أن يكون ستاتيكيًا ثابتًا كما يمكن أن يكون ديناميًّا تجاوزيًّا. فالنقد الستاتيكي هو النقد الذي يمارَس انطلاقًا من وحدات قياسية ومعيارية ثابتة، في حين أن النقد الدينامي التجاوزي هو الذي تكون له القدرة على إنتاج وحداته القياسية والمعيارية وفقًا للسياقات التي يمارَسُ فيها. غير أن السياق القرآني لا يمكن للنقد فيه أن يكون ثابتًا ستاتيكيًّا، إنّما هو متجاوز ودينامي، بحيث إنّ الإنسان في تعامله مع القرآن المجيد لا يزال في ارتقاء كلّما ظن أنه قد أبصر. فإن هذا الإبصار سوف يجد نفسه متجاوزًا بمزيد من الحوار والتعاطي مع الوحي الخاتم، المصدِّق لما بين يديه والمهيمن عليه.

وهو ما يجسده مفهوم بليغ في القرآن المجيد، مفهوم الأكبرية ﴿هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾(الأنعام:٧٨)، والذي تعبر عنه صيغة التكبير في الآذان والصلاة "الله أكبر" التي يقترن فيها اسم الجلالة بصيغة التفضيل فتفيد أنّ الإنسان ما يزال متجاوزًا لذاته حين النطق بهذه الأكبرية في كل حركة من حركات الصلاة فيكون بذلك في ارتقاء واقتراب دائمين، ﴿كَلَّا لاَ تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾(العلق:١٩)، ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾(النجم:٤٢).

إن صيغة التفضيل تفيد أن الله تعالى أكبر ممّا استقر في نفسي عنه سبحانه في اللحظة التي سبقت النطق اللاحق بهذه الأكبرية. ففي السياق القرآني ليست هناك ستاتيكية ولا جمود، وإنما هو التجاوز بإطلاق.

العلوم الاستنطاقية

الأمر الثالث الذي أود الإشارة إليه بين يدي الحديث عن المنهج النقدي في القرآن المجيد هو أنّ الإنسان في حواره مع القرآن الكريم،

من أجل القيام والاضطلاع بمهمة النقد هذه، وجَب أن ينتبه إلى أن العلوم التي يتحرك انطلاقًا منها، تعد في جُلها علومًا اجتهادية، اللهم إلاّ ما كان منها توقيفيًّا كأبواب الاعتقاد والفقه الثابت المستندة أحكامهما إلى نصوص قطعية الثبوت والدلالة. وما عدا ذلك فمن العلوم الاستنطاقية "ذلكم القرآن فاستنطقوه" كما قال علي ﵁ وأرضاه، أو كما قال سيدنا عبد الله بن مسعود "ثَوِّروا القرآن" أي استخرجوا خيراته، وهي علوم يكون الإنسان في حوار دائم مع الوحي انطلاقًا من مؤهلاته ومن أفقه المعرفي هو من أجل اكتشاف مفاتيح جديدة يدخل باستعمالها إلى عالمه الرحيب.

وآية ذلك أنّ الله تعالى يبين أنّ هذا القرآن جاء ميسرًا: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾(القمر:١٧-٢٢-٣٢-٤٠) أربع مرات، ثم في سورة مريم، ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾(مريم:٩٧)، وهو تيسير مرتبط بالتدبر، ومرتبط بالنظر المستأنف في الوحي من أجل إنتاج مجموعة من العلوم يمكن أن نصطلح على تسميتها "علوم التيسير".

وبموازاة مع ذلك فالكون فيه ميكانيزمات وآليات أخرى؛ فهو الكتاب المنظور الذي سُخّر في مقابل تيسير القرآن الكتاب المسطور ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾(الجاثية:١٣)، والإنسان انطلاقًا من حواره مع الكون، يكتشف علومًا يمكن أن نصطلح على تسميتها بعلوم التسخير، وفي مجالات التيسير. كما في مجالات التسخير[٢١]

[٢١] في مجالات التيسير تدبّرًا: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾(ص:٢٩)، وفي مجالات التسخير تفكّرًا: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً﴾(آل عمران:١٩١).

ينطلق الإنسان في إدراكه وتأسيس معارفه من هبة إلهية استثنائية فريدة "المواءمة" أي إنه قد خُلق موائمًا للوحي، وموائمًا للكون. ولولا هذه المواءمة لما استطاع أن يتعقَّل الكون من حوله فيسخره انطلاقًا من التفكر، ولما كان قادرًا على التعامل مع الوحي وبنائيته ليستطيع بذلك أن ييسره انطلاقًا من التدبّر.

وهنا تبرز ظاهرة حريّة بالتتبع والرصد، ومفادها أنه بعد إحكام الكتاب الخاتم، وجعله بناءً وترتيلاً، حدثت ثورة في مجالات علوم التيسير، ونشأت علوم.. فإنْ نحن تتبّعنا مثلا ما قام به الصحابة الكرام ﷺ والتابعون وأتباع التابعين فسوف نجد أن التعارك والتفارك والتشاحذ كان سمة من سمات البحث في مجالات التيسير البارزة.

فقد كان الإمام أبو حنيفة ﷺ يعجبه ارتفاع أصوات محمد بن الحسن الشيباني وأبي يوسف وزُفر حين يتحمسون أثناء تباحث المسائل والقضايا، ويُسَرُّ بذلك، وكذا الإمام مالك بن أنس، وهذا الإمام الشافعي يقرأ القرآن الكريم المرة تلو المرة أثناء بحثه عن دليل للقياس حتى يستقرّ رأيه على قوله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾(الحشر:٢)، وكذا أثناء بحثه عن دليل للإجماع. وإن نحن قرأنا كتابه "الرسالة" فسوف نرى نماذج من الحوار الحي والنابض مع القرآن المجيد.

طفرات بين مراحل الجمود

كما نجد أنّ العلماء الذين تلوا قد زادوا وأضافوا وشحذوا آراءَ هؤلاء الأئمة الأعلام وغيرهم ممن نذكر في هذا المقام، إلى أن أتت علينا أحيان من الدهر أصابت فيها هذه الدينامية أضرب من الجمود تخللتها طفرات؛

مثل طفرة العزّ بن عبد السلام (ت٦٦٠ هـ) في "الإحكام في مصالح الأنام" أو طفرة ابن تيمية (ت٧٢٨هـ) وتلميذه ابن القيم (ت٧٥١هـ) أو طفرة الشاطبي (ت٧٩٠هـ)، وبعد ذلك آخرين مباركين.

لكنّها تبقى طفرات، إذ لم يبق البحث بنفس العرامة والاستمرارية التي كان عليها، بيد أنه استمر في مجالات التسخير إلى درجة أنّك اليوم إنْ أنت ذهبت إلى طبيب تريد الاستشفاء وأخرج لك كتاب "الحاوي في الطب" للرازي، أو كتاب "القانون" لابن سينا ليداويك بمقتضياتها فإنّك سترفض، لوعيك أن نقلات نافعة ومقدّرة قد حدثت في هذه العلوم.

وهنا وجب التنبيه على أمر هام، وهو أنّ ثمة ثوابت، وأنّ هذه الثوابت قامت عليها الأدلة، ومن ثم فهي أجزاء لا تتجزأ من علوم الوحي ومعارفه، فهي الأسس التي تحمل البناء كله، ومن ثم فهي لا تدخل في هذا الصدد إلا من حيث وجوب بذل المزيد من الجهد لاستبانتها وفقهها، غير أن هناك في هذه المعارف أقضية ومسائل كثيرة قابلة للاجتهاد والنظر وجب طبعًا أن تُقدّر بقدرها في استحضار لقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾(الإسراء:٣٦).

إذ أوضحنا هذه الأمور الثلاثة التي تؤطر منهج تعاملنا مع هذه القضية، فإننا نُريد بعون الله أن نتناول المنهج النقدي في القرآن الكريم، من مدخل واحد سوف نقتصر عليه للضرورة وللإكراهات المقامية وهو "مدخل التصديق والهيمنة".

فمع أن هناك آيات كثيرة في القرآن المجيد تتحدث عن التصديق، إلا أننا لا نجد إلا آية واحدة في سورة "المائدة" تشتمل على التصديق والهيمنة مقترنين، وهي قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا

﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾(المائدة:٤٨). وهذا المدخل لم يعط بعد حقه من الاستكشاف ومن البحث لإبراز خصيصة الاكتمال في الوحي الخاتم، والتي جاءت إليها إشارات واضحة في كل من القرآن الكريم والسنة المطهرة.

الكتاب المبين

ففي القرآن نجد كلمة "أحسن" في قوله تعالى: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾(الزمر:٢٣)، وفي قوله سبحانه: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾(الزمر:٥٥)؛ تدلّ على أن هذا الوحي قد أذن منزله بارتقائه إلى مرحلة أصبح فيها الوحي الأحسن والأمثل والأكمل. وهذا هو الذي يبرز مثلاً من خلال تسمية كتاب نبي الله موسى وأخيه هارون عليهما السلام ﴿الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ﴾(الصافات:١١٧)، في حين أن القرآن المجيد سمي كتابًا مبينًا ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾(المائدة:١٥)، أي إنه قد وصل إلى درجة الإبانة المطلقة.

وفي السنة نجد النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، يُشبّه النبوة كلها بالبناء المكتمل أيضًا في قوله ﷺ: "إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون: هلاّ وُضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين"[٢٢].

---

[٢٢] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب خاتم النبيين ﷺ، رقم: ٣٥٣٥.

وجهتا التصديق والهيمنة

إن آلية التصديق والهيمنة في القرآن المجيد لها وجهتان:

الوجهة الأولى إزاء الكتب السالفة؛ فهناك تصديق لما صحّ من هذه الكتب ثم هيمنة عليها في تكامل تامّ معها. والوجهة الثانية إزاء ما يمور ويعتلج في حياة الناس وارتفاقاتهم من ممارسات وما هو مستقر فيها من أعراف. والتصديق في هذه الوجهة عبارة عن إقرار الصالح من كل ذلك بالسكوت عنه أو الثناء عليه، وتغيير الطالح بالحديث عنه وكشف مساوئه.

وتتم الهيمنة في القرآن الكريم في اتجاهات متعددة، وهي اتجاهات كلها تجاوزية غير إستاتيكية، وهي تجاوزية تتجلى من خلال التوسعة مع الاحتفاظ على كل القوة التي تستبطنها الحقائق الموسّعة، ويجري ذلك بطريقة متنامية، إذ بعد كل مرحلة من مراحل الهيمنة، يبنى على الحقائق الجديدة لكي تتم الهيمنة بها بدورها على مفاهيم وحقائق مستقرة أخرى وتتم توسعتها، لكي تشمل أبعادًا أخرى لم تكن تشملها في مرحلة الخصوصية؛ لأن الوحي في المراحل السابقة عن نزول القرآن المجيد كانت له خصوصيته، إذ كان يُبعث الرسول النبي من أجل هداية الخلق وإرشادهم إلى الصواب ضمن السياقات التي يوجد فيها ووفق توازنات معينة.

فعيسى عليه السلام -على سبيل المثال- يأتي في وقت قد غرقت فيه أمة بني إسرائيل وانغمست في العالم[٢٣]. فجاء بهذه الدفقة الروحانية من أجل انتزاع وانتشال أمته وجذبها الشديد لتخليصها من هذا الانغماس، وقد كان أفق دعوته وهدايته عليه السلام متسقًا مع أزوف زمن بعثة نبي الختم ﷺ، وظل

---

(٢٣) إذ الأمم دائمًا تتأرجح بين قطبين؛ قطب الرهبنة -أو الخروج من العالم- وقطب التكاثر والاستكثار -أو الغرق في العالم-

هذا الأفق مفتوحًا كما يتجلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾(الصف:٦). إذ هو ﷺ الرسول الذي سوف يُحدث التوازن المنشود.

فنحن بصدد تخطيط وتصميم رباني يقوم على التكامل في الأدوار بين الأنبياء: الجذب من لدن عيسى عليه السلام كان قويًا جدًّا في انتظار رسول يأتي من بعده اسمه أحمد ليُحدث التوازن المطلوب. فبينما كانت اليهود لا تسجد لتكون صلاتها -تبعًا لذلك- جلّها وقوفًا، جاء عيسى عليه السلام فنقلهم إلى السجود لتكتمل مظاهر العبادة مع مجيء الرسول المبشّر به أحمد، صلى الله عليه وعلى آله وسلم الذي سيضيف الركوع إلى كل ذلك تصديقًا وهيمنة.

إن تجاوز التأرجح بين هذين القطبين (قطب الرهبنة، وقطب التكاثر) يندرج ضمن مفهوم التوسعة الذي تتجلى من خلاله الهيمنة، وهو تجاوز يستكمل أبعاده ويتم، بإضافة مفهوم الميزان ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۞ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۞ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾(الرحمن:٧-٩)، وهو مفهوم نقف على سريانه في كل مفردات الأداء الحضاري الإسلامي من خلال تأطير وتوجيه رائعين بالآيات والأحاديث المتكاملة.

تتم الهيمنة أيضًا من خلال "الضبط التأويلي" بتحديد أصوله وقواعده، وتبيان موقع النص والعقل ودور الإنسان ومسؤولية العالم؛ حيث يقوم القرآن المجيد من خلال هذا الضبط بتنقية ما اعترى العقل الجماعي المسلم بسبب تسرب بعض ما كان في الأمم السابقة بفعل التداخلات التي تقع من الناحية المفاهيمية والانكسارات المعرفية التي تحصل تحت

تأثيرات اجتماعية أنثروبولوجية وأخرى تاريخية.

كما نجد أن الهيمنة في القرآن المجيد تتجلى من خلال فتح المفهوم، وفتح المعتقد بطريقة تجعلهما مستمرين شاملين مستوعبين لكل عصر ولكل مصر؛ فتلتقي الهيمنة بهذا المعنى مع خصيصة الشمول والاستيعاب في القرآن الكريم.

الكلمة المفتاح

وفيما يلي سوف نرصد منهجية عمل آلية الهيمنة في القرآن الكريم باعتبارها من مكونات منهجه النقدي من خلال كلمة مفتاح هي كلمة "الربّ".

إن القرآن عبارة عن ترتيل، وهو الترتيل الذي يشبه بيت الرُتيلاء التي تنضُد وتنسّق وتُحسّن البناء بطريقة تقوم على التفاضي والاتصال المطلق بين كل مكوناته "Web"؛ بحيث يكون المتعامل مع القرآن المجيد وفق هذا النموذج من المقاربة، حالاً مرتحلا في كل حين منتقلاً بين أرجاء القرآن المجيد كما قال ﷺ: "أحب العمل إلى الله تعالى الحالّ المرتحل"، قال: وما الحالّ المرتحل؟ قال: "الذي يضرب من أول القرآن إلى آخره، كلما حلَّ، ارتحل"[٢٤]. وهذا المفهوم هو الذي ركّز عليه المفسرون حين قالوا: "ويفسر بعضه بعضًا"، ذلك أن أول تفسير للقرآن المجيد هو عين تفسيره لذاته.

حين نأخذ كلمة "الرب" في القرآن الكريم سوف نجد أنها تنفتح على أبعاد كثيرة. فالقرآن قد نزل على العرب وهم يستعملون كلمة "الرب" إزّاء

---

[٢٤] رواه الترمذي في سننه، أبواب القراءات، رقم: ٢٩٤٨، والدارمي في سننه (٢١٨٠/٤).

هبل واللات والعُزّى، وقد عدّ العادّون حوالي ستين وثلاثمائة صنمًا حول الكعبة. وكلمة "الرب" كانت تنسحب على هذه الآلهة بشكل "أتوماتيكي"، وإذا كانت كلمة "الرب" مشتقّة من ربَّ يَرُبُّ، أي باشَر يُباشر، وأَشرف على المصالح يُشرف، واعتنى يعتني إلى غير ذلك من المعاني[٢٥]، فإننا نجد أنّ مفهوم الربوبية يَبرز في القرآن المجيد باعتباره أيضًا من الأمور التي تقوم بدور اللّحمة والسدى في مجتمع معين وإن بباطل، فرعون مثلاً حين يقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾(النازعات:٢٤)، يبرز باعتباره يمثل لُحمة المجتمع من خلال توحيده لهذه الأمة من الناس، ولكن بشكل ضال بفعل هذه الربوبية المدعاة، ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾(طه:٧٩).

وهو مثال قد أعمل فيه القرآن المجيد آلية الهيمنة في اتصال بمفهوم الربّ لتوسعته وتجاوز واقعه في الأذهان نحو ما هو عليه حقيقته، أي نحو التوحيد، فبعد ادعاء فرعون أنه رب المصريين الأعلى ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾(النازعات:٢٤)، نجده ينتقل بفعل اللقاء المستأنف مع موسى عليه السلام إلى السؤال عن رب العالمين ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾(الشعراء:٢٣)، فيجاب: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾(الشعراء:٢٤)، لكي يختم مساره الجحودي بالاعتراف -ولات حين مناص- بما قرره نبي الله موسى عن الربوبية حين قال وهو يغرق: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾(يونس:٩٠)، كل ذلك يتم في إطار من الهيمنة المتصاعدة، ليصل في أمّ القرآن سورة الفاتحة، إلى هذا المفهوم العظيم الذي هو ﴿رَبّ الْعَالَمِينَ﴾، لدرجة أنّ هذا الذي

---

[٢٥] كما فصّله المصريون القدامى عمليًا من خلال اتخاذ ربّ للحرب، وربّ للمحبة، وربّ للحياة وآخر للممات، وكأنّ هناك تخصّصات في الإشراف والرعاية.

يبرز -وإن في سياق الضلال- باعتباره توحيدًا ولُحمة وسَدى في هذه المجتمعات، نَجده لا يُفقد بل نجده يصحّح ويُنّمى إلى درجة يُصبح معها مفهوم الربوبية "ربّ العالمين" قابلاً لاستيعاب الكائنات كلها والأمم كلها، والشعوب كلّها، ويدخل في منظومة قرآنية بامتياز، هي منظومة التعارف: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(الحجرات:١٣).

ولكن قبل أن يصل القرآن المجيد بهؤلاء -وبالعالمين من خلالهم- إلى هذه الدرجة وإلى هذا المستوى نرى سيرورة تجاوز الأرباب الزائفة المرصوصة حول الكعبة بالردّ إلى رب هذه الكعبة والذي هو صاحب المنن والنعم على أم القرى وما حولها من خلال قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾(قريش:٣-٤).

ثم يكون الاستيعاب تدريجيًّا بحيث نجد التصديق والهيمنة بعد أن تمّا في هذه الاتجاهات كلها يتناميان عبر الآيات لكي يوصلانا إلى هذا المفهوم البارز الواضح المستوعب الكبير والشامل، مفهوم "ربّ العالمين" الذي يستقطب هذه الأبعاد كلّها ولكن بطريقة بنائية وتدريجية، حتى يصل بالإنسان إلى حيث يريد أن يوصله منزّل القرآن المجيد ﴿أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾(الزمر:٢٣)، ﴿أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾(الزمر:٥٥).

إن البحث في مسألة الهيمنة في القرآن يُفضي بنا إلى آفاق في غاية السعة والجمال، وقد قمنا الآن بالبحث في كلمة واحدة ومصطلح واحد: "الربّ"، ورأينا كيف أن القضية اتسعت إلى أن وصلت إلى مفهوم سام هو "ربّ العالمين"، لكي ينفسح المجال بعد ذلك إلى "الرحمن الرحيم"، انسيابًا نحو المصور، الباري، والقدوس إلى غير ذلك من الأسماء الحسنى

والتي كلها تُلقي إضاءات على مفهوم "الربّ".

وبالتتبع سوف نجد أنّ كل البنائية التي في القرآن المجيد سوف تُنسج حول هذا المفهوم بسعته ومداه الجديدين كما برزًا في أمّ القرآن ثم في سائره، لكي تُمنح الأمة قِبلتها وتُمنح وِجهاتها المتعددة التي تُفضي بها هذه القبلة بطريقة متجددة وغير متناهية.

منهجية التصديق

وجبت الإشارة هنا إلى أنّ ثمة خمسة شروط لابد من مراعاتها في أفق إعمال أوفق لمنهجية التصديق والهيمنة واستكشافٍ أدقَّ لمعالمها:

الشرط الأول الأساس: هو شرط اعتقاديّ بامتياز؛ اعتقادي بحيث يعتقد الباحث اعتقادًا جازمًا أنّ القرآن المجيد كلام الله ﷻ ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ﴾(فصلت:٤٢)، ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾(الأنعام:٣٨)، ﴿تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾(النحل:٨٩)، فتتوفر عنده ضمن هذا الشرط مجموعة من المنطلقات التي تُلزمه بالجدّية القصوى وهو يبحث في القرآن المجيد، وتُلزمه بأن يحشد كل طاقاته وكل نباهته، وأنْ يتوفّز كل توفّز قبل أن يدخل إلى عالم القرآن المجيد، فيكون توفّزه أكبر من توفّز الباحث الذي يدخل إلى مختبره، ومن توفّز الطبيب الذي يدخل إلى عملية جراحية مما من شأنه أن يجعل نتائج البحث أبرك إن شاء الله.

الشرط الثاني: إن أردنا أن نبحث في قضية الهيمنة بطريقة تأسيسية، وجب أن ننظر في القرآن المجيد باعتباره بناء، وأن لا يتم إغفال هذه البنائية أوالذهول عنها، إذ هما إغفال وذهول مُدخِلان في اللوم الموجّه إلى ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾(الحجر:٩١)؛ وإسقاط في التعضية

والتفريق والتمزيـع في القرآن المجيد وفي عدم الدخول إليه باعتباره بناءً متماسكًا، ترتيلاً

﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾(الفرقان:٣٢)، ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾(المزمل:٤)، أي اعتبر أيها المتعامل مـع القرآن المجيد هذه البنائية ولا تُهمل منه كلمةً ولا حرفًا.

وهنا أريد الإشارة إلى نموذج مفاهيمي معرفي قد تسرب إلى عقول بعض علمائنا فأصبحوا بمقتضاه ينظرون إلى القرآن باعتبار أن آياته التي تحتها عمل لا تتجاوز الخمسمائة آية على أكثر تقدير، ويسمّونها آيات الأحكام، من مجموع عدد آياته الستِّ وثلاثين ومائتين وست آلاف (٦٢٣٦)، فأين ذهبت الآيات الأخر؟ وما هي تجلياتُ ربانية مصدرها؟ وما هو الهدى الموجود فيها؟

مقابل هذا المنظور التي يستبطن ـ بدون وعي ـ الكثير من الانتقاء ومن الإقصاء المسبق، نجد أنّ كل حرف من القرآن المجيد فيه هدى وفيه رشاد وفيه نور، ولعل هذا من الحكم الكامنة وراء وجود الحروف المقطعة في فواتح بعض السور. وبالتالي فحين نؤمن ونسلّم بأنّ القرآن بناء، سوف نراجـع وننقد مناهجنا القائمة في أفق المواءمة المنهجية مـع هذه البنائية المباركة.

الشرط الثالث: وهو فرع عن الثاني، ومفاده وجوب تتبـع المصطلحات قيد الدراسة في كل مواطن ورودها، واعتبار السياقات التي يتم فيها هذا الورود قبل أي تعريف لهذه المصطلحات.

الشرط الرابع: ضبط الضمائم، فإذا تم الذهول عن حقيقة أنّ الكلمة في القرآن المجيد تكون لها ضمائم كما تكون لها نظائر تلقي عليها أضواء

إضافية، وإن لم يتم النظر في كل هذه المرافقات والمحتوشات التي تُحيط بالكلمة المصطلح فإن الباحث وإن اعتبر السياق ونظر في كل الشروط التي سلفت قد يفوّت الشيء الكثير.

الشرط الخامس: أن يكون لدى الباحث وضوح في القضايا التي يريد أن يستنطق بخصوصها القرآنَ المجيد في علاقته بالهيمنة، إذ حين اتضاح هذه القضايا فإنها تكون بمثابة التضاريس الفكرية والنفسية والوجدانية التي من شأنها أن تمكّن الدارس من التقاط ما يتعلق بالمواضيع المبحوث فيها من إشارات؛ وإلا فسوف تغلب على البحث العموميةُ والسطحية.

فالإنسان الذي قد اشتغل في التربية مثلاً ووقف على بعض إشكالاتها وأدرك الأمور التي تقتضي الحل، ووقف على حيثيات التربية، يكون أكثر استعدادًا لتلقي الإشارات والآيات الموجودة في القرآن المجيد بخصوص هذه المسألة. أما إذا دخل خالي الذهن فإنّه سوف يتخطّف ويُجتال بقضايا كثيرة ومتعددة، ولن يكون الاستنطاق للقرآن المجيد بخصوص الهيمنة في مضمار التربية كما هو مرجو؛ بمعنى أنّ بناء هذه التضاريس التي سوف تلتقط الآيات المتعلقة بالقضية المدروسة لابد منه بين يدي الدخول إلى عالم القرآن الرحيب لبحثها.

الشرط السادس: وهو مسألة النماذج المعرفية، أو الأنساق القياسية، أو الأطر المرجعية التي ينطلق منها الباحث؛ فإن كانت مُغلَقة فاته الكثير، بخلاف الأمر إن دخل وهو مُطَّرِحٌ بين يدي كتاب الله ﷻ، مستعد لأن يتجاوز ما في ذهنه من الأطر المرجعية والأنساق القياسية والنماذج المعرفية وأبنية أخرى جديدة بحيث ـ وهو يبحث ـ تكون هناك هيمنة ذاتية.. مع ضرورة استدامة الانفتاح والحفاظ على الوعي التّام بأنّه إنسان

محدود وبأن هذه المحدودية تقتضي التكملة.

الشرط السابع: الذي لابد منه أثناء بحث قضية الهيمنة في القرآن المجيد، هو أن تكون مستحضرًا في كل لحظة كونكَ إنسانًا تنتمي إلى الأسرة الآدمية الممتدة عبر الزمان والمكان وأنك تشكل معها وحدة وتعيش معها تحديات مشتركة لابد من العمل المتظافر لرفعها، مما يجعل منك كائنًا كونيًّا يتبنّى هموم العالمين في كافة امتداداتهم، وهذا تنتج عنه حالة من المشاركة الوجدانية تساعد على تَلقِّي إشارات القرآن الكريم بخصوص الهيمنة، إشارات لا سبيل إلى تلقيها في غياب هذا الشرط النفسي والوجداني.

وهذا الشرط يعدّ -في اعتباري- بمثابة الإطار العام المحدّد للوجهات التي سوف ينطلق فيها الباحث حين يكون منفتحًا على هموم العالمين، ويكون عنده كل الافتقار وكل الإدراك اللذين مضت إليهما الإشارة.

فإذا تدبرت -على سبيل المثال- مفهوم الطلاق وكيف تمّ التصديق والهيمنة بخصوصه في القرآن على ما سلف، ثم نظرت في سياقات دينية وحضارية حُظر فيها الطلاق سوف تتجلى أمامك الهيمنة على هذه المفاهيم المستقرة، وسوف تكتشف كيف أنّ القرآن المجيد قد قوّى هذا الرباط المبارك المتصل بصناعة الحياة؛ رباط التزويج، بفتحه لإمكان مفارقة الرفيق متى ما أصبحت الحياة المشتركة متعذرة لسبب أو لآخر، درءًا لدواعي اللجوء إلى ما لا يحل، وهو لجوء عادة ما تفضي إليه التدينات التي لا تتيح هذه المكنة باليسر وكذا الاحتراز الموجودين في شرعة الإسلام، وهذا مما يؤهل الباحث لأن يكون أقرب نفعًا للعالمين من خلال إفاضة وتعدية هدى كتاب الناس إلى الناس.

منطق الظاهر الحضاري

مسألة أخرى بهذا الخصوص تتجلى إن نحن انتقلنا بالبحث إلى الجوانب الفكرية وإلى الأفكار السائدة التي هي بمثابة البراديغمات المسيطرة المنتجة لما يسمى بـ"النسق المفاهيمي المؤطر" لحضارة معينة، سوف نتبيّن من مدخل استحضار هذا الإدراك أن المنطق العام المهيمن على الحضارة الراهنة منطق يدور في فلك ما أسماه الله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ في قوله سبحانه: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾(الروم:٧)؛ أي إنّ النسق المفاهيمي التصوري في هذه الحضارة منحسر ومنحبس في هذا الإطار الذي هو ظاهر الحياة الدنيا أي الحجب الثلاثة حجاب الدنيا والمادة، وحجاب النفس، ثم حجاب الخلق.

فإذا تم الدخول إلى القرآن المجيد في استحضار لهذا الإشكال الكبير الموجود في هذه الحضارة (الانحسار في ظاهر من الحياة الدنيا)، سوف تبرز مجموعة من المعطيات الجديدة المهيمنة والمخلِّصة، كالميزان والمعاد والجزاء القائم على الحساب، والسعي إلى الرضوان، والتجانف عن الغضب والإبعاد، والتنعم بالنعيم، والفرار من الجحيم، مما يعتبر هيمنة محررة من سجن هذا الاعتقاد المحجّم لأبعاد الحياة وأبعاد الإنسان.

وإذا انضاف إلى هذا استحضارُ الانتماء إلى الأسرة الآدمية الممتدة في انتشارها الزماني والمكاني، والاعتقاد بوجوب تبنّي همومها لما يقارفه من الأجر والرضوان، سوف يستطيع الباحث أن يرى أوجه الهيمنة في القرآن الكريم على هذا الضرب المنحسر من التفكير، ومن ثم سوف يتمكن من تجاوزه في ذاته ثم في الآخرين من خلال إبرازه لهم، وكما قال ابن

خلدون: "في حلَّة قوية البنيان ومتينة الأركان" بحيث تتقبّله العقول ويكون رحمة للعالمين.

فهذه سبعة شروط متصلة بقضية التصديق والهيمنة وآليات عملهما في القرآن الكريم أردتُ الإسهام بها من أجل استئناف فتح ملف هذه القضية التي أعتقد أنها لم تُعط حقّها كما يلزم ضمن الأبحاث المنتمية إلى دائرة معارف الوحي.

المبحث الرابع:

الجمع بين قراءتين

تجليا من تجليات التكامل المعرفي في القرآن المجيد

إن القراءة في الكون المسخَّر هي التي أعطتنا علوم التسخير، أي إن حوار الإنسان مع الكون من خلال هذه المواءمة التي له معه من خلال إقدار الله إياه على الدخول إلى مساربه بالأسماء، وتفكيك مجملاته هذا الحوار، هو الذي أعطى علوم التسخير التي تجعلنا قادرين على الحركة وعلى الفعل؛ إذ الكون هو مرجع الحركة ومرجع الفاعلية.

الجمع بين قراءتين
تجليا من تجليات التكامل المعرفي في القرآن المجيد[٢٦]

إن الجمع بين القراءتين تجلٍّ من تجليات التكامل المعرفي في القرآن المجيد، فلا يخفى على قارئ ولا قارئة لكتاب الله ﷻ، أن أول ما أشرق من أنوار هذا الوحي الخاتم على دنيا الإنسان هو قوله سبحانه: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(العلق:١-٥).

نرى إذن، ومنذ هذا الإشراق الأول أن ثمة أمرًا بقراءتين:

الأولى: قراءة في الخلق ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾، ولا شك أن هذه القراءة في الخلق لها أبجدها ولها آلياتها ولها خطواتها ولها مؤشرات تقويمها.

والقراءة الثانية التي تبرز: هي القراءة في الكتاب المسطور ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

إن فعل القراءة في عالم الإنسان وفي دنياه أصبح -بحمد الله- ممكنًا بإقدار الله ﷻ لهذا الإنسان على هذه القراءة؛ وتجلّي هذا الإقدار في الجانب المنظور كان من خلال الأسماء وتعليمها ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ

[٢٦] مجلة حراء، العدد: ٢٣ (مارس – أبريل ٢٠١١)

كُلَّهَا﴾(البقرة:٣١). ورضي الله عن سيدنا عبد الله بن عباس حين قال: "علَّمه حتى القصعة والقُصيعة"، والعلماء -وعلى رأسهم بهذا الصدد أبو الفتح ابن جني- على أنَّ المقصود بـ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ هو إقداره على تسمية الأشياء، وهذا الإقدار هو الذي يمكّن الإنسان من تفصيل وتفكيك المجملات؛ بحيث يستطيع أن يأتي إلى مجمل ويفكِّكه، وكلُّ جزء ينتج عنده وينجم من هذا التفكيك يكون قادرًا على إعطائه اسمًا، فيضبطه في مكانه من خلال هذا الاسم، وهكذا يستمرّ في التفكيك، ويكون بعد ذلك من خلال هذه الصور والمعالم الأسمائية قادرًا على التركيب، أي إنها قراءة في اتجاهين: تفكيكًا وتركيبًا، قراءة قد أصبحت ممكنةً بسبب هذه القدرة على التسمية.

أما في الجانب الذي هو جانب الكتاب المسطور، فنجد الكلمات، وذلك في قول الله ﷻ: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾(البقرة:٣٧). هناك إذن، الأسماء في الكتاب المنظور، وهناك الكلمات في الكتاب المسطور، وهناك -كذلك- المواءمة بين الإنسان وبين الكتابين، وهي مواءمة كانت ممكنة بسبب الدمغة الأولى والفطرة الأولى: ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(الروم:٣٠).

المواءمة البنائية

وتقوم هذه المواءمة الممكّنة من القراءتين في الجانب المنظور "الكوني"، وفي الجانب المسطور "جانب الوحي" على مجموعة من الأسس أبرزها البنائية. ففي الجانب المنظور "الجانب الكوني"، نجد أن

هذا الكون بناء عضوي ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾(الذاريات:٤٧)، ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۝ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا﴾(النازعات:٢٧-٢٨)، وهذا البناء له مقصديَّة هي التسخير ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾(لقمان:٢٠)، وفي مواطن من كتاب الله يبرز أن هذا الكون وحيُه هو أن يتسخّر لك أيها الإنسان، ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾(فصلت:١٢).

وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾(الزلزلة:٤-٥)، وحيًا جديدًا، فحين يقول الإنسان: ما لها؟ ما لها لا تتسخر؟ يكون الجواب: إن ذاك الوحي القديم الذي هو وحي بالتسخر، قد نُسخ كما قال الإمام القرطبي في جامعه: "بوحي جديد هو وحي بعدم التسخر؛ لأن زمن الحساب قد أزف"، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ ۝ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾(الانشقاق:٣-٤-٥).

فهذا الكون إذن مسخَّر، ويمكّن من هذا التسخير، كون الإنسان قادرًا على تفهّمه من خلال المقوّمات التي زوَّده الله ﷻ بها، وفي مقدّمتها المواءمة ثم قدرة معرفة الأسماء.

أما في الجانب المسطور "الوحي"، فنجد أنه هو أيضًا بناء؛ فالله ﷻ يتحدث عن القرآن المجيد فيقول: ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾(الفرقان:٣٢)؛ والشيء الرَّتل هو الحسن البناء والنَّضد، وهو بناء له مستويات:

أولها: المستوى الصوتي القائم على نضد الحروف، ونضد الكلمات، ونضد الأصوات؛ أي بنائها.

ثانيها: المستوى المفاهيمي.

ثالثها: المستوى النسقي.

رابعها: المستوى التنزيلي.

خامسها: المستوى التقويمي.

والقرآن المجيد من خلال هذا البناء، كأنه جملة واحدة كما نصّ عليه أبو بكر ابن العربي -رحمه الله- حين قال: "ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى يكون كالكلمة الواحدة، متسقة المعاني، منتظمة المباني، علم عظيم لم يتعرّض له إلا عالم واحد... ثم فتح الله ﷻ لنا فيه، فلما لم نجد له حمَلَة، ورأينا الخلق بأوصافِ البطَلَة، ختمنا عليه، وجعلناه بيننا وبين الله، ورَدَدناه إليه"[٢٧]. وللإمام الشاطبي كلام أيضًا بهذا المعنى؛ أي أنّ القرآن كالخبر الواحد وكالجملة الواحدة، وابن حزم الأندلسي أيضًا له في إحكامه كلام يفيد هذا المعنى، والبرهان البقاعي والبدر الزركشي وغير هؤلاء، كلهم تكلّموا عن كون القرآن المجيد بناء عضويًّا، وأنه لا يفهم إلا بردّ بعضه على بعض.

وهذه البنائية هي التي مكّنت الإنسان من أن يقوم بالقراءة من خلال تلقي الكلمات، وهذا أبرز تجليات المواءمة بينه وبين كتاب الختم، وقد ذمّ الله ﷻ الذين جعلوا القرآن عِضِين؛ أي الذين يفرّقونه ويعضّونه، وذلك في قوله تعالى: ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ۞ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾(الحجر:٩٠-٩١).

وإذا كانت القراءة في الجانب الكوني تتم بالتفكّر ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾(آل عمران:١٩١). فإنها في الجانب المسطور "الوحي" تتم بالتدبر ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾(محمد:٢٤).

---

[٢٧] نظم الدرر (٦/١-٧).

التسخير والتيسير

إن الجمع بين القراءتين تجلٍّ من تجليات التكامل المعرفي في القرآن المجيد، فلا يخفى على قارئ ولا قارئة لكتاب الله ﷻ، أن أول ما أشرق من أنوار هذا الوحي الخاتم على دنيا الإنسان هو قوله سبحانه: ﴿اقْرَأْ﴾.

وتتجلى جمالية التعبير القرآني أيضًا من خلال التقابل بين "سخّر ويسّر"، فهناك التيسير ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ في أربعة مواضع من سورة القمر، وفي سورة مريم ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ إلى غير ذلك من مواضع ورود التيسير في القرآن الكريم. وهناك التسخير الوارد في مثل قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾(الأعراف:٥٤)، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾(النحل:١٢)، ﴿اللهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾(الجاثية:١٢)، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾(الجاثية:١٣)، ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾(الأعراف:٥٤).

إن القراءة في الكون المسخَّر هي التي أعطتنا علوم التسخير، أي إن حوار الإنسان مع الكون، من خلال هذه المواءمة التي له معه من خلال إقدار الله إياه على الدخول إلى مساربه بالأسماء، وتفكيك مجملاته هذا الحوار، هو الذي أعطى علوم التسخير التي تجعلنا قادرين على الحركة وعلى الفعل؛ إذ الكون هو مرجع الحركة ومرجع الفاعلية.

في الجانب الآخر نجد أن القراءة في الوحي الميسَّر هي التي أعطتنا علوم التيسير، فالحوار مع الوحي هو الذي مكّننا من القدرة على تبيّن الوجهة والقبلة المقصودة بالفعل والحركة، وحوار الإنسان المستدام مع الوحي من خلال بنائيته، ومن خلال المواءمة التي له معه، وكذا من خلال

القدرة على التفهّم بسبب الكلمات التي أوتيها وتلقّاها عبر الرسل الكرام -عليهم جميعًا أزكى السلام- هو ما مكّن من تنمية علوم التيسير. قال عليٌّ كرم الله وجهه: "ذلكم القرآن فاستنطقوه"، وفي رواية عن عبد الله بن مسعود ﷺ: "ثوّروا القرآن"؛ أي حرِّكوه لكي يخرج مكامنه.

فالقرآن المجيد في موازاة مع الكون الذي هو مرجع للحركة والقدرة والفاعلية، يصبح مرجعًا للقيم، ومرجعًا للوجهة ولحضور القبلة التي سوف ترشّد هذه الحركة.

وجليّ أن القدرة على الحركة بدون قيم وبدون وجهة وبدون قبلة، قد تجعل من هذه الحركة فاتكة بالإنسان وبالأرض -الكوكب الذي يعيش عليه الإنسان- وبمحيط الإنسان. وهو ما حذّر منه رب العزة في سورة الأعراف في سبع آيات مفصلاتٍ فيها بيان، أن العلاقة الوطيدة بين القراءتين هي سبب الحياة والنماء، كما فيها أن الانفصال بينهما سبب الفساد والهلاك، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۞ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۞ إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۞ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۞ وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ۞ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً

سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۞ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾(الأعراف:٥٢-٥٨).

إن العناية بإزاء القراءة في الكون مرجع الحركة والفعل، بالقراءة في الوحي لاستبانة القبلة، ولاستمداد الوجهة منه في محافظة دائمةٍ على الوصل، والجمع بين هاتين القراءتين هو ما يجعل الحركة والفاعلية راشدتين بانيتين ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾(البقرة:٢٥٦).

الاهتداء بالعلامات

إن الإنسان وهو يتحرَّك في خضمّ ما سلف تؤطِّره أمور:

أولها: الرؤية الموجودة في القرآن المجيد والتي تبيّن دوره ووظيفته، كما تبيّن المحاور التي ينبغي أن يتوافر على الوعي بها لكي يكون فاعلاً.

ثانيها: الثمرة التي هي حاجته إلى العمل. فهذه الرؤية تكون بمثابة القطب الجاذب الذي يجعل القراءة في الكون، قراءة ناجعةً نافعةً لكن دون انفصال -وكما سلف- عن علم القبلة والوجهة، مما يجعل العمل عملاً يُتوَخَّى به إرضاء الله ﷻ؛ إذ هو ﷻ الذي أقدر عليه ومكّن منه ابتداء، ونحن نرى في القرآن المجيد كيف أن الإنسان اختُزِل في عمله، فحين نادى نوح عليه السلام ربه قائلاً: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾(هود:٤٥)، أجابه رب العزة بقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾(هود:٤٦)، فاختزل الإنسان في هذه الآية في عمله. وهذا العمل لن يكون ناجعًا إلا إذا كان -كما رأينا- مؤطَّرًا بالرؤية، وحيث قد قيل بحقٍّ إن فقه البخاري يتجلى في تراجمه، فقد أحسن -رحمه الله- حين قال: "باب العلم قبل القول والعمل".

إن التحديات التي يواجهها الإنسان القارئ أثناء فعل القراءة كثيرة، غير أن أهمها ثلاثة:

أولاً، تحدّي التمكّن من الوقوف على وظيفته وعلى دوره "الخلافة، الأمانة، العبادة" وأن يكون ذا وعي بالقيم الحاكمة الكبرى والتي يمكن إجمالها في ثلاث:

١- التوحيد.

٢- التزكية.

٣- العمران.

وهي قيم حاكمة تتفرّع عن كل واحدةٍ منها مجموعة قيم ليس هذا مقام التفصيل فيها. فالوعي بالوظيفة والدَّور إذن، تحدٍّ أساسيّ يواجه الإنسان أثناء القراءة.

غير أن هذا التحدّي يسلّمنا إلى تحدٍّ ثان يسمّيه القرآن المجيد "الإبصار" في قوله تعالى: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾(الصافآت:١٧٥)، وفي قوله سبحانه: ﴿وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾(الصافآت:١٧٩)؛ أي أَعِنْهم على هذا الإبصار فسوف يبصرون، والمقصود أساسًا بالإبصار، هو إبصار العلامات والآيات، أي البصائر ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾(الأنعام:١٠٤).

ففي الجانب الكوني، نجد أن الكون فيه آيات؛ فالليل آية، والنهار آية، والشمس آية، والقمر آية ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾(فصلت:٣٧)، وهذه الآيات وجب أن يوقف عليها ووجب أن تُتبين معالمها وألا يغفل عنها: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾(يوسف:١٠٥). وفي الوحي "الكتاب المسطور"

نجد كذلك عبارة آيات، وهذه الآيات علامات، لأن الآية لغةً هي "العلامة" ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلاَئِكَةُ﴾(البقرة:٢٤٨)، أي علامة ملكه.

فإبصار الآيات، والاهتداء بالعلامات، هو الذي يجعل الإنسان بعد التمثل للوظيفة وللدّور، قادرًا على السير برشادة ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(الملك:٢٢).

التحدّي الثالث -وهو الثمرة- أن يكون الإنسان عاملاً بمقتضى كلّ ما مضى، مع استحضار أنّ العمل يجزى عليه، ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى ۞ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ۞ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى﴾(النجم:٣٩-٤١). وتحضرنا هنا حقيقة مؤقتية الإنسان، وكون المعاد نهاية حياة وبداية أخرى، نهاية حياة فيها عمل ولا حساب، وبداية أخرى فيها حساب وجزاء ولا عمل، وهو ما جاء في قوله تعالى ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾(البقرة:٢٨١) كما يبرز مقوّم الإتقان باعتباره مقومًا أساسًا يجعل الإنسان من خلال إيمانه بالمعاد يروم أن يكسب الأجر الأوفى والأوفر مع رب العالمين ﴿إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾(الكهف:٣٠).

مقوم آخر لابد منه لمسّ القرآن الكريم، هو مقوم المنهاجية، ومن مقوّمات العمل -كذلك- في هذه المنظومة الكلية بالإضافة إلى الإتقان، جانب النفع الذي أعطي في هذه المنظومة أهمية خاصةً ولّدت علوم المقاصد والمآلات مما هو مفصّل وبدقة في أبوابه.

وجبت الإشارة مرة أخرى إلى أنّ ثمة حاجة ملحة للضم بين القدرة على الحركة والفعل من جهة، والقدرة على استبانة الوجهة والقبلة من

جهة ثانية، حتى يرشد الإنسان ولا يتيه. ونجد هذا الضم في مواطن كثيرة من القرآن الكريم، بالإضافة إلى الموطن الأول الذي به افتتحنا حديثنا هذا، أي أول آية في سورة العلق، بالإضافة إلى آياتِ سورة الأعراف. ومن هذه المواطن، سورة الواقعة، حيث نجد آية من أبلغ وأجلى ما يمكن أن تكون عليه الدلالة بهذا الصدد، وهي قوله تعالى: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۞ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۞ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۞ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ۞ لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾(الواقعة:٧٥-٧٩)؛ حيث نجد البنائية الكونية التي تبرز من خلال مواقع النجوم، ونجد البنائية القرآنية التي لا يمكن أن يوقف عليها إلا بمقوّم يبرز ها هنا بجلاء، وهو مقوِّم الطهارة الذي يجعل الإنسان العالم قادرًا على دخول كنّ القرآن المجيد واستخلاص هدايته.

مقوّم المنهاجية

مقوم آخر لابد منه لمسّ القرآن الكريم هو مقوم المنهاجية، ويشترط فيها:

١- أن تكون هادفةً دائمًا لتحقيق السعادتين في العاجل وفي الآجل.

٢- أن تكون تجريبية تأثيلية، وتكاملية عبر الزمن.

٣- أن تكون منفتحة قابلة للنماء، أي لا تكون عبارة عن أنساق مغلقة.

٤- أن تؤدي إلى التسبيح، أي الوقوف على عظمة الخالق من خلال خلقه، لكن قبل ذلك وأثناءه وبعده، من خلال كلامه الأزلي الخالد.

٥- الفاعلية والنجاعة والإحكام.

وإذ إن حديثنا حديث عن التكامل المعرفي الناجم عن الضمّ والجمع

بين القراءتين، فإنه تجدر الإشارة إلى أنه لتحقيق القراءة التكاملية، لابد من عدم إهمال الجانب المؤسَّساتي وهو جانب بدوره له مجموعة من المقوِّمات يمكن إجمالها فيما يأتي:

١- توضيح مقاصد المؤسَّسات قبل أن يبدأ العمل فيها، وقبل أن ترصد لها إمكاناتها ومواردها، وكذا قبل أن تخطّط برامجها، حيث يجب أن تكون المقاصد بيّنة وواضحة بين يدي ذلك كله.

٢- المضمون المستجيب للمقاصد، وتتمحور حول كل هذا، مجموعة من المعارف والعلوم، والقدرات التي وجب أن تكتسب من أجل بلورة المضامين الأنسب.

٣- البشر المكوِّن والمكوَّن قصد الاضطلاع بما سبق.

٤- دراسات الجدوى في كل حين بطريقةٍ جزئية ثم بطريقة كلية.

٥- الهياكل القانونية والإدارية الممكنة مما سبق والميسّرة له.

٦- استيفاء الجوانب المادية.

٧- التقويم حتى يقبل الجيّد ويدرأ غيره.

وبدون التكامل بين هذه المقوِّمات؛ مقوِّمات القراءة والمناهج والمؤسسات، فإن فعل القراءة غير التكاملية، قد ولّد مجموعة من الاختلالات التي نعاني منها بجلاءٍ في واقعنا المعاصر.

ولكي يكون فعل القراءة التكاملية بين الكتابين المنظور والمسطور، وبين العلوم المنبثقة عن الحوار معهما، ونقصد بذلك علوم التيسير وعلوم التسخير أمرًا ممكنًا، لابد أن يضطلع الإنسان بكل ما سلف من مقوّمات، حتى يكون الجمع بين القراءتين قادحًا لزَند التكامل والتنامي والإغناء لكلٍّ منهما، ضامًّا بين القدرة على الحركة والقدرة على استحضار

القبلة واستبانة الوجهة واستخلاص القيم، وعابرًا بين الكتابين والعلوم المستخلصة منهما، بالخبرات المستكنهة من كل منهما، إلى كل منهما.

هذه جملة أفكار مركّزة، حاولت من خلالها ملامسة الأسس النظرية، والشروط التطبيقية، لبلوغ غاية التكامل المعرفي التي جاء كتاب الختم "القرآن" ليمكّننا منها، عبر تجلية بعض سبل ذلك بآياته وبصائره، وبحسبنا أن تكون هذه الإشارات عبارة عن صور أولية ترسم معالم هذا الدرب القرآني المبارك المديد.

المبحث الخامس:
الوجهة

الحركة والوجهة -وإن تكاملتا- فإن تكاملهما إلى غير قبلة معروفة مأمونة العواقب، سوف يجعل منه تكاملاً عابثًا سرعان ما يغيض، إذ الحركة تفقد معناها بفقدانها القبلة، كما أن العلم بالقبلة دون حركة موجهة نحوها لا يجدي.

الوجهة[٢٨]

على قدر إتقان التساؤل وإتقان استخلاص الإجابات عنه تكون فاعلية الإنسان في الكون المحيط به، وهو تساؤل ينبغي أن يكون ـ كما إجاباته ـ باللغة التي يفهمها الكون. فالأبجد الذي به يتم البيان والتبيّن بين أفراد الإنسان، لا يغني في البيان والتبين مع، ومن الكون.

إن علوم التسخير جميعها لم تعْدُ كونها باحثة عن هذا الأبجد الذي به يؤمر الكون المسخر فيستجيب وفق السنن التي أودعها الله فيه، وهي سنن تجعله رافضًا كليةً للعبث، إذ لا يفهمه.

وواضح من خلال النظر العام في تاريخ الإنسان، أن التساؤل يتشعب على احتمالات لا انتهاء لها: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾(الليل:٤)، احتمالات يكون المحدد لها هو رغبات الإنسان وميوله وطموحاته وآماله. إن هذه الدوافع الكامنة هي التي تستدعي تساؤلات تتسق معها.

إن تساؤل الإنسان إذن -في هذا الكون ومعه- هو حركته، وهي حركة تُشكِّل الدوافعُ والنزاعات الكامنةُ المولّدَ لوجهتها.

يمكن إذن، تشبيه حركة الإنسان في الكون بحوار -إذ كلما حصل على جواب من الكون حوّله إلى سؤال آخر أكبر، كدحًا إلى الملاقاة- فإن

---

[٢٨] مجلة حراء، العدد: ٢٥ (يوليو - أغسطس ٢٠١١).

كان الحوار مثمرًا -والإثمار مسؤولية يتحملها الإنسان لأنه هو المسخِّر والكون هو المسخَّر- أصبحت حياة الإنسان في الكون ممكنة، وإلا فإنها تنعدم. وتاريخ الإنسان يحفل بحالات عسر الحياة أو انتهائها التي نجمت عن عجز الإنسان عن إجراء الحوار المثمر مع الكون، فالأرض قد قدر رب العزة فيها أقواتها: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾(فصلت:١٠)، غير أن ثمة -أيضًا- تجارب مُرة تبين أن الحياة تستمر، ولكن بتردٍّ مستمر عبر دركات ومهاوي الذلة والحيرة والتبعية، وما ذاك إلا بسبب تداعي الرغبات غير المنتظمة في نسق مشروع بيِّن العواقب يجعلها (أي الرغبات) تولد طاقة دافعة لتحقيقه.

الوجهة في المجال الإنساني

إن المشروع في الاجتماع البشري أشبه بالنواة في الذرة التي تنتظم حركة الكهارب فتجعلها حركة غائية هادفة، فحين تزول النواة ينفرط نظام الذرة وتستحيل الكهارب إلى جسيمات تتحرك، ولكن حركة دون وجهة سرعان ما تنهيها. لكن بعد الوعي بأهمية المشروع تنشأ ضرورةُ أن يكون المشروع صادرًا عن فهم للإنسان فلا يضخم جانبًا فيه على حساب جوانب أخرى، إذ المشاريع التي تنشأ عن عدم فهم كافٍ للإنسان تتشكل حولها عصبية دافعة، ولكن نحو بوار، فهي وإن بدت في مبدئها قوية فاعلة مثمرة، فإنها ما تلبث أن تنهك ببذور الفناء التي تحملها في أطوائها.

وهذا ما تفطَّن له ابن خلدون -رحمه الله- في مقدمته في سياق بحثه اللوذعي للعصبية إذ قال: "الإنسان خلالُ الخير فيه هي التي تناسب السياسة والمُلك، إذ الخير هو المناسب للسياسة، وقد ذكرنا أن المجد

له أصل يبنى عليه وتتحقق به حقيقته، وهو العصبية والعشيرة، وفرع يُتمم وجوده ويكمله وهو الخلال. وإذا كان المُلك غاية للعصبية فهو غاية لفروعها ومتمماتها وهي الخلال، لأن وجوده دون متمماته كوجودِ شخص مقطوع الأعضاء. وإذا تأذن الله بانقراض الملك من أمة حملهم على ارتكاب المذمومات وانتحال الرذائل وسلوك طرقها، فتفقد الفضائل السياسية منهم جملة، ولا تزال في انتقاص إلى أن يخرج الملك من أيديهم ويتبدل به سواهم: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾(الإسراء:١٦)، واستقرئ ذلك وتتبعْه في الأمم السابقة تجدْ كثيرًا مما قلناه ورسمناه، والله يخلق ما يشاء.

إن الوجهة في المجال الإنساني، منفصلة عن الحركة انفصالاً ليس بانفصالِ استقلالٍ، وإنما هو انفصال تحد جعل كل منهما يتكامل مع الآخر.

لننظر -مثلاً- إلى سائق سيارة يضمن حركتها محركها وهي حركة سريعة فاعلة، لكن إذا اقترنت بها وجهة غير مستبصرة قد تجعل منها حركة قاتلة رغم فاعليتها. ولكن الأمر لا يتوقف عند هذا الحد في المجال الإنساني، فالحركة والوجهة -وإن تكاملتا- فإن تكاملهما إلى غير قبلة معروفة مأمونة العواقب سوف يجعل منه تكاملاً عابثًا سرعان ما يغيض، إذ الحركة تفقد معناها بفقدانها القبلة، كما أن العلم بالقبلة دون حركة موجهة نحوها لا يجدي ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾(الأنعام:١٥٨).

إن تنوع وتعدد أسباب العيش وأماكنه والحوائل دونه، وكذا تعدد طموحات الإنسان وآماله التي يريد أن يبلُغها، وتعدد وتنوع آلامه التي

يريد الفرار منها، يفرض عليه تقلبًا دائمًا في المواقع، وهي مواقع ليس يسهل عليه منها جعل حركته معانقة لقبلته، فيصبح التوجه ضرورة في حياة الإنسان لكونه شرط هذه المعانقة.

تحديد الوجهة السليمة باستتباع حركة السجود

فللسلامة والفوز لابد من المعرفة بالقبلة التي ينبغي أن يسجد نحوها ويقترب منها: ﴿كَلَّا لاَ تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾(العلق:١٩)، ولابد من إبصار العلامات/البصائر التي تُحدد الوجهة السليمة نحو القبلة انطلاقًا منه: ﴿وَعَلاَمَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾(النحل:١٦)، ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾(الأنعام:١٠٤)، كما أنه لابد من الحركة وفعل السجود، إذ لا معنى لمعرفة القبلة وتحديد الوجهة إن لم يكن هذا يَستتبع حركةً وسجودًا نحوها.

فإذا نحن نقلنا النظر من الإنسان فردًا إلى الإنسان جماعة حيث يكون السعي شتى: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى ۞ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾(الليل:٣-٤)، وحيث بالتبع تتعدد المواقع بتعدد الناس، وما يستبطنه كل واحد منهم من دوافع، فإن التحدي يصبح أكبر، ومفاده هو: كيف يحصل الانتظام نحو القبلة الواحدة عبر هندسة لمختلف الوجهات تجعل حركة متوجهيها متكاملة متضافرة غير متضاربة ولا متنافية؟ بعبارة أخرى؛ كيف تصبح هذه الجماعة المقبلة في ظل الوحي المُعلِم بالقبلة، قادرة على إبصار الآيات والبصائر المحكَمة المفصَّلة المصرَّفة التي تعين على تحديد الوجهات المتكاملة، لكل من موقعه، فتصير الجماعة أمة تؤم قبلة واحدة.

إنه لا مناص -لكي توجَد الأمة- من إمام يهدي إلى القبلة بسيره الراشد،

كما يهدي إلى منهج تبيّن الوجهة نحوها، بتلاوة الآيات والبصائر، وبتزكية أفراد الأمة كيما يشكلوا باجتماعهم جماعة مقبلة على ربها، كما يهدي بتعليم الحكمة الممكّنة من تأويل الآيات والبصائر والعمل بمقتضاها.

يقول تعالـى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ۞ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ۞ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۞ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ۞ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعًا إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۞ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۞ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ۞ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾(البقرة:١٤٤-١٥٢).

إن خلق الكائنات -ما خلا الإنسان- مُعَرَّفة الحركة والوجهة، أي دوام سجودها وحتميته -كما تقدم- يجعل من الحركة والوجهة في المجال الكوني شيئًا واحدًا. إذ الكائنات -ما خلا الإنسان- تتمكن من

الحركة نحو قبلتها ابتداء، إذ هي كما أعطيت الخلق أعطيت الهداية: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾(فصلت:١١)، ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾(طه:٥٠)، ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ۞ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۞ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾(الأعلى:١-٣).

فالحركة والوحي في المجال الكوني -بناء على هذا- مندمجان بخلاف حالهما في المجال الإنساني حيث هما منفصلان. فالإنسان لا يتمكن من السجود إلا بقدر تخلصه من مختلف السجون المحتوشة[٢٩] له، واضطلاعه بالأمانة التي حملها دون الكائنات كلها: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾(الأحزاب:٧٢).

فالذي يمكن من الفعالية في الحركة هو فقه علوم الكون، والذي يمكن من الرشد في الوجهة هو فقه علوم الوحي. وفي الآن ذاته، فلا الكون ولا الوحي يجعلان السجود حتميًا في المجال الإنساني بل يجعلانه ممكنًا، وعلى الإنسان اتخاذ القرار بتحقيق ذلك في حياته فردًا وأمة... فالعطاء غير مجذوذ ولا محظور، وفرصة الإنسان حياته؛ فإما اهتداء وإما ضلالاً.

فقدر الكون أن يكون ساجدًا لله بشكل دائم، آخذًا لموقعه منذ لحظة خلقه. بينما قدر الإنسان أن يكدح ويكابد لتبوء موقعه ويقوم بتعريف نفسه، قدره أن يعمل لتحقيق السجود ويقتحم كل العقبات المانعة له من ذلك.

---

[٢٩] يتخلص من سجن نفسه (أهوائه، غرائزه، نزعاته..) بالمجاهدة والتزكية، ومن سجن محيطه بالتوكل، ومن سجن العقائد والمفاهيم الباطلة بالإخلاص، من سجن الأشياء بالتوق إلى الآخرة المنتج للزهد، ومن سجن الطاغوت بالجهاد الكبير بالقرآن وما يوجه القرآن إلى الجهاد به.

الغرب واستتباب الوجهة المادية

إن الحتمية التي أدخلها الغرب إلى مجال العلوم الإنسانية، تعتبر من أعظم الإصابات التي أصابت الإنسان المعاصر في قدرته على التعامل مع ذاته فردًا وجماعة. وقد نتج ذلك عن عدم التفريق بين الإنسان والكون تحت أزّ النزعات المادية التي ذرّت بقرنها منذ أواخر القرن الرابع عشر ردّ فعل على الرهبنة -الناجمة عن المسيحية في أدوارها المتأخرة- والتي أزّمت المجتمعات الغربية والعالم معها. فكان من نتائج ذلك المباشرة استتباب الوجهة المادية، من جهة عن طريق التأصيل الفلسفي والنظري لها، والذي بلغ أوجه مع "هيجل" و"نيتشه" الذي أعلن موت الإله، غير أنه في حقيقة الأمر أعلن موت الإنسان.

ومن جهة ثانية عن طريق الكسب العيني المشخص، والذي بمقتضاه تم إنهاك البعد الروحي للإنسان في مقابل تقوية البعد المادي منه تحت وطأة الانبهار بما حققته العلوم الطبيعية في تعاملها مع الكون، إلى درجة مكننة التصور للإنسان فردًا وجماعة مماهاة له مع الكون.

يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري في بحثه القيم "نموذج تفسيري وتصنيفي جديد": "وفي إطار المرجعية المادية الكامنة، فإن الإنسان كائن طبيعي وليس مقولة مستقلة داخل النظام الطبيعي، وإنما هو مستوعَب تمامًا فيه، ويسقط تمامًا في قبضة السيرورة، فتسقط المرجعية الإنسانية وتصبح الطبيعة/المادة هي المرجعية الوحيدة النهائية، وتُصَفّى ثنائية الإنسان والطبيعة ويمكن حينئذ تفسير الإنسان كما تُفسّر الأشياء.

وثمة قانون واحد يسري على كل الظواهر، وثمة مبدأ مادي واحد تُرَدّ له الظواهر، ومن ثَمَّ يمكن تسوية الإنسان بالكائنات الأخرى، ويمكن

تفكيكه في إطار الواحدية الكونية المادية، فيرد الإنسان إلى ما هو دونه، ويصبح شيئًا بين الأشياء، ذرة مثل كل الذرات...

وبهذا المعنى، فإن المرجعية الكونية المادية تشكل هجومًا على الإنسان ككيان حر مستقل، عن الطبيعة/المادة وعلى مركزيته في الكون، بل وعلى مفهوم الطبيعة البشرية ذاتها كمقولة مستقلة عن الطبيعة المادية"[٣٠].

الإنسان ثنائي البُعد والأحادية تنهيه

والحاصل أن الإنسان ثنائي البعد، فالأحادية تنهيه ولا تستتب النظم المتولدة عنها إلا "بموته"، فالفلسفة المادية كالأخرى الروحانية عاجزتان عن فهم الإنسان وعن تمكينه من الخروج من الأزمات التي تزجانه فيها، ولا يمكنهما التحقق في مستوى التنزيل إلا بالقضاء على خصوصية الإنسان المتمثلة في ثنائية بعده. ولذا اعتمدت الأنظمة القائمة على المادية وتعتمد على صياغة "إنسانها" إنسانًا أحادي البعد حتى تقدر نظمها على التحكم فيه والتنبؤ بحركته.

أما وجهة الرهبنة فلا تتحقق بدورها حتى تزج بإنسانها في منحدر البحث عما يسميه فلاسفتها بـ"الموت الاقتداري".

إن محاولة جعل حركة الإنسان كحركة الكون من لدن النزعة المادية الأحادية أو محاولة جعل حركته نابذة للكون من لدن النزعة الروحانية الأحادية (الرهبنة) تفقد الإنسان توازنه، وفي الحين الذي تكون غاية حركة الكون الأحادية هي التوازن، لأن الوجهة مدمجة مع الحركة، فإنها في

[٣٠] موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، للدكتور عبد الوهاب المسيري (الباب الثاني: مفردات).

المجال الإنساني تصبح هي الطغيان (فقدان التوازن)، لأن الوجهة منفصلة عن الحركة، ولأن حديدها مسؤولية الإنسان وأمانته.

يقول تعالى في سورة الشمس: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۞ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا ۞ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۞ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۞ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۞ وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ۞ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ۞ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ۞ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ۞ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا ۞ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا ۞ وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾(سورة الشمس كاملة).

فكل الكائنات جاءت معرّفة لأنها تخلق ووحيها معها، فسجودها متحقق ابتداءً طوعًا وتقديرًا.

وحين يصل السياق إلى الإنسان ترد نفسه نكرة، إذ الإنسان هو المكلف بتعريفها بحسب علاقته مع الوحي وتحديده وجهته: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾، لكي تصير إما ﴿النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾(الفجر:٢٧)، أو ﴿بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾(القيامة:٢)، أو ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(يوسف:٥٣).

إن الإنسان ليس هو الكون، وفي الوقت نفسه ليس عدوًّا له، خلافًا للوجهتين النقيضتين: المادية والرهبنة.

فقدَر الكون أن يكون ساجدًا لله بشكل دائم، آخذًا لموقعه منذ لحظة خلقه. بينما قدَر الإنسان أن يكدح ويكابد ليتبوأ موقعه ويقوم بتعريف نفسه، قدره أن يعمل لتحقيق السجود ويقتحم كل العقبات المانعة له من ذلك: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ۞ فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۞ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۞ فَكُّ رَقَبَةٍ ۞ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۞ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۞ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ۞ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۞ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۞ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ﴾(البلد:١٠-٢٠).

إن قدر الكون أن يكون ثابت الموقع، في حين أن قدر الإنسان أن يحيي قلق وحيرة السعي لتعريف نفسه، ولا سبيل للفلاح في هذا إلا بالوحي.

لقد جاء الوحي في المجال الإنساني متسقًا مع كون الإنسان متحملاً للأمانة، وكونه عُلِّم الأسماءَ كلها، ومع كونه قد أسجدت له الملائكة، ومع كونه قد رفع إلى أعلى مصاف الكرامة. وهذا مقتضاه تفعيل الإمكان الكامن في الإنسان وعدم طمره أو إهماله، لأن في ذاك تحجيمًا له.

فالوحي -بناء على هذا- تنزل وفق قدرات الإنسان التي زوّده بها باريه -وهو أعلم به- ولا يحصل الانتفاع به إلا إذا شغلت جميعها. بتعبير آخر، لا يتحقق السجود في المجال الإنساني إلا بحشد الإنسان -فردًا وجماعة- لكل الطاقات المكنونة فيه. وعلى هذا يفهم قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾(التغابن:١٦)، وقوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾(الأنفال:٦٠)، وقوله: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا﴾(الطلاق:٧)، وقوله: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾(البقرة:٢٨٦)، فالوسع والإيتاء قد فُهما في فترات الجمود والقعود فهمًا سالبًا، في حين أن التطلع لتحقيق السجود يقتضي لهما فهمًا موجبًا.

المبحث السادس:

القبلة

القبلة في الصلاة هي توحيد منتظم ومستمر للتوجه عند الجماعة يتحقق معه التطابق الأمثل بين الشكل والمضمون فيصير الحق عبر التوحيد بؤرة استقطاب لقلب المؤمن، وهو محور تركيز وجذب معنوي في محور رأسي في لحظة صلة بين العبد وربه.

القِبْلة[٣١]

إن اتباع الوحي في المجال الكوني، يتم طوعًا وتقديرًا فيحل فيه الهداية. ومن هنا، فإن الكائنات الكونية تتمكن -ابتداء- من السجود الكلي الذي لا استثناء فيه، ولذلك لم يحصل في سجود الكائنات استثناء -غير الإنسان- في آية ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللّٰهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللّٰهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللّٰهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾(الحج:١٨)، إذ إن هذه الكائنات -بسبب التقدير والهداية- تخلق معروفة الوظيفة، طائعة لوحي التسخير الذي معها، فتكون تلك الطاعة سجودها ويكون التسخر وجهتها في سجودها نحو القبلة النهائية التي هي الله جل جلاله.

وهذا مؤداه -ولغياب حمل الأمانة- انعدام حيرة البحث عن الوجهة والقبلة في المجال الكوني، بخلاف المجال الإنساني، حيث أمانة إعمال الوحي والعمل به إراديًّا، كدحًا ومكابدة، وحيث الاختيار مما يترتب عليه أن الإنسان يولد على الفطرة/الدمغة/الصبغة الأصلية والتقويم الأحسن.

وتلك مقومات القدرة على الاهتداء بالوحي للتعرف على الوجهة

---

[٣١] مجلة حراء: العدد: ٢٦ (سبتمبر - أكتوبر ٢٠١١).

والقبلة وتحقيق السجود/الاندراج في موكب الساجدين، مع إمكان التنكب عن هذا الوحي واللجّ في الطغيان/فقدان التوازن. ولذلك يولد الإنسان غير معروف المصير، ويولد غير معروف الوجهة، ويولد قادرًا على التزكي أو التدسي، ويولد بمقعدين؛ أحدهما في الجنة والآخر في النار.

قال الراغب الأصفهاني: "القِبْلَةُ في الأصل؛ اسم للحالة التي عليها المَقَابِلُ، نحو: الجِلسة والقِعدة. وفي التعارف صار اسمًا للمكان المُقَابَلِ المُتَوَجَّهِ إليه للصلاة"[٣٢].

وقال الزبيدي: "والقبلة في الأصل؛ الجهة"[٣٣]، يقال: ما لكلامه قبلة، أي: جهة، وأين قبلتك: أين جهتك، والقبلة: الكعبة، وكل ما يستقبل: قبلة.

وقال ابن فارس: "والقبلة للمسجد، سميت بذلك لأن الناس يُقبلون عليها في صلاتهم وهي كذلك"[٣٤].

تقول الدكتورة منى أبو الفضل: "وكما يشد البناء بعضه بعضًا، فإن بين الشعائر وسائر الدين نفس الوشائج. فليس ثمة توحيد إذا انتهى مظهره في الشعائر، ويثير ذلك قضية التطابق بين الشكل والمضمون على مستوى آخر.

ومرة أخرى نجد الترابط أوثق ما يكون باعتباره ثمرة لعقيدة متماسكة متناسقة تستمد قوتها من كنهها، وليس من مجرد إطارها الوضعي أو ظرفها التاريخي الذي قد يبرز دلالة هذا الكنه دون أن يصنعه.

ولننظر إلى التفاعل بين الجماعة والعقيدة في منظار الجدلية من خلال دلالات هذا التطابق. ولنأخذ من بعض شعائر الصلاة والحج نماذج

---

[٣٢] مفردات ألفاظ القرآن، (ص: ٦٥٤).

[٣٣] تاج العروس، (٢٠٧/٣٠)، مادة "قبل".

[٣٤] انظر مقاييس اللغة، (٥٢/٥)، مادة "قبل".

توضيحية. فماذا عن حكمة التوجه إلى القبلة ونحن نعلم جيدًا أنه: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(البقرة:١١٥)، وأن من صفاته تعالى الهيمنة والوجود في كل زمان ومكان ومن كل جهة، وأن التحديد بمكان معين لا يكون لغير الأجساد أو الكيانات التي تحددها الأبعاد المحددة، ومن ثم تكون النسبية زمانًا ومكانًا"[٣٥].

حول البيت العتيق يتجلى التوحيد ووحدة الأمة

أما الله العلي العظيم، فهو مطلق لا ينحسر وجوده مكانًا ولا زمانًا، أما القبلة في الصلاة فهي توحيد للوجهة، والتوجه عند الجماعة في رتابة وتكرار -بصفة منتظمة ومستمرة- حتى يتحقق التطابق الأمثل بين الشكل والمضمون، فيصير الحق عبر التوحيد بؤرة استقطاب لقلب المؤمن، وهو محور تركيز وجذب معنوي في محور رأسي في لحظة صلة بين العبد وربه.

ولكن في نفس لحظة الامتثال هذه إذا بالتماثل يسود صفوف العباد وينتظم إيقاع حركاتهم، وهي نفس الحركات والأفعال التي تسري عليها قوانين الزمان والمكان، وتصبح القبلة واجهة استقبال لأفعال المؤمنين وبؤرة جذب وجاذبية، وتشد حولها جماعة المصلين وتوصلهم بعضهم ببعض من خلال وصلهم بها. فالصلاة التي تربط بين العبد وربه.. وتوصل الأمة ببعضها من خلال الشعائر التي تطابق المضمون والجوهر الذي تكرسه.

ومن استقبال الوجهة إلى الإقبال على الموضع، نجد أن الدور المحوري للكعبة المشرفة -بيت الله العتيق- لا يقتصر على تجسيدها لحقيقة التوحيد والوحدانية، ولكنه يمتد إلى ما تؤديه من تعزيز وحدة

---

(٣٥) الأمة القطب، منى أبو الفضل، (ص:٣٦).

الأمة في شكل مادي محسوس على مشهد مَن بصر من خذلته بصيرته، يتبلور بصورة جلية في الطواف. هنا نلمس عن قرب ويقين الدلالة الاستقطابية لهذه العملية، حيث تشد الكعبة إليها وتجمع حولها أفواج الطائفين، تمامًا كما تشد الشموس الكواكب التي تطوف حولها في نفس اتجاه الطواف المخالف لاتجاه عقارب الساعة.. وفي هذه اللحظة تتجلى حقيقة التوحيد كقيمة عليا في الوجود، لا يُقتصر على تكريسها جبرًا بفعل القواعد الكونية الذاتية، وإنما يرتقي الإنسان المؤمن العبد إلى إدراكها والإقرار بها والعمل لها طواعية.. وفي هذه اللحظة -لحظة الطواف- يتحقق الإدراك الإدماجي، عندما تلتقي الإرادات الواعية العاملة حول هذه الحقيقة العليا، وهي في سعيها الدائب في الحياة الدنيا لا تنقطع قط عن وحدة الوجهة والحق محورًا.

في هذه اللحظة، يكون الإنسان قد حقق أسمى وأعرق ارتباط للجماعة الإنسانية في شكل "الأمة"، ذلك الكيان الجماعي الذي تمثلت حيويته المتدفقة المتجددة في تلك الحركة الدائبة في مدار الطواف الذي لا ينقطع، وإذا كانت حيوية الكيان لا تستفاد من سكونه، وإنما من دأب المسعى تتأكد الحقيقة الوجودية العليا، وتصير الأمة القطب الوعاء البشري الذي ينفرد بين الكيانات الجماعية قاطبة في الجمع بين الخواص الاستقطابية والإدماجية، التي من خلال دفع جدلية تشد إليها وتجذب أفواجًا تلتف بها وحولها، والتي من خلال اتساق أصولها التكوينية والحيوية مع قواعد التركيب والحركة الكونية تختص دون غيرها من الجماعات، بوظيفة تاريخية عليا في تحقيق التئام الإنسان ببيئته وإعادة دمج البشرية في رحمها الكوني. وعندئذ يتحقق سلم الباطن

وسلم الظاهر... وتصبح الأمة القطب، هي الوعاء المتاح والذي لا بديل له لتحقيق المثل العليا المفتقدة في العالمية الراهنة"(٣٦).

إن هذا الاختلاف بين الإنسان وبين بقية المخلوقات، والمتمثل في عدم وجود العلاقة الحتمية بين الحركة والقبلة، اختلاف جوهري تعجز عن إبصاره -فضلاً عن تفسيره- النظريات والفلسفات أحادية البعد.

إنه اختلاف يجعل من كل حركة من حركات الإنسان حركة ثنائية الإمكان، تعكس حالة نفسه ومستوى التزكية أو التدسية الذي صارت عليه بعد ولادتها.

هنا يصبح العمل عنوان حالة النفس، ويصبح هو المحرك لها، فهي كما عُرّفت عُرِفَت، إلى درجة يمكن معها اختزال الإنسان في عمله:

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ۞ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾(هود:٤٥-٤٦). إن كل حركة -بإطلاق- تتطلب وجهة، لكن أية وجهة؟ وهذا بالضبط ما عبرت عنه زفرة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام التواقة حين اكتشف ضرورة هداية الله إلى الوجهة، وإلا فإنه الضلال، والذي لا يعدو أن يكون اضطرابًا حركيًّا في غياب رؤية الوجهة الصحيحة.

إن عظمة هذا التوق الإبراهيمي، تتمثل في تبصره بمنبع القبلة: ﴿يَهْدِنِي رَبِّي﴾(الأنعام:٧٧) قبلة كل حركة: الله(٣٧)، وإن عظمة ملاحظة

(٣٦) الأمة القطب، للدكتورة منى أبو الفضل (ص:٢٦). وقارن بـ"الحج: تأملات في شعائره"، للشريعتي ترجمة: ليلى باختيار، (ص:٧٦).

(٣٧) ولذلك يشرع للمصلي في دعاء الاستفتاح وهو واقف للصلاة متجهًا نحو القبلة أن يقول: "وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين" (وراه مسلم)، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم: ٧٧١.

إبراهيم تؤدي -برحمة الله وفضله- إلى تبويئه مكان البيت وجعله الباني لأول بيت وُضع للناس، البيت الذي يمثل القبلة المدربة للإنسان صلاة وطوافًا وتمثلاً على رفعه تحدي الحياة الأكبر: عدم تغير قبلة حركته بتغير موقعه، وهذا الذي يبرز التنبيه إليه بجلاء في سورة الأنعام: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَ يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ۞ قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنْفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۞ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ ۞ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ۞ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ ۞ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ۞ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ۞ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(الأنعام:٧٠-٧٩)، ثم تختم سورة الأنعام بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا

كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۞ قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ۞ قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۞ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(الأنعام:١٦١-١٦٥).

وهكذا ما يبرز قدرة الإسلام الباهرة على تمكين الإنسان فردًا وأمة من قبلة للحركة غير متناهية: ﴿كَلَّا لاَ تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾(العلق:١٩)[٣٨].

موكب الساجدين

في لحظة الطواف تتجلى حقيقة التوحيد كقيمة عليا في الوجود يرتقي الإنسان المؤمن إلى إدراكها والعمل لها طواعية ومن خلالها تنفرد أمة الإسلام بين سائر الأمم بتحقيق مهمة إعادة دمج البشرية في رحمها الكوني وتحقيق سلم الباطن وسلم الظاهر.

إن الرصد الشامل لتاريخ العمران البشري ـ إذا كان لنا أن نستعير لفظ العلامة المسلم ابن خلدون ـ يمكننا من اختزاله في محاولة الإنسان الدائمة لرفع تحدي حيرة قرن الحركة بوجهتها نحو القبلة في حياته

---

[٣٨] قال د. علي شريعتي: "إن الكعبة لا تعدو كونها آية/علامة حتى لا يُضَل عن الطريق، إنها لا تعدو كونها سهمًا يؤشر لك على الوجهة نحو الخلود والأزل نحو الله. فالكعبة ليست بحال نهاية الطريق، إنها بدايته. إنها نهاية عجزك وموتك وتوقفك، لأن ما هو موجود في هذه الرُّبَى هو الحركة مقرونة بالوجهة ولا شيء غير ذلك. إنها الرُّبَى التي شهدت الميثاق، إنها الرُّبَى التي يتم فيها اللقاء بالله، وبإبراهيم عليه السلام نبي الإسلام والناس. وأنت، كلما بقيت أنت، فإنك ستكون غائبًا هنا.."، الحج، (ص:٧٦).

الفردية والجماعية. ويتبين بجلاء أنه كلما تنكب عن الوحي، انزلق نحو قطب الرهبنة المفقدة للقدرة على الفعل في العالم، أو نحو قطب التكاثر المؤدي إلى الغرق في العالم، والمردي في سجن الأشياء: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾(الليل:١١).

إن انسلاك الإنسان في موكب الساجدين -وعلى حد تعبير د. منى أبو الفضل- "عودة البشرية إلى رحمها الكوني" أمر لا يمكن -ألبتة- بدون الوحي، فكما أن أمر الكون لا ينصلح بدون الوحي، فكذلك أمر الإنسان -فردًا وجماعة- لا ينصلح بدون الوحي، مما يفرض الوحي في المجالين؛ الكوني والإنساني باعتباره ضرورة ليس بعدها إلا الدمار.

فإعمال الوحي في المجال البشري ليس فيه جانب الامتثال فقط، وإنما فيه أيضًا اجتناب الدمار في الدارين الأولى والآخرة، وتحصيل السعادتين فيهما. وقد كان دأب الأنبياء جميعهم، هو إحلال الوحي وإعماله في المجال البشري، لينسلك الناس اختيارًا في موكب الساجدين.

وهذا بالضبط مناط الخلافة، فآيات الخلافة من سورة البقرة تختم بقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(البقرة:٣٨-٣٩). مما يبرز مركزية الوحي/الهدى في المجال البشري، وأن اتباعه يحقق الأمن/ توق إبراهيم الدائم[٣٩]: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(الأنعام:٨١).

وجدير بالملاحظة، أن اتباع الهدى وتحقيق السجود في المجال

---

[٣٩] يلاحظ في القرآن المجيد في مواقع الحديث عن إبراهيم عليه السلام هاجس الأمن، إذ يبرز هذا المصطلح في سياقات كلامه عليه السلام المختلفة. انظر: (الأنعام:٨١-٨٢)، و(إبراهيم:٣٥).

البشري بحسب ما أَلْمحنا إليه آنفًا، مشروع كلي[٤٠] بدأ مع نزول آدم عليه السلام وسوف يستمر إلى قيام الساعة، وأنه قد وصل إلى عنفوانه وكماله المنهجيين مع محمد بن عبد الله ﷺ رسول الناس الذي ختمت به النبوة ونقلت معه المسؤولية إلى الأمة الشهيدة على الناس.من بيت المقدس إلى بيت الناس

لقد شكّل حدث تغيير القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام، تحولاً هامًّا وحاسمًا في مسار النبوة، وإن من أقرب دلالات هذا الحدث العظيم، نقل الرسالة من بني إسرائيل، بما ظلموا وكانوا يعتدون على الناس.

ولئن ارتضت قبائل قريش أن يبسط ﷺ رداءه لنقْل الحجر الأسود؛ قصد أن يأخذ كل رئيس قبيلة بطرف منه، فيكون له ولقبيلته من ورائه شرف حمل الحجر الأسود ونقله، فكان حكمه ﷺ حكم القبائل جميعًا؛ فإن تحويله ﷺ القبلة بأمر الله من بيت المقدس/قبلة الآل، نحو بيت الناس/ قبلة الناس، حكم عدل قد ارتضاه الناس جميعًا، قال تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۞ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾(الشورى:١٥-١٦).

قال ابن القيم -رحمه الله- في معرض كلامه عن هذه الآيات: "أمر

(٤٠) نستخدم هنا عبارة "المشروع الكلي" نظرًا لأن مشروع إعمال الوحي في المجال البشري يستغرق كل طاقة الإنسان فردًا وجماعة، حاضرًا وماضيًا ومستقبلاً، كما يستغرق الكون المسخر كله.

سبحانه نبيه ﷺ أن يدعو إلى دينه الذي شرعه لأنبيائه، وأن يستقيم كما أمره ربه، وحذّره من اتباع أهواء المتفرقين، وأمره أن يؤمن بكل ما أنزله الله من الكتب، وهذه حال المحقق؛ أن يؤمن بكل ما جمعه من الحق على لسان أي طائفة كانت، ثم أمره بالعدل بينهم، وهذا يعمّ العدل في الأقوال والأفعال والآراء والمحاكمات كلها، فنصبه ربه ومرسله للعدل بين الأمم، فهكذا وارثه"[٤١].

فلا شك أن حكم الأمين ﷺ هو العدل في حمل الحجر وفي تحويل القبلة كما في غيرهما.. قال الشوكاني في فتح القدير: "﴿وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ في أحكام الله إذا ترافعتم إليّ، ولا أحيف عليكم بزيادة على ما شرعه الله أو بنقصان منه.. والظاهر أن الآية عامة في كل شيء.. والمعنى: أمرت لأعدل بينكم في كل شيء"[٤٢].

فقبل مرحلة الناس سبقت مرحلة الآل: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ۞ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(آلِ عِمْرَان:٣٣-٣٤)، وهي مرحلة كان ينظر فيها إلى الرب سبحانه في حدود الآل.. ففي معرض الحديث عن تحويل القبلة يقول تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(البقرة:١٣٣).. إلى أن يقول تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(البقرة:١٣٤)، ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ

---

[٤١] مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (٢/٥٨).

[٤٢] فتح القدير (٤/٦٠٨).

الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(البقرة:١٤٢).

ويقول تعالى على لسان يوسف عليه السلام في معرض حديثه مع صاحبي سجنه: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾(يوسف:٣٨) في مرحلة الناس، الرب: ﴿بِرَبِّ النَّاسِ ۝ مَلِكِ النَّاسِ ۝ إِلَهِ النَّاسِ﴾(الناس:١-٣)، والرسول رسول الناس: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾(الأعراف:١٥٨)، والبيت بيت الناس: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾(آل عمران:٩٦)، والكتاب كتاب الناس: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ﴾(البقرة:١٨٥).

يُنتبه إلى أن آيات العدل -سالفة الذكر- قد جاءت في سورة الشورى -والشورى لا تتم بدون تعارف، والتعارف من شرطه تكامل الوجهات حول القبلة- وفي مفتتحها جاء قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾(الشورى:٧)، قال الزبيدي في شرح "حول": "الإحاطة من كل وجه... كل جزء من الجرم المحيط"(٤٣).

غير أن ما حول أم القرى في مرحلة الناس -التي مهد لها إبراهيم عليه السلام والذي بُوِّئ مكان بيت الناس، فرفع القواعد منه هو وابنه إسماعيل- ليست علاقته بأم القرى -التي ما كان لها أن تكون أصلاً لولا البيت- فقط علاقة تقبل جامد/ستاتيكي للنُّذُر من خلال الدعوة في وجهها العطائي الباث، بل هي أيضًا علاقة تقبل متحرك/ديناميكي من خلال التلبية بالاستجابة للأذان بالصلاة خمس مرات في اليوم، وإرسال المُهَج نحو البيت، وكذا من خلال التلبية بالاستجابة للأذان بالحج وإرسال فلذات الأكباد مع الهدي نحو البيت: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لاَ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ

(٤٣) تاج العروس، (٢٨/٣٧٢)، مادة "حول".

بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ۞ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾(الحج:٢٦-٢٧).

وفي مناسبة نزول قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾(الشورى:١٦) أخرج عبد بن حميد عن الحسن رضي الله عنه قال: "قال أهل الكتاب لأصحاب محمد ﷺ نحن أولى بالله منكم، فأنزل الله: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ﴾ يعني أهل الكتاب مما جعلهم برفضهم الدخول في مرحلة الناس، يتردون من مفضلين على العالمين -ولطبيعة المرحلة- إلى: ﴿السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۞ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(البقرة:١٤٢-١٤٣)".

المبحث السابع:

النبوة والإنسان

يبرز في القرآن المجيد أن نتيجة عمل الوحي في المجالين هي السجود، غير أن السجود في المجال الكوني -ولطبيعة عمل الوحي فيه- يتم تلقائيًا تقديرًا وهداية، في حين أنه لا يتم في المجال الإنساني إلا بالكدح والمكابدة.

النبوة والإنسان(٤٤)

الوحي من الله ﷻ إلى مخلوقاته في القرآن المجيد على ثلاثة أقسام:

١- وحي منه تعالى إلى الملائكة.

٢- وحي منه سبحانه إلى الإنسان.

٣- ووحي منه ﷻ إلى المخلوقات الكونية. ولكل من هذه الأقسام طبيعته وشاكلته التي يعمل بحسبها.

فالوحي الذي للملائكة أمر منه سبحانه ولا يدخل في بنيتها الخلقية إمكان عصيانه، قال تعالى﴿لاَ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾(التحريم:٦)، والذي للإنسان هداية تبليغ، يملك هذا المخلوق اتباعها، كما يملك التنكّب عنها، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾(الشمس:٧-١٠)، وقال: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى ۞ وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى﴾(الأعلى:١٠-١١). والوحي الذي للكون هداية تسخير لا يملك التنكب عنها، قال تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾(فصلت:١٢)، وقال: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ

(٤٤) مجلة حراء: العدد: ٢٢ (يناير - فبراير ٢٠١١).

بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾(النحل:٦٨).

إن طبيعة عمل الوحي في المجال الإنساني تنسجم وتحمّل الإنسان للأمانة، كما أن طبيعة عمل الوحي في المجال الكوني تنسجم وإباء الكون تحمل الأمانة وإشفاقه منها، وهو ما يتضح في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾(الأحزاب:٧٢).

وبناء على هذا، فإن طبيعة عمل الوحي في المجال الكوني كانت هي الطوع والهداية المبنية على التقدير، قال تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾(فصلت:١١)، وقال: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ۞ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۞ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾(الأعلى:١-٣)، وقال سبحانه على لسان سيدنا موسى عليه السلام في معرض جوابه على أسئلة فرعون، معبّرًا عليه السلام عن إدراك نبوي عميق لهذه الحقيقة: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾(طه:٥٠)، وقال: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۞ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾(يس:٣٨-٣٩). بيد أن طبيعة عمل الوحي في المجال الإنساني بمقتضى حمل الأمانة، تنبني على الكدح والمكابدة وهو قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾(البلد:٤)، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاَقِيهِ﴾(الانشقاق:٦).

ويتضح الفرق بين شاكلتي عمل الوحي في كلا المجالين انطلاقًا من المصطلح المفتاح "السبل". فالسبل في المجال الكوني تسلك ذُللاً (أي بيسر) وهو ما يتجلى من خلال قوله تعالى في معرض الكلام عن طبيعة عمل الوحي في المجال الكوني: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي

مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۞ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً﴾(النحل:٦٨-٦٩). في حين أن السبل في المجال الإنساني تسلك مكابدة وكدحًا كما يتّضح من قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾(العنكبوت:٦٩)، ومن قوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۞ يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(المائدة:١٥-١٦).

انسلاك الإنسان في موكب الساجدين

ويبرز في القرآن المجيد أن نتيجة عمل الوحي في المجالين هي السجود، غير أن السجود في المجال الكوني -ولطبيعة عمل الوحي فيه- يتم تلقائيًا تقديرًا وهداية، في حين أنه لا يتم في المجال الإنساني إلا بالكدح والمكابدة، يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾(الحج:١٨)، ويقول: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۞ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاَهَا ۞ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۞ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۞ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۞ وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ۞ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾(الشمس:١-١٠)، حيث جاءت كل الكائنات المذكورة في هذه الآيات معرّفة إلا النفس الإنسانية، فقد جاءت نكرة، وذلك لأن كل الكائنات -بناء على ما سلف- تولد ووحيها معها، ولذلك هي معرّفة، بيد أن الإنسان هو المسؤول عن

إدخال الوحي إلى مجاله، ولذلك فهو المسؤول عن وضع ألف لام التعريف التي تناسب مسلكه أمام نفسه، لتكون إما "النفس المطمئنة" أو "النفس اللوامة" أو "النفس الأمارة بالسوء".

إن انسلاك الإنسان في موكب الساجدين لله ﷻ أمر لا يمكن البتة بدون الوحي. فكما أن أمر الكون لا ينصلح بدون الوحي إلى السماوات والأرض ومختلف الكائنات وكذا التقدير والهداية، فإن أمر الإنسان فردًا وجماعة لا ينصلح بدون الوحي، ومن هنا محورية النبوة في حياة الإنسان، يقول تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ۞ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ۞ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۞ لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا ۞ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلاَلاً بَعِيدًا ۞ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ۞ إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا ۞ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾(النساء:١٦٣-١٧٠).

إحلال الوحي في واقع العالمين

وإن إحلال الوحي في واقع العالمين كان هو العمل الذي قام به سيدنا

رسول الله ﷺ مع الجماعة المسلمة الأولى التي تعتبر جنين الأمة الفرد/ الجسد[٤٥]، الأمة التي تكتمل عبر الزمن، حيث تركها عليه أزكى الصلاة والتسليم مقياسًا شاخصًا لا تتخوّفه الأحداث. فقد بدأ زرعه عليه الصلاة والسلام للآيات من نفسه الشريفة؛ "كان خلُقه القرآن"[٤٦]، ثم زرعها في نفوس أصحابه الكرام ﷺ، قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾(الفتح:٢٩)، ليرفعها الأصحاب الكرام ﷺ علامات وبصائر في واقعهم، واقع المدينة المنورة والذي استحق أن يكون الوحدة القياسية وحالة السواء التي تقاس عليها التجمعات البشرية.

لقد شبه نبي الهدى ﷺ عمله بعمل الفلاّح البصير الذي يعالج الأرض الصالحة متحينًا أوقات الحراثة والنقش والتنقية والسقي، مترصدًا تقلب الأنواء، محددًا -عبر الموسم- أنواع الوظائف والمهام التي يرتبها على نفسه لاستخراج أحسن ما يمكنه -بقدر الله- من هذه الأرض. فعن ابن مسعود

---

[٤٥] قال رسول الله ﷺ: "ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادّهم وتعاطفهم كمثَل الجسد، إذا اشتكى عضوًا تداعى له سائرُ جسده بالسهر والحُمَّى". أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، حديث رقم: ٦٠١١.

[٤٦] جزء من حديث أخرجه البخاري في الأدب المفرد بالتعليقات، باب من دعا الله أن يحسن خلقه، حديث رقم: ٣٠٨. وأحمد في مسنده، مسند الصديقة عائشة بنت الصديق ﵂، حديث رقم: ٢٥٣٠٢.

ﷺ قال: "كان النبي ﷺ يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهية السآمة علينا"(٤٧).

وقال النبي ﷺ: "مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا، فكان منها نقية قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب، أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به"(٤٨). فرسول الله ﷺ كان يبث الآيات في نفوس أصحابه الكرام ﷺ بطريقة رباعية الأبعاد.

البعد الأول: تلاوة الآيات وتأوّلها واتّباعها بين ظهرانيهم ليروا ذلك ويحيوا نورانيته، قال ﷺ: "صلّوا كما رأيتموني أصلي"(٤٩)، وهي سنته الفعلية.

البعد الثاني: تعليمهم الكتاب ومعانيه العلمية والعملية فقهًا وتمثلاً.

البعد الثالث: بناء مهارات في أنفسهم تمكّنهم من الفرقان والتمييز وتعلمهم وضع الأشياء والأقوال والمقدّرات في مواضعها، وتلكم الحكمة.

البعد الرابع: تزكيتهم وتنويرهم تخلية وتحلية وهو البعد الأخص.

وقد كانت وراثته ﷺ في البعدين الأول والثاني عامة وفي البعد الثالث أقل عمومًا، أما وراثته في البعد الرابع فكانت خصوص الخصوص. وهذه

---

(٤٧) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب الموعظة ساعة بعد ساعة، حديث رقم: ٦٤١١. ومسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب الاقتصاد في الموعظة، حديث رقم: ٢٨٢١.

(٤٨) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب فضل من علم وعلم، حديث رقم: ٧٩.

(٤٩) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى من حديث أبي سليمان مالك بن الحويرث ﷺ، باب من سها فترك ركنا عاد إلى ما ترك حتى يأتي بالصلاة على الترتيب، حديث رقم: ٣٨٥٦.

الأبعاد هي التي يجمعها قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾(الجمعة:٢). والصحابة الكرام ﵃ كانوا هم مستودع هذه الأسرار وجماعها وتجلي أنواره النبوية تلاوة، وتزكية، وتعليمًا للكتاب، وتعليمًا للحكمة. وخرم دائرتهم النورانية بسب أو بقذف خرم للكل النوراني المجموعي التمامي الذي شكلوه ﵃، ولعل حرص سيدنا عمر ﵁ على بقائهم في المدينة وعدم ترخيصه رضوان الله عليه لهم بمغادرتها أثناء حياته كان صادرًا عن هذا الوعي، وكان تجليًا لحرصه المبارك على استكمال البناء واستتباب الدين قبل الانطلاق في عملية بثه في الآفاق.

تجريد الوحدة القياسية

إن تجريد الوحدة القياسية على الصعيدين الفردي والجماعي أمر في غاية المحورية في حياة الإنسان فردًا واجتماعًا. فقد عانت البشرية كثيرًا -ولا تزال- في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية من جراء عدم الاستبصار بمعالم وسمات الإنسان السوي والمجتمع السوي، المشكّلين للوحدة القياسية التي يجب أن يُتيمّم شطرها بالمناهج والبرامج التربوية، وكذا بمختلف أنواع الكسب العلمي والعملي في المجالات الاجتماعية والنفسية.

ولذلك نرصد في مختلف حقب تاريخ البشرية المعروف، كثيرًا من التخبطات وأضرب الخرص في المجالات التربوية والاجتماعية والإنسانية بسبب غياب هذا الوعي الأساس.

وتأتي الأهمية البالغة للوحدة القياسية الدالة على حالة السواء، من كون التعرف على حالات الاختلال والانحراف لا يمكن بدونها، كما

لا تمكن بدونها معالجة هذه الاختلالات والانحرافات. وهذه حقيقة ماثلة في مختلف مجالات العلوم المادية والإنسانية، غير أنها اليوم أجلى وأظهر في العلوم المادية البحتة منها في العلوم الإنسانية.

لقد حاولت البشرية في مختلف مواقعها عبر تاريخها الممتد، أن تحل إشكال الوحدة القياسية على الصعيد الاجتماعي من خلال إنتاج يوطبيات (Utopias) حول طبيعة مكونات المجتمع الفاضل والمدنية الفاضلة، وعلى الصعيد التربوي من خلال إنتاج مفهوم البطل.

أنموذجًا على المحاولات في الجانب الاجتماعي، جهود أفلاطون في "المدينة الفاضلة" وجهود القديس أغوسطين في "مدينة الإله" وجهود الفارابي في "المدينة الفاضلة" أيضًا، وكذا جهود كارل ماركس وبعده لنين، وكذا تصورات كل من ستالين وهيتلر وموسوليني للمجتمع الفاضل، وهي يوطبيات جرت لعدم مواءمتها لطبيعة الإنسان والكون على العالمين وبالاً غير قليل.

وأنموذجًا على المحاولات في الجانب الفردي، ما يوجد في الأعراف المصرية والإغريقية والهندية والصينية وفي حضارات بلاد الرافدين، وكذا في الحضارة الرومانية من إقامة النصب والتماثيل لأشخاص مختارين يرفعون إلى مصاف الأبطال ليكونوا مُثلاً تربوية يعاد إنتاجها، غير أن ضعف المؤهلات الإدراكية والآليات التفكيكية، لم يمكّن من الرسم العلمي والوظيفي لمعالم شخصياتهم وسمات نفسياتهم ومراحل مساراتهم، مما كان يؤدي في كثير من الحالات إلى الانحسار في التقديس. وقد استمر هذا الخط في الحضارة المعاصرة، إذ يلحظ استمرار البحث عن الأبطال لإرسائهم نماذج تحتذى، وصب سمات شخصياتهم الأساسية

في المناهج التربوية. غير أن هذا النهج -كذلك- لم يحقق إلا نتائج جزئية لغياب الاستبصار بحقيقة الإنسان السوي ودوره الكوني.

الإسلام وردم الهوة بين المتأسي والمتأسى به

حين نبحث إشكال التأسي في القرآن المجيد وفي السنة النبوية المطهرة، نجد تمحورًا حول المحاور الكبرى الآتية:

١- النبي بشر عبدٌ لله مثل البشر، غير أنه اصطُفي بعلم الله ليوحى إليه. ونجد ذلك في آيات كثيرة من كتاب الله منها قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾(الكهف:١١٠).

٢- التأسي في القرآن المجيد يتم بالنظر إلى النبي المثال فبالنظر إلى الحال ثم العمل على الانتقال من الحال إلى المثال. قال تعالى في معرض الكلام عن نبيه إبراهيم عليه السلام وعن أتباعه الخُلَّص: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾(الممتحنة:٦)، وقال عن خاتم النبيين سيدنا محمد ﷺ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾(الأحزاب:٢١).

فالأنبياء إذن، مثال هاد لمن قام في قلوبهم الشوق والتوق إلى ما عند الله سبحانه، وتجلى هذا الشوق وذاك التوق بالذكر الكثير له سبحانه. والأنبياء هم الوحدة القياسية المرجع التي تمثل حالة السواء الشاهدة التي ينبغي أن يرصد من خلالها الحال، لكي يتم العمل للعالم المهتدي على نقله إليها. فهو إذن، شوق وتوق وذكر كثير ونبي شاهد وعمل دؤوب

عالِم، ففضل من الله كبير، مع وجوب الانتباه إلى العقابيل الحائلة دون هذا الإنجاز الضخم -التأسي- الذي عليه يقوم تحصيل السعادتين في النشأتين بالتوكل على الله تعالى.

وهذه المعاني كلها قد جمعها قول الله ﷻ في سورة الأحزاب، إذ قال: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۞ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ۞ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلاَئِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۞ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلاَمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ۞ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۞ وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ۞ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيرًا ۞ وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً﴾(الأحزاب:٤٠-٤٨).

٣- النبي شاهد وشهيد مُؤيد: النبي هو الوحدة القياسية الشاهدة التي تمثل حالة السواء في المجال الإنساني، والتي بالنظر الواعي إليها يتم التعرف على الاختلالات التي في هذا المجال جمعًا وإفرادًا. بذلك يحصل إمكان العمل على ردها إلى حالة السواء[٥٠]. وتلك نعمة من الله جُلَّى.. حتى إذا تمت إفادة الأمة من النبي ﷺ، فإنها بدورها تصبح وحدة قياسية على الصعيد الاجتماعي والحضاري، يمكّن التعرّفُ عليها من التعرّف على الاختلالات في هذه الأصعدة، ومن ثم يمكن التعرف على ما يلزم من العمل لرد هذه الاختلالات إلى حالة السواء، وهذا هو ما

---

[٥٠] يلاحظ أن حالة السواء في كتاب الله، نسق مفتوح آخذ بعين الاعتبار للخصوصيات والسياقات، وهو ما نرجو بعون الله تفصيل القول فيه في بحث لاحق.

يتجلى في قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاَكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾(الحج:٧٨)، وفي قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(البقرة:١٤٣).

وحتى يكون النبي بعد اصطفائه لهذه الوظيفة التكوينية الخطيرة قادرًا على الاضطلاع بها، يكون إنعام الله بالتأييد. قال تعالى عن نبي الختم ﷺ: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾(الأنفال:٦٢). كما أن النبي لهذا القصد -قصد أن تمثل فيه الوحدة القياسية الشاهدة- يصنع ظاهرًا وباطنًا على عين الله ﷻ، وقال سبحانه عن نبيه موسى ﵇: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾(طه:٣٩)، وقال تعالى: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾(طه:٤١)، وقال سبحانه عن خاتم النبيين: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۞ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ۞ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ۞ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾(الشرح:١-٤). وقال ﷺ في هذا المعنى: "أدّبني ربي فأحسن تأديبي"[٥١] (كشف الخفاء). فكانت النتيجة في حقه عليه الصلاة والسلام هي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(القلم:٤). ومن أجل ذلك كان اتباعه والتأسي به ﷺ هو المرقاة إلى مرضاة الله ومحبته. وقال جل وجلاله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾(آل عمران:٣١).

[٥١] قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- إن معناه صحيح ، ولكن لا يعرف به إسناد ثابت. انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٣٧٥/١٨)، وأورده الشوكاني في "الفوائد المجموعة" (١٠٢٠). والفتني في "تذكرة الموضوعات" (٨٧).

الوحدة القياسية على المستوى الفردي

لقد ساد بين المسلمين في الأزمنة الأخيرة من تاريخهم، على خلاف ما كان عليه الأمر في عهد الصحابة الكرام ﵃، التعامل التبركي مع آثار ودلائل النبوة وشمائل النبي ﷺ وسيرته العطرة عليه الصلاة والسلام. وفي ذلك خير كثير في ذاته، غير أنه لو شُفِع بالوظيفية لكان الخير أعم وأتم. ونقصد بالوظيفية هنا، أن يتم طرح الأسئلة العملية على آثار النبوة، من أجل تبين أوجه الشهادة النبوية في مجال مخصوص، وتحديد منهجية الرد بخصوصه إلى الوحدة القياسية. وهي أسئلة لا يمكن طرحها بطريقة سليمة إلا من لدن العالمين بالمجال قيد الدرس، إذ العلم بالمجال هو الذي يمكن من تلمس مواطن الهدي النبوي فيه، للتأهيل الناجم عن استتباب التضاريس المعرفية والمركبات المفاهيمية والأنساق القياسية ذات الصلة بالمجال في أذهان المشتغلين به. مما لا ينتج إلا بطول الممارسة للبحث في مجال معين والتعاطي مع المشاكل المنهجية التي فيه. ففي التربية مثلاً، لن يكون أقدر على مساءلة آثار النبوة في هذا المجال من التربويين، لمكابدتهم له ولمعاناتهم البحثية داخله، معاناة تنشئ الشوق والتوق، وكذا الاستعداد لوجدان الحلول.

إن التعرف على الإنسان الشاهد -الوحدة القياسية- الذي يمثل حالة السواء، والذي من خلال التعرف على بنائه النفسي والشخصي والقصدي، هو المدخل لإنتاج العلوم الوظيفية والمناهج العلمية الممكنة من رد الاختلالات إلى حالة السواء، وهنا الدور المحوري الخطير لوظيفة النبوة ووظيفة الذكر الذي تأتي به متى ما حلّ الرشد في التعامل معهما والتأسي بهما. فالتعرف على حالة السواء ـ كما تقدم ـ يمكن من تجريد

المثال التفصيلي الذي ينبغي أن يشمّر من خلال البرامج والمناهج، للسير بالمتربين نحوه بغير عِوج ولا أَمْت. وهذا مضمار -في العلوم التربوية- للبحث والإبداع فسيح خصيب.

ودائمًا في علاقة بالوحدة القياسية على المستوى الفردي، فإن علم النفس وعلم النفس السلوكي وعلم التحليل النفسي، كلها علوم تعاني الأمرَّين لغياب العلم بماهية حالة السواء. ولا شك أن أهل هذه المجالات، إن أعملوا عقولهم ووجداناتهم لاستبانتها من آثار النبوة، فسوف يحلُّون إشكالات أليمة ومكلِّفة. لقد أنعم الله على العالمين بأن تولَّى سبحانه في مرحلة الختم بذاته العليّة حفظ الذكر: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(الحجر:٩). فحفظت بذلك آثار النبوة المنيرة، واستمر إمكان التعرف على النبي الشاهد وعلى حالة السواء من خلاله. إن هذه النعمة الجُلَّى إن شكرت بحسن التوظيف والتثمير، ولم تُكفر بالإنكار والاستهتار، لمن شأنها أن تهدي العالمين إلى مستقبلات أكثر إشراقًا.

الوحدة القياسية على المستوى الجماعي

لقد عانت البشرية كثيرًا على الصعيد الاجتماعي من آثار الجهود الخارصة، لتبيّن معالم وسمات العمران البشري الأمثل، كما عانت عبر تاريخها من إملاءات وتحكمات المستبدّين أفرادًا وجماعات. وقد كانت الذعائر والتكاليف باهظة، إذ كم قُدم ويقدّم من الأبرياء الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً حطبًا لهذه المشاريع اليوطوبية، ليُتَبَيَّن بعد حين أنها لم تكن سوى سراب يباب، ولات حين مناص، وما الحالة السوفياتية منا ببعيد.

وبما رحمة من الله تعالى، فقد جعل سبحانه الوحدة القياسية على المستوى الاجتماعي، تتمثل في المجتمع النبوي، حيث تمكن النبي الخاتم ﷺ، من جعله بهداية الله وتوفيقه يَنُثُّ كله بالهداية للتي هي أقوم، فضاء وعمرانًا وإنسانًا ووظائف ومراكز وعلائق. وقد كان البدء بأن تم تغيير اسم مهاجر الرسول الخاتم ﷺ من طيبة ويثرب إلى المدينة -بألف ولام التعريف- ليفهم أن العمران الشاهد كان هو ذاك. ولئن تكلم الفلاسفة عن المدينة الفاضلة، وتاقوا إلى التعرف على الوحدة القياسية بهذا الخصوص، فإن النبوة -بأمر الله وفضله- قد أنشأتها واقعًا حيًّا نابضًا حفظت معالمه المركزية رغم كل التفريط والتقويض الذي يَبْدُر مثله عن البشر.

فالنبي الخاتم ﷺ كما تقدم، قد زرع آيات الوحي وعلاماته وبصائره في نفوس أصحابه الكرام ﭫ، فاندَهَقَتْ منها إلى واقعهم لتكون هاديات خالدة للمحجة البيضاء التي ليلها كنهارها، ولا يزيغ عنها إلا هالك. إن في كتاب الله كما في سنة سيدنا رسول الله ﷺ، البيّنات الوافرة على السلط والمراكز والأدوار والتدبيرات والوظائف والعلائق والنماذج والأخلاق والقيم التي ينبغي أن تَشْخَصَ في المجتمع الشاهد، في حالة السراء وفي حالة الضراء، في حالة الشدة، وفي حالة الرخاء، في حالة السلم، وفي حالة الخوف، وكذا الحرب واللأواء[٥٢]. مما ليس ينتظر إلا العقول

(٥٢) ومـا أروع الصـورة المشـرقة التي يعرضها كتاب الله لمجتمع المدينة الشـاهد وهو بعد في طـور التكويـن في مثل قوله تعالـى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الـدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِـمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُـحَّ نَفْسِـهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۞ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾(الحشر:٩-١٠).

المتمرسة الخبيرة لطرح الأسئلة المنهجية، من أجل رفع صرح علم التأسي على الصعيد الاجتماعي.

وجب ختامًا التنبيه إلى بعض الأسس المهمة من أسس علم التأسي وآكدها.

١- استدماج الوعي بأنه ﷺ قد طبّق القرآن المجيد التطبيق الأمثل.

٢- أن يتم التعرّف العقلي والوجداني والعلمي على نبي الرحمة ﷺ، إذ إن هذه المداخل التعرفية متكاملة فيما بينها ويفضي بعضها إلى بعض، ولا تتصور معرفة كاملة بسيد الخلق عليه الصلاة والسلام بدون اعتمادها جميعًا. فجماع العلم أن يضحى العالم قادرًا في كل حين أن يسأل نفسه السؤال الآتي: لو كان رسول الله ﷺ في مقامي ماذا كان سوف يصنع؟ ثم يكون قادرًا على الإجابة.

٣- أن يعلم المتأسي حيثيات السياق الزماني والعمراني الذي يوجد فيه، وحيثيات سياق المتأسى به ﷺ، الزمانية والعمرانية والبيداغوجية[٥٣].

وفي سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والفرقان والطلاق والمجادلة وغيرها غرر بهذا الصدد لا تنتظر إلا التجلية المتجددة.

ولعل تنبّه الإمام مالك بن أنس الأصبحي رضي الله عنه إلى هذه الحقيقة بشكل عام وراء افتراعه لأصل من أصول مذهبه المبارك، حيث جعل "عمل أهل المدينة" أصلاً من أصول التشريع لما تضمنه هذا المجتمع الشاهد من هاديات لن تتكشّف كل حقائقها إلا عبر الزمن.

كما أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لتنبُّهه إلى أهمية حفظ هذه الوحدة القياسية الاجتماعية في مرحلة التكوين حتى تثبت أركانها، كان قد نهى الصحابة رضي الله عنهم عن مغادرة المدينة المنورة حتى يستتب البناء وتُحفظ الشهادة، فلم يتمكنوا من مغادرتها إلا بعد وفاته رضي الله عنه.

(٥٣) لأنه ﷺ جاء معلمًا للناس: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾(البقرة:١٥١). فوجب أن يؤخذ هذا الجانب التعليمي أيضًا بعين الاعتبار حين التأسي.

٤- أن يعلم المتأسي الفروق الأنتروبولوجية والثقافية والعُرفية وغيرها بين السياقين، حتى إذا ساءل في أي مجال من المجالات، استدمج هذه الفروق ليكون التنزيل سليمًا، ولا يخفى ما يقتضيه هذا من جهد بحثي ممنهج.

٥- أن يستدمج المتأسي العلم بالمقاصد العامة للنبوة، رحمتها وجمالها وشرائعها، حتى لا يفرط في الأصول لحساب الفروع أو يقدم ما من شأنه أن يؤخر أو العكس. وهذا داخل ضمن فقه الموازنات والترجيحات، وقد قام علماء الأمة -جزاهم الله خيرًا- بجهود وضيئة في هذه المضامير.

٦- أن يستحضر المتأسي وجوب النظر في المآلات واعتبارها، حتى لا يكون جالبًا لمفاسد على نفسه ومحيطه من حيث يريد جلب المصالح، وكثيرًا ما يحصل ذلك إذا أغفل البعد المستقبلي في التنزيل.

٧- كما أن من آكد الشروط أيضًا، وجوب المقاربة التكاملية التي لا تهمل جانبًا من الجوانب أو تطغيه، بل تحرص على حضورها ومراعاتها جميعًا بشكل مقدّر متوازن.

وبدون مراعاة هذه الشروط، فإنه لا يمكن تفعيل وظيفة ودور الشهادة كما جاءت في مثل قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(البقرة:١٤٣).

بقيت الإشارة أخيرًا إلى أن في تراثنا جهودًا مباركة وجب استئنافها في هذا الاتجاه لعلماء أفاضل هم بسبق حائزون تفضيلاً، مستوجبون من أمتهم ثناءها الجميلاً، كأمثال القاضي عياض السبتي في "شفائه"، والشاطبي في "موافقاته" و"اعتصامه"، وابن القيم في "زاد المعاد"،

والصالحي في "سبل الهدى والرشاد"، وشاه ولي الله الدهلوي في "الحجة البالغة"، وسعيد النورسي بديع الزمان في "رسائل النور"، وعبد الحي الكتاني في "التراتيب الإدارية في الحكومة النبوية" والأستاذ فتح الله كولن في "النور الخالد" وغيرهم ممن وجب البناء على جهودهم وتثميرها.

كل ذا دون فقدان الاستبصار بأنه رغم كل ما يمكن أن يبذل في مجال علم التأسي، فإنه يبقى مجالاً متجددًا بتجدد الأزمنة والأمكنة والأحوال والأعراف والعادات.. ويرحم الله الإمام السهيلي إذ سمى سيرة رسول الله ﷺ: "الروض الأُنُف"(٥٤).

(٥٤) أي الروض البكر الذي لم يُدخل قط!

المبحث الثامن:

التأسي بين التبرك والوظيفية

نحو استئناف التأسيس المنهاجي

لعلم التعامل مع آثار النبوة

إن في كتاب الله كما في سنة سيدنا رسول الله ﷺ البنيات الوافرة على السُّلَط والمراكز والأدوار و التدبيرات والوظائف والعلائق والنماذج والأخلاق والقيم التي ينبغي أن تَشْخَص في المجتمع الشاهد؛ في حالة السراء وفي حالة الضراء، في حالة السلم وفي حالة الخوف، وكذا الحرب واللأواء.

التأسي بين التبرك والوظيفية:
نحو استئناف التأسيس المنهاجي لعلم التعامل مع آثار النبوة[٥٥]

عانت البشرية كثيرًا -ولا تزال- في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية من جراء عدم الاستبصار بمعالم وسمات الإنسان السوي والمجتمع السوي، اللذَين ينبغي أن يشكلا الوحدة القياسية التي يجب أن يُتيمّم شطرها بالمناهج والبرامج التربوية، وكذا بمختلف أنواع الكسب العلمي والعملي في المجالات الاجتماعية.

ولذلك نرصد في مختلف حقب تاريخ البشرية المعروف، كثيرًا من التخبطات وأضرب الخرص في المجالات التربوية والاجتماعية والإنسانية بسبب غياب هذا الوعي الأساس.

وتأتي الأهمية البالغة للوحدة القياسية الدالة على حالة السواء، من كون التعرف على حالات الاختلال والانحراف لا يمكن بدونها، كما لا تمكن بدونها معالجة هذه الاختلالات والانحرافات. وهذه حقيقة ماثلة في مختلف مجالات العلوم المادية والإنسانية، غير أنها أجلى وأظهر في العلوم المادية البحتة منها في العلوم الإنسانية.

ولنأخذ مثالاً على ذلك علم الطب. فهذا العلم يتمَفصل حول محاور ثلاثة:

١- العلم بالجسم وأعضائه في حالة السواء، والتعرف عليه شمولاً

---

[٥٥] مجلة حراء: العدد: ٥ (أكتوبر - ديسمبر ٢٠٠٦).

وعلى وظائفه، ثم التعرف على أعضائه تفصيلاً وعلى وظائفها، وهو علم الأناتوميًّا والهيستوسيتولوجيًّا.

٢- العلم بحالات الانحراف والقصور التي تطرأ على الجسم وعلى أعراضها وأوصافها وأسمائها تفصيلا، هو علم السيميوباتولوجيا.

٣- العلم بكيفية رد حالات الانحراف إلى السواء مرة أخرى بالصيدلة أو بالجراحة، وهو علم الفارماكولوجيا وعلم الجراحة.

والعلمان الثاني والثالث يتفرعان عن العلم الأول، إذ لولا العلم بحالة السواء وضبطها لما أمكن الوقوف على حالات الانحراف ثم لما أمكن ردها إلى حالة السواء بعد ذلك مرة أخرى؛ إذ كيف يُرَدُّ الاختلال إلى السواء إذا لم يمكن التعرف عليه؟ وهو أمر غير وارد ما لم تكن حالة السواء الشاهدة معروفة بتفصيل وتدقيق بحيث يسهل تبين التغيرات التي تطرأ عليها ذاتا وأداءً.

غير أن هذا -وكما سلف- رغم وضوحه في العلوم البحتة الكونية فإنه ليس بالوضوح نفسه في العلوم الإنسانية والاجتماعية.

يوطبيات وأبطال

لقد حاولت البشرية في مختلف مواقعها عبر تاريخها الممتد أن تحل إشكال الوحدة القياسية على الصعيد الاجتماعي من خلال إنتاج "يوطبيات" حول طبيعة ومكونات المجتمع الفاضل والمدينة الفاضلة، وعلى الصعيد التربوي من خلال إنتاج مفهوم البطل.

أنموذجًا على المحاولات في الجانب الاجتماعي، جهود أفلاطون في "المدينة الفاضلة" وجهود القدّيس أغوسطين في "مدينة الإله" وجهود

الفارابي في "المدينة الفاضلة" أيضًا، وكذا جهود كارل ماركس وبعده لنين وكذا تصورات كل من ستالين وهيتلر وموسوليني للمجتمع الفاضل؛ وهي يوطبيات جرّت لعدم مواءمتها لطبيعة الإنسان والكون على العالمين وبالاً غير قليل.

وأنموذجًا على المحاولات في الجانب الفردي ما يوجد في الأعراف المصرية والإغريقية والهندية والصينية وفي حضارات بلاد الرافدَين وكذا في الحضارة الرومانية من إقامة النُّصب والتماثيل لأشخاص مختارين يرفعون إلى مصاف الأبطال ليكونوا مثلاً تربوية يعاد إنتاجها، غير أن ضعف المؤهلات الإدراكية والآليات التفكّيكة لم يكن يمكن من الرسم العلمي والوظيفي لمعالم شخصياتهم وسمات نفسياتهم ومراحل مساراتهم، مما كان يؤدي في كثير من الحالات إلى الانحسار في التقديس.

ويمكن رصد الظاهرة نفسها في كتب "البانتاتوك" والأبوكريف اليهودية التي تبنّت بعضها النصرانية. وقد استمر هذا الخط في الحضارة الغربية المعاصرة إذ يلحظ استمرار البحث عن الأبطال لإرسائهم نماذج تحتذى وصب سمات شخصياتهم الأساسية في المناهج التربوية. غير أن هذا النهج كذلك لم يحقق لغياب الاستبصار بحقيقة الإنسان السوي ودوره الكوني إلا نتائج جزئية.

تقديس أم حرمان من ثمرات النبوة؟!

ساهم اعتقاد طوائف كثيرة من النصارى بأن المسيح ابن الله(!) في حرمانهم الكلي أو الجزئي من التأسي بنبي الله عيسى عليه السلام، إذ كيف يُتَأَسَّى بمن هو ابن الله؟! فكان هذا الاعتقاد متيحًا لهامش غير قليل من راحة

الضمير -ولو في حالة المخالفة لتعاليم المسيح عليه السلام- عند إنسان حضارة "Christendom" على حد تعبير "مارشال هودسون" لأن ذاك ابن الله، وإذا أخطأ الإنسان العادي في اتباع جوانب من تعليماته فلا حرج(!) الأمر الذي حاول القديس "بينيديكت" استدراكه في قانونه التربوي المشهور "Code dé St Benedict"، غير أنه لصرامته الشديدة كان غير ذي قابلية للتحقق خارج بعض الأديرة المحدودة جدًّا.

ويمكن رصد القطائع نفسها بين النبي والأتباع -وإن بشكل مغاير- في ديانات أخرى بسبب رفع النبي فوق مصافِّ البشر؛ بل وربما إلحاقه في بعض الأحيان بمصاف الآلهة؛ مثل ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ﴾(التوبة:٣٠).

الإسلام وردم الهوة بين المتأسي والمُتأسَّى به

حين نبحث إشكال التأسي في القرآن المجيد وفي السنة النبوية المطهرة نجد تمَحورا حول المحاور الكبرى الآتية:

١- النبي بشر عبدٌ لله مثل البشر، غير أنه اصطُفي بعلم الله ليوحَى إليه: ونجد ذلك في آيات كثيرة من كتاب الله منها قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾(الكهف:١١٠) وقوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَرًا رَسُولاً﴾(الإسراء:٩٣).

وقوله عز من قائل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾(الفرقان:٢٠).

وتثبيتًا لهذه الحقيقة قال ﷺ: "أجلس كما يجلس العبد وآكل كما يأكل العبد، فإنما أنا عبد"[٥٦]. وقال عليه الصلاة والسلام: "إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد"[٥٧]. وقال ﷺ منعا لأسباب إنتاج الفجوات السابقة[٥٨] بين الأنبياء والمؤمنين: "لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم"[٥٩].

وعمومًا فإننا نجد في القرآن المجيد التأكيد على عبودية الأنبياء عليهم السلام، سدًّا لكل ذريعة قد تؤدي إلى إحداث هوة بين النبي والمؤمنين. فقال ﷻ حكاية عن المسيح ؑ: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ۞ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾(مريم:٢٩-٣٠)، وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾(ص:٣٠)، وقال عز من قائل: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾(ص:٤١).

٢- التأسي في القرآن المجيد: يتم بالنظر إلى النبي المثال، فبالنظر إلى الحال ثم العمل على الانتقال من الحال إلى المثال. قال تعالى في معرض الكلام عن نبيه إبراهيم ؑ وعن أتباعه الخُلَّص: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ

---

[٥٦] شعب الإيمان، للبيهقي (١٠٧/٥).

[٥٧] أخرجه ابن ماجة في سننه، كتاب الأطعمة، باب القديد، رقم:٣٣١٢.

[٥٨] فالنبوة مؤسسة واحدة تتكامل لبناتها ويستدرك اللاحق منها بمنهجية التصديق والهيمنة ما كان في السابق ليخلص البناء في النهاية كاملاً شاملاً حجة ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾(النساء:١٦٥)، ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾(البقرة:٢٨٥).

[٥٩] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، بَابُ قَوْلِ اللهِ ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾(مريم:١٦)، رقم: ٣٤٤٥.

أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ﴾(الممتحنة:٦). وقال ﷻ عن خاتم النبيين سيدنا محمد ﷺ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾(الأحزاب:٢١).

فالأنبياء إذن مثال هاد لمن قام في قلوبهم الشوق والتوق إلى ما عند الله ﷻ وتجلى هذا الشوق وذاك التوق بالذكر الكثير له ﷻ. والأنبياء هم الوحدة القياسية المرجع التي تمثل حالة السواء الشاهدة التي ينبغي أن يرصد من خلالها الحال لكي يتم العمل العالم المهتدي على نقله إليها. فهو إذن شوق وتوق وذكر كثير ونبي شاهد وعمل دؤوب عالم ففضلٌ من الله كبير مع وجوب الانتباه إلى العقابيل الحائلة دون هذا الإنجاز الضخم (التأسي) الذي عليه يقوم تحصيل السعادتين في النشأتَين بالتوكل على الله تعالى.

٣- النبي شاهد وشهيد مُؤَيَّد: النبي هو الوحدة القياسية الشاهدة التي تمثل حالة السواء في المجال الإنساني والتي بالنظر الواعي إليها يتم التعرف على الاختلالات التي في هذا المجال جمعا وإفرادًا. بذلك يحصل إمكان العمل على ردها إلى حالة السواء، وتلك نعمة من الله جُلَّى؛ حتى إذا تمت إفادة الأمة من النبي ﷺ فإنها بدورها تصبح وحدة قياسية على الصعيد الاجتماعي والحضاري يمكن التعرف عليها من خلال التعرف على الاختلالات في هذه الأصعدة.

ومن ثم يُمكِّن هذا التعرف من العمل على ردها إلى حالة السواء[٦٠]، وهذا هو ما يتجلى في قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ

---

[٦٠] يلاحظ أن حالة السواء في كتاب الله نسق مفتوح آخذ بعين الاعتبار للخصوصيات والسياقات، وهو ما نرجو بعون الله تفصيل القول فيه في بحث لاحق.

الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاَكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾(الحج:٧٨) وفي قوله ﷻ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(البقرة:١٤٣).

وحتى يكون النبي بعد اصطفائه لهذه الوظيفة التكوينية الخطيرة قادرًا على الاضطلاع بها، يكون إنعام الله بالتأييد. قال تعالى في معرض الكلام عن الرسل عامة ومن اتبعهم من المؤمنين: ﴿كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ۞ لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾(المجادلة:٢١-٢٢).

وقال ﷻ عن نبيه عيسى ؈: ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾(المائدة:١١٠). وقال تعالى عن نبي الختم ﷺ: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾(الأنفال:٦٢).

كما أن النبي لهذا القصد -قصد أن تمثُل فيه الوحدة القياسية الشاهدة- يُصنع ظاهرًا وباطنًا على عين الله، وقال ﷻ عن نبيه موسى ؈: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾(طه:٣٩)، وقال تعالى: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾(طه:٤١)، وقال ﷻ عن خاتم النبيين: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۞ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ۞ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ۞ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾(الشرح:١-٤)، وقال ﷺ في هذا المعنى: "أدّبني ربي فأحسن تأديبي"[٦١]. فكانت النتيجة في حقه ﷺ هي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(القلم:٤).

---

[٦١] فيض القدير للمناوي (١/٢٢٤).

ومن أجل ذلك كان اتباعه والتأسي به ﷺ هو المرقاة إلى مرضاة الله ومحبته. وقال عز من قائل: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾(آل عمران:٣١).

نحو استئناف التأسيس المنهاجي لعلم التعامل مع آثار النبوة

إن مكونات علم التأسي منتشرة بفضل الله في سجلات السنة النبوية المطهرة ومجامع التفسير ومصنفات علم التزكية والتصوف وكذا في كتب الفقه والأصول ولا تحتاج إلا إلى الجمع والمنهجة.

فالآيات المباركة في كتاب الله الكريم قد ألقت الأنوار حول الصفات المحورية للأنبياء والرسل وفي مقدمتهم إمامهم وخاتمتهم سيدنا محمد ﷺ. كما أن المصنفات في الشمائل النبوية وفي دلائل النبوة قد ألقت الأضواء على شهادته ﷺ وعلى هديه عليه الصلاة والسلام. كذلك، فكتب السيرة عامة قد حاولت رصد حياته الشريفة ﷺ بدقائقها وتفاصيلها، فحصلت عندنا بحمد الله مجامع ما تحتاج إلا إلى التثمير والتوظيف.

ويمكن تبيُّن المعالم الكبرى لعلم التأسي على المستويين الفردي والجماعي كما يأتي:

١- الوحدة القياسية على المستوى الفردي: لقد ساد بين المسلمين في الأزمنة الأخيرة من تاريخهم، على خلاف ما كان عليه الأمر في عهد الصحابة الكرام ﷺ، التعامل التبرّكي مع آثار ودلائل النبوة وشمائل النبي ﷺ وسيرته العطرة عليه الصلاة والسلام. وفي ذلك خير كثير في ذاته، غير أنه لو شُفِع بالوظيفية لكان الخير أعم وأتم، ونقصد بالوظيفية هنا أن يتم طرح الأسئلة العملية على آثار النبوة من أجل تبين أوجه الشهادة النبوية

في مجال مخصوص، وتحديد منهجية الرد إلى الوحدة القياسية.

وهي أسئلة لا يمكن طرحها بطريقة سليمة إلا من لدن العالمين بالمجال قيد الدرس، إذ العلم بالمجال هو الذي يمكّن من تلمس مواطن الهدي النبوي فيه للتأهيل الناجم عن استتباب التضاريس المعرفية والمركبات المفاهيمية والأنساق القياسية ذات الصلة بالمجال في أذهان المشتغلين به، مما لا ينتج إلا بطول الممارسة للبحث في مجال معين، والتعاطي مع المشاكل المنهجية التي فيه.

ففي التربية مثلاً، لن يكون أقدرُ على مساءلة آثار النبوة في هذا المجال من التربويين، لمكابدتهم له ولمعاناتهم البحثية داخله، معاناة تنشئ الشوق والتوق وكذا الاستعداد لوجدان الحلول.

وهل أقدر على استجلاب الدرّ من أعماق البحار ممن يعرفه ويعرف قيمته؟! وأجلى مثال على ذلك في مجال التربية محاولة الجواب عن السؤال المؤرّق الذي مفاده: من هو الإنسان الأمثل الذي ينبغي أن يكون القطب الجاذب للمناهج والبرامج التربوية بحيث تتغيَّى الوصول بالخاضعين للعملية التربوية إلى أفقه، دونما خشية من آثاره المضادة؟

وإذ إن البشرية اليوم تعيش في حيرة بهذا الخصوص من جراء توهم عدم التوافر على مثال حي خلو من النقائص، فإن أهل الاختصاص ـ بدعوى الوظيفية -يحاولون النظر في ما هو متعارف على كونه مشروعًا مجتمعيًّا لاستخلاص مختلف الاحتياجات في الموارد البشرية ثم لتصيير تيسير هذه الاحتياجات وتوفيرها أهدافًا تربوية تسكب في البرامج التربوية وتبدع مناهج تربوية وتُصمَّم لتحقيقها.

وإذا علم أن المشاريع المجتمعية نفسها ناتج التدافع بين موازين

القوى في المجتمعات فإن الأمر يصبح أكثر تركيبًا وتعقيدًا. فالأقوى والأكثر نفاذًا هم الذين يصوغون معالم المشروع المجتمعي ويشكلون العقول لقبوله، وذلك عن طريق خماسي: الإبستيم والأكاديم والاقتصاد والسلطة والإعلام.

فالإبيستيم الذي يجمع بين الرؤية للعالم "الكوسمولوجيا" والأطر المرجعية/البرادكمات (Paradigma) واليطوبيا والمنهاجية. إما أن يكون وليد -انطلاق استنباطي من الوحي- أو توليد فلسفي مقولاتي نسبي حر، أو إملاء متحكم "نومونكلاتورا" يفرض ما يريد مثل ما نقل عن فرعون في كتاب الله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾(غافر:٢٩). وجلي أن النمط الأخير هو السائد في عالمنا بألطف الطرق وأدقّها أحيانًا، وبأصفقها وأعنفها أحيانًا أخرى.

فبما أن الأكاديم يأتي في الدرجة الثانية ضمن النمط الإملائي التحكمي بخلاف النمط الاستنباطي من الوحي والنمط الفلسفي المقولاتي النسبي الحر حيث يكون الإبيستيم متفرعا عن الأكاديم، بما أن الحال كذلك في النمط الإملائي التحكّمي، فإن الفرد المتحكم أو الجماعة المتحكمة تكون هي المنتجة للإبستيم والفارضة له على الآخرين. وهذا لا يُخلي بحال ساحة الخاضعين من المسؤولية. يقول ﷻ: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ۞ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ ۞ فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلاَئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ۞ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾(الزخرف:٥١-٥٤).

ويأتي دور المكون الاقتصادي الذي يكون عمومًا بأيدي فارضي

النوموكلاتورات بتصيير الأكاديم في وضع التابع حتى في عين كينونته، إذ التمويل للجامعات ومراكز البحث والأبحاث التي تُجرى فيها يصبح مشروطًا بالسير في سياق الإبستيم السائد، رغم أن الحق مع موسى عليه السلام!

فيقع الأكاديم في التنظير لأنماط التوجهات والسلطة المادية، والمعنوية والدساتير، والقوانين، والوسائل المُمَكّنة من حماية وتنزيل الإبيسْتيمات السائدة فهي حماية متبادلة بين السلطة والإبيستيم المسخر للأكاديم.

ليرفد الأكاديم بعد ذلك الإعلام بحمولاته الداعمة الداعية؛ إذ لن يُنتِج الأكاديم في هذه الحال إلا التوجهات والرؤى المتفرعة عن الإبستيم الحاكم.

فهذه حلقة مفرغة محكمة قادت وتقود العالم نحو أزمات صفيقة. وآية إفراغها وإحكامها أن المشاريع المجتمعية التي من المفروض أن تستهدي بها علوم التربية في وضع البرامج والمناهج التربوية لن تمنح سوى هذا الهدي التحكمي المُفرغ للإنسان من إنسانيته.

ومن هنا فإنه لا سبيل للخروج من هذه الأزمة إلا بالتعرف على الإنسان الشاهد -الوحدة القياسية- الذي يمثل حالة السواء، والذي من خلال التعرف على بنائه النفسي والشخصي والقصدي يمكن الشروع في العمل على إنتاج العلوم الوظيفية والمناهج العملية الممكّنة من ردّ الاختلالات إلى حالة السواء. وهنا الدور المحوري الخطير لوظيفة النبوة ووظيفة الذكر الذي تأتي به متى ما حلَّ الرشد في التعامل معهما والتأسي بهما.

فالتعرف على حالة السواء -وكما تقدم- يمكّن من تجريد المثال التفصيلي الذي ينبغي أن يشمّر -من خلال البرامج والمناهج- للسيبالمتربِّين نحوه بغير عِوَج ولا أَمْت، وهذا مضمار -في العلوم التربوية- للبحث والإبداع فسيحٌ خصيب.

ودائمًا في علاقة بالوحدة القياسية على المستوى الفردي فإن علم النفس وعلم النفس السلوكي، وعلم التحليل النفسي كلها علوم تعاني الأمرَّين لغياب العلم بماهية حالة السواء، ولا شك أن أهل هذه المجالات إن أعملوا عقولهم ووجداناتهم لتجريدها من آثار النبوة، فسوف يحلُّون إشكالات أليمة ومكلِّفة.

إن إنعام الله بأن تولَّى ﷻ في مرحلة الختم بذاته العليَّة حفظ الذكر: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(الحجر:٩)، فحفظت بذلك آثار النبوة المنيرة، واستمر إمكان التعرف على النبي الشاهد وعلى حالة السواء من خلاله.. إن هذه النعمة الجُلَّى إن شكرت بحسن التوظيف والتثمير، ولم تُكفر بالإنكار والاستهتار لَمِن شأنها أن تهدي العالمين إلى مستقبلات أكثر إشراقًا.

٢- الوحدة القياسية على المستوى الجماعي: لقد عانت البشرية كثيرًا على الصعيد الاجتماعي من آثار الجهود الخارصة لتبيّن معالم وسمات العمران البشري الأمثل، كما عانت عبر تاريخها من إملاءاتِ وتحكماتِ المستبدّين أفرادًا وجماعات. وقد كانت الذعائر والتكاليف باهضةً، إذ كم قُدّم ويقدّم من الأبرياء الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً حطبًا لهذه المشاريع اليوطوبية، ليتبيّن بعد حين أنها لم تكن سوى سراب يباب، ولات حين مناص، وما الحالة السوفياتية منّا ببعيد.

وبما رحمة من الله تعالى فقد جعل ﷻ الوحدة القياسية على المستوى الاجتماعي تتمثل في المجتمع النبوي حيث تمكن النبي الخاتم ﷺ من جعله بهداية الله وتوفيقه يَنُثُّ كله بالهداية للتي هي أقْوم فضاءً وعمرانًا وإنسانًا ووظائف ومراكز وعلائق.

وقد كان البدء بأن تم تغيير اسم مهاجر الرسول الخاتم ﷺ من طَيبة ويثرب إلى المدينة -بألف ولام التعريف- ليفهم أن العمران الشاهد كان هو ذاك.

ولئن تكلم الفلاسفة عن المدينة الفاضلة وتاقوا إلى التعرف على الوحدة القياسية بهذا الخصوص، فإن النبوة -بأمر الله وفضله- قد أنشأتها واقعا حيًّا نابضًا حفظت معالمه المركزية رغم كل التفريط والتقويض الذي يَبْدُر مثله عن البشر.

فالنبي الخاتم ﷺ قد زرع آيات الوحي وعلاماته وبصائره في نفوس أصحابه الكرام ﷺ، فَانْدَهَقَتْ منها إلى واقعهم لتكون هاديات خالدة للمحجة البيضاء التي لَيلُها كنهارها ولا يزيغ عنها إلا هالك.

إن في كتاب الله كما في سنة سيدنا رسول الله ﷺ البنيات الوافرة على السُّلَط والمراكز والأدوار و التدبيرات والوظائف والعلائق والنماذج والأخلاق والقيم التي ينبغي أن تَشْخَص في المجتمع الشاهد؛ في حالة السراء وفي حالة الضراء، في حالة الشدة وفي حالة الرخاء، في حالة السلم وفي حالة الخوف وكذا الحرب واللأواء[٦٢]، مما ليس ينتظر إلا

---

[٦٢] وما أروع الصورة المشرقة التي يعرضها كتاب الله لمجتمع المدينة الشاهد وهو بعد في طور التكوين في مثل قوله تعالى من سورة الحشر: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾(الحشر ٩-١٠). وفي سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والفرقان والطلاق والمجادلة وغيرها غرر بهذا الصدد لا تنتظر إلا التجلية المتجددة. ولعل تنبه الإمام مالك بن أنس الأصبحي ﷺ إلى هذه الحقيقة بشكل عام كان

العقول المتمرسة الخبيرة لطرح الأسئلة المنهجية من أجل رفع صرح علم التأسي على الصعيد الاجتماعي.

وجب ختاما التنبيه إلى بعض الأسس المهمة من أسس علم التأسي وآكدها:

١- أن يعلَم المتأسّي حيثيات السياق الزماني والعمراني الذي يوجد فيه، وحيثيات سياق المتأسى به ﷺ الزمانية والعمرانية والبيداغوجية(٦٣).

٢- أن يعلَم المتأسي الفروق الأنتروبولوجية والثقافية والعُرفية وغيرها بين السياقين حتى إذا ساءل في أي مجال من المجالات، استدمج هذه الفروق ليكون التنزيل سليمًا، ولا يخفى ما يقتضيه هذا من جهد بحثي ممنهج.

٣- أن يستدمج المتأسي العلم بالمقاصد العامة للنبوة، رحمتها وجمالها وشرائعها حتى لا يفرط في الأصول لحساب الفروع أو يقدم ما من شأنه أن يؤخَّر أو العكس... وهذا داخل ضمن فقه الموازنات والترجيحات. وقد قام علماء الأمة جزاهم الله خيرا بجهود وضيئة في هذه المضامير.

٤- أن يستحضر المتأسي وجوب النظر في المآلات، واعتبارها حتى

وراء افتراعه لأصل من أصول مذهبه المبارك، حيث جعل "عمل أهل المدينة" أصلاً من أصول التشريع لما تضمنه هذا المجتمع الشاهد من هاديات لن تتكشَّف كل حقائقها إلا عبر الزمن. كما علم أهل المدينة أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ لتنبُّهِه إلى أهمية حفظ هذه الوحدة القياسية الاجتماعية في مرحلة التكوين حتى تثبت أركانها، كان قد نهى الصحابة رضوان الله عنهم عن مغادرة المدينة المنورة حتى يستتبّ البناء وتُحفظ الشهادة، فلم يتمكنوا من مغادرتها إلا بعد وفاته ﷺ.

(٦٣) لأنه ﷺ جاء معلمًا للناس ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾(البقرة:١٥١). فوجب أن يؤخذ هذا الجانب التعليمي أيضًا بعين الاعتبار حين التأسي.

لا يكون جالبا لمفاسد على نفسه ومحيطه من حيث يريد جلب المصالح، وكثيرا ما يحصل ذلك إذا أغفل البعد المستقبلي في التنزيل.

٥- كما أن من آكد الشروط أيضا وجوب المقاربة التكاملية التي لا تهمل جانبا من الجوانب أو تطغيه، بل تحرص على حضورها ومراعاتها جميعا بشكل مقدّر متوازن.

وبدون مراعاة هذه الشروط فإنه لا يمكن تفعيل وظيفة ودور الشهادة كما جاءت في مثل قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(البقرة:١٤٣).

بقيت الإشارة أخيرا إلى أن في تراثنا جهودًا مباركة وجب استئنافها في هذا الاتجاه لعلماء أفاضل هم بسبق حائزون تفضيلاً مستوجبون من أمتهم ثناءها الجميل، كأمثال القاضي عياض السبتي في "شفائه" والشاطبي في "موافقاته" و "اعتصامه" وابن القيم في "زاد المعاد" والصالحي في "سبل الهدى والرشاد" وشاه ولي الله الدهلوي في "الحجة البالغة" وبديع الزمان سعيد النورسي في "رسائل النور" وعبد الحي الكتاني في "التراتيب الإدارية في الحكومة النبوية" وغيرهم ممن وجب البناء على جهودهم وتثميرها.

كل ذا دون فقدان الاستبصار بأنه رغم كل ما يمكن أن يبذل في مجال علم التأسي، فإنه يبقى مجالا متجددا بتجدد الأزمنة والأمكنة والأحوال والأعراف والعادات. ويرحم الله الإمام السهيلي إذ سَمّى سيرة رسول الله ﷺ: "الروض الأُنُف"[٦٤]. والحمد لله رب العالمين.

---

[٦٤] أي الروض البكر الذي لم يُدخَل قط!

المبحث التاسع:

نحو منهجية معرفية للدراسات القرآنية

القرآن المجيد هو النص المؤسس الذي انبثقت واندهقت من بين ثناياه الحضارة الإسلامية، وهي حضارة قد غيرت صفحة الكون إلى غير رجعة؛ حيث أضحت حضارة، وثقافة، ومنهجَ حياة مستمدًا من هذا الكتاب الكريم.

نحو منهجية معرفية للدراسات القرآنية

القرآن المجيد هو النص المؤسس الذي انبثقت واندهقت من بين ثناياه الحضارة الإسلامية، وهي حضارة قد غيرت صفحة الكون إلى غير رجعة؛ حيث أضحت حضارة، وثقافة، ومنهجَ حياة مستمدًا من هذا الكتاب الكريم، الذي جاء بمعايير جديدة، وأحدث نقلات منهجية بعيدة الغور في كينونة الإنسان، وواقع هذا الإنسان.

كما أن المعرفة قبل نزول القرآن المجيد، كانت أمرا تولده العقول في نظر الناس، لكن مع القرآن المجيد أصبحت هذه العقول تعقل ما تستكشفه من خلال النظر إلى البصائر ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾(الجاثية:٢٠)، وإلى الآيات الموجودة في الآفاق وفي الأنفس ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(فصلت:٥٣). وهذا المنهج الذي لربانيته يبدو متفهَّما ومُدرَكا من قبل الإنسان، كان له أثره العميق في إحداث مجموعة من القطائع مع المناهج المعرفية التي كانت سائدة قبل نزول القرآن الكريم.

وقبل التفصيل في محددات المنهجية المعرفية للدراسات القرآنية، لابد من الحديث عن طبيعة هذا القرآن الذي نريد أن ندرسه؛ فنحن نعلم أنه كتاب الله المتعبد بتلاوته المعجز بلفظه الذي يبدأ بقوله تعالى: ﴿بِسْمِ

اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۞ اَلْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(الفاتحة:١-٢) وينتهي بقوله سبحانه: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾(الناس:٦)، وهو الذي أنزل على قلب سيدنا رسول الله ﷺ ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ۞ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾(الشعراء:١٩٣-١٩٤)، والتعريفات كلها تتمحور حول هذه المحاور، وهي تعريفات بفضل الله -وعلى سنة التعريف في الحضارة الإسلامية- جامعة مانعة ميسّرة.

وأول الدرر التي يركز علماؤنا عليها بهذا الصدد، هي أن القرآن المجيد بما أنه قول الله الذي خَلق كل شيء، فإنه قول لهذا الإنسان الذي خُلق بحسب استعداده، وبحسب متطلباته ومتطلبات واقعه، وإذا كان الأمر كذلك من لدن الذي يعلم من خَلق ﴿أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾(الملك:١٤)، فإن هذا القول يكون كأكمل ما يمكن الطموح إليه، وهو أمر قد قرره الإمام الغرناطي الأصل ابن عطية -رحمه الله- في مقدمة تفسيره الرائعة "المحرر الوجيز"[٦٥]، فكتاب الله ﷻ يتنزل بحسب تطلب هذا المخلوق وواقعه وخصائص كل ذلك، هذه قضية أولى.

القضية الثانية، أن القرآن المجيد قد جاء من لدن من أحاط بكل شيء علما، وإذا كان هذا القول قد قيل أزلا من لدن من قد أحاط بكل شيء علما، فإنه لا يمكن أيضا إلا أن يكون على وجه الكمال، وفي الناعوس الأعلى (والناعوس من الموج هو أعلاه)[٦٦] كما يقول ابن الطيب

---

[٦٥] انظر مقدمة "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز" لابن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ) دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

[٦٦] في الحديث: إن كلماته بلغت ناعوس البحر، قال ابن الأثير: قال أبو موسى كذا وقع في صحيح مسلم وفي سائر الروايات قاموس البحر، وهو وسطه ولجته، مادة: نعر، "لسان العرب" لابن منظور، دار صادر ببيروت، طبعة جديدة محققة، (٢٩٨/١٤).

الشرقاوي رحمه الله.

وهذا ما تدل عليه بوضوح آيات كثيرة من كتاب الله تعالى منها قول الله ﷻ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾(يوسف:٣). وهناك التفات عجيب لأحد المفسرين بصدد هذه القضية في قول الله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾، حيث قال: هبوا أن شخصا عاش مائة سنة بوعي وبحضور ذهن، وجرب من هذه الحياة ما جرب، ثم بدأ يقص عن هذه الحياة وعن بعض معالمها، كيف سيكون قصصه؟ وكيف سيكون قوله؟ وما هي قيمة العصارة التي سوف تندهق من لسانه؟ سوف يكون هذا القصص لاشك قصصا رائعا، هذا باعتبار طول اللبث والمكث في هذه الحياة الدنيا. فكيف إذا كان هذا الرجل الذي عاش مائة سنة بوعي وبحضور وبنباهة، وكان من أذكى الناس ومن أدقهم ملاحظة، ومن أقدرهم على التجميع، وعلى التأثير، والإمساك بتلابيب المعاني، واقتناص شرائدها، كيف سيكون قوله؟ سيكون لا محالة كأروع ما يكون، فكيف إذا كان هذا الذي عاش مائة سنة بنباهة، وبحضور بديهة، وأطال التجربة، ثم كان ذكيا قوي الملاحظة؟ كيف إذا كان هذا الشخص أيضا عميق التأمل؟ وكان له هذا التوق على أن ينظر في القضايا لا ظاهرا، وإنما باطنا أيضا لكي يلتئم في نظره اللباب مع الصدف الباب، كيف سيكون قصصه؟ وكيف إذا كان القائل هو الله ﷻ الذي هو الأول، والآخر، والظاهر، والباطن، كيف سيكون هذا القول إذا كان هو القول الفصل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟ لا غرو أن هذا القصص أحسن القصص. ولله المثل الأعلى.

ثم يمكن أن ننطلق من هذا المستوى الاستعدادي إلى مستوى آخر

وهو الآتي: إذا كان هذا القول وهذا القصص أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني ﴿اللّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾(الزمر:٢٣)، ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾(الزمر:٥٥)، كيف إذا كان هذا القول مضمّخا بالرحمة وبالودّ، كيف لا وهو تنزيل الودود اللطيف الرحيم الذي يريد بالناس المنزل إليهم هذا القرآن اليسر، ولا يريد بهم العسر﴿يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾(البقرة:١٨٥).

ثم كيف إذا أضفنا إلى هذه الأبعاد كلها أن هذا القرآن شفاء ورحمة ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(الإسراء:٨٢)، وكيف بعد هذا كله إذا أضيف إلى هذه وتلك أن هذا القرآن المجيد مكنون إذ كان ولايزال وسيبقى مستودع حقائق الحقائق في هذا الكون، منذ بدايته وإلى نهايته، وكان مستوعبا لكل ما كان، وما هو كائن، وما سوف يكون، وما لم يكن، ولو كان كيف كان سيكون من تجارب بني آدم؟ لاشك أن هذا القول فعلا قول ثقيل لا يعتريه خفيف[٦٧]، وهو قوله سبحانه: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾(المزمل:٥).

فإذا تأكد عندنا أن هذا القول ليس بالقول العادي، ولا كقول أي قائل، وإنما هو قول خالق القائلين كلهم من أول الدنيا إلى أن تنصرم، وبعد ذلك نظرنا إليه باعتباره فرقانا، أي يعطي الإنسان الفيصل بين الخطأ والصواب، وبين الحق والباطل، وبين الحسن والقبح، وبين الصلاح والفساد، وبين الشدة واللطف، إلى غير ذلك من الأمور التي يمكن أن نرسم أوساطها بجلاء من خلال الاستمداد من القرآن الكريم. فإنه سوف يتجلى لنا بما

[٦٧] كان مالك –رحمه الله– يقول: من سئل عن مسألة فينبغي له قبل أن يجيب فيها أن يعرض نفسه على الجنة والنار، وكيف يكون خلاصه في الآخرة، ثم يجيب فيها.

لا يذر شكا أن هذا القرآن المجيد بالإضافة إلى فضله العظيم، كتاب في قمة الوظيفية، وفي غاية النفع للإنسان فردا واجتماعا.

القضية الثالثة، التي نريد أن نختم بها الحديث عن طبيعة هذا القرآن المجيد، قضية تنتمي إلى باب عزيز على كثير من علمائنا، ولاسيما الشغوفين منهم بفنون القول، حيث إن النظر في هذا القرآن المجيد من الزاوية البلاغية، نظر فيه شجون.

ولا شك أن الذي يقرأ القرآن المجيد من مدخل الجرْس أو من مدخل الفواصل، أو من مدخل الاختصار، أو من مدخل الالتفات، أو من أي مبحث بلاغي أو بديعي أراد أن يدخل منه، سوف يقضي العجب كيف أن الحرف يُرتّب، والكلمة تُرتّب، والجملة ترتّب، والمعنى يرتّب، والسورة تُرتّب، في نسقية معجزة، تُزري بجمالية الماس الأصفى؛ لأن الأنوار التي تبثها هذه المفردات بحروفها، وبفواصلها لا يمكن أن يحيط بها وصف واصف أبدا.

فإرادة الإنسان، وقدرة الإنسان، حين تقترن بالطين، وتريد نحته، وتريد أن تجعل منه شيئا يذكر، فإن أقصى ما يمكن أن تصل إليه أن تصيّر هذا الطين تمثالا، لكن حين تقترن إرادة الله ﷻ بالطين فإنها تصيّره إنسانا ينظر إليك ويقول لك، ويعارضك، ويوافقك، وينصحك، وقد يثور في وجهك إذا لم ترد أن تنتفع بهذا النصح. إنسانا مبدعا له قوله، وله توقيعه، وله إحساسه. وكذلك حين تقترن إرادة الإنسان بالكلمة والحرف تصيرهما شعرا ونثرا، بيد أن إرادة الله ﷻ حين اقترنت بالكلمة وبالحرف فإنها صيّرتهما قرآنا.

وإن المقارنة بين الإنسان والقرآن لهي دون حق القرآن المجيد، الذي

قد قدَّر له قائله اللبث بين ظهراني الخلق والعباد إلى أن يأذن بغير ذلك ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(الحجر:٩). أما إن نحن نظرنا من هذه الزاوية إلى الخرائط وإلى المعاني المَخمَلية التي يمكن استعراضها بالنظر إلى القرآن المجيد فإننا لن نفرغ من قريب.

من الكتاب المستبين إلى الكتاب المبين

بعد النظر في طبيعة القرآن المجيد من حيث إنه عصارة الأكوان، ومن حيث إنه أحسن الحديث، ومن حيث إنه أحسن ما أنزل إلى البشر، فإن من الأمور التي تصلح جسرا نخلص به من المبحث الأول إلى المبحث الثاني، قول الله ﷻ عن كتاب موسى عليه السلام، وهارون عليه السلام: ﴿وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ﴾(الصافات:١١٧)، وقوله سبحانه عن هذا القرآن: ﴿طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾(النمل:١)، فما الفرق بين الكتاب المستبين والكتاب المبين؟

الكتاب المستبين أوحي به في مرحلة لم يكتمل فيها بناء النبوة الذي عبّر عنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم بقوله في الحديث الصحيح، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "إن مَثَلي ومَثَلَ الأنبياء مِن قبلي كمَثَل رجُلٍ بَنَى بيتًا فأحسنه وأجْمَلَه إلا مَوْضِعَ لَبِنةٍ مِن زاويةٍ، فَجعَل الناسُ يطوفون به ويَعْجَبون له ويقولون هَلَّا وُضِعَتْ هذه اللَّبِنَةُ، قَالَ ﷺ: فأنا اللَّبِنَةُ وأنا خاتِمُ النَّبِيِّين"[٦٨]. وكان هذا الوحي الذي جاء مصدقا لما بين يديه، ومهيمنا عليه، خاتمة الوحي وجامعه، والذي لا يتنكر لما قبله، بل يصدق على ما هو أصيل أثيل فيه، ويهيمن عليه بهذا الانفتاح على كل

[٦٨] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب خاتم النبيين ﷺ، حديث رقم: ٣٥٣٥ (١٨٦/٤).

زمان، وكل مكان، وكل إنسان إلى أن يرث الله الأرض ومن وما عليها.

فإذن الفرق بين الكتاب المستبين والكتاب المبين، أن الكتاب المستبين جاء لقوم مخصوصين، وفيه هدى ونور يحكم به النبيئون، كما قال الله ﷻ في حق التوراة: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾(المائدة:٤٤)، وكما قال سبحانه في حق الإنجيل ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾(المائدة:٤٦). لكن القرآن الكتاب المبين جاء لكي يبقى إلى أن يرث الله الأرض ومن وما عليها مصداقًا لقوله ﷻ: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾(المائدة:٤٨).

فما هي إذن خصائص هذا الكتاب المبين؟ وما هي مناهج التعامل معه؟ وهذا ما سنحاول الاستدلال عليه فيما يأتي.

نحو علم منهاجي في التعامل مع القرآن الكريم

من خصائص الكتاب المبين، أنه كاشف للحياة وللأحياء، وللحقائق التي يكون الإنسان مستعدا لكي يكتشفها. فالقرآن المجيد فيه، وكما يقول المربون، القدر الأعلى من البيداغوجية، أو من الديداكتيك، وهناك حقائق قد لا يكون الناس في استعداد لتقبلها في بعض الأزمنة، وفي بعض الأوقات، كما وقع لابن العربي المعافري (ت ٥٤٣هـ) والذي أثر عنه قول

جميل نقله لنا البقاعي وغيره، قال: "وقد ظهر لي أن هذا القرآن المجيد كالقول الواحد، وكالخبر الواحد، وأنه يتصل أوله بآخره، فلما لم نجد لهذا العلم حملة، ورأينا أكثر الخلق بأوصاف البطلة، طويناه، ورددناه، وجعلناه فيما بيننا وبينه تعالى"(٦٩).

إن هذا التكشف الذي يتكشف به القرآن المجيد عبر الزمن، وبحسب استعدادات الناس، وإن كان هناك من الناس في كل عصر من يفتح الله لهم أبواب بعض الاستبانات فيظهر لهم ما يظهر قد يصرّفونه وقد يطوونه، وربما يجزّئون ما يظهر لهم جزءا جزءا لكي يمرروه بحسب ذوقهم وبحسب استعدادهم، وهو قول الله ﷻ: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الحشر:٢١)، ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾(الرعد:٣١)، هذه القوة المكتنزة في القرآن المجيد، هي القوة التي يحتاج إليها عالَم مثل عالَمنا اليوم في هذا الزمان، أكثر من أي زمان مضى.

فالقرآن الكريم فيه هذه القابلية لأن يفسر الحياة والأحياء للناس، وأن يظهر لهم هذه السنن وهذه الحقائق، ولكن بحسب قوة المستمِد الذي يستمد من القرآن المجيد، وهو استمداد له آدابه وله قواعده؛ منها الآداب النفسية، والأسس العلمية، وكذلك صلاح وصفاء هذا الإقبال، ففي مجال التعاطي مع هذا الكون الذي يحتوشنا، نجد أن الإنسان يُجري حواراً مع هذا الكون من خلال طرح الأسئلة عليه، وتلقّي الأجوبة منه، وتحويل هذه الأجوبة إلى أسئلة مرة أخرى، وهي أسئلة تُطرح على الكون في

---

(٦٩) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي (٣/٣٦٩).

المختبرات، وفي صوامع البحث العلمي.

وهذا الحوار هو الذي يُخرج لنا كل هذه الأمور التي ننتفع بها اليوم، ولكنه حوار يقوم على الإيمان بشيء جازم، وهو أن هذا الكون قد بني وفق نسق، وأن فيه قوانين تحكمه، وأنه ليس فوضى، فأول اكتشاف قد حرر طاقة الإنسان الإبداعية، ومكنه من القراءة المثمرة في الكون، والحوار المثمر معه، هو إيمانه بأن هذا الكون نسق، وأنه مبني على علل، وأنه ليس فوضى، وأنه منظم، وأن وراءه مقاصد، ووراءه حكمًا يسميها البعض حكمة الطبيعة، ويسميها أهل الإيمان بحكمة الله ﷻ الذي قد أودع هذه المقاصد، وأودع هذه الحكم في خلقه الذي هو الكون، وكلما استحرّ الحوار بين الإنسان والكون إلا وأعطى هذا الكونُ خيراتِه للإنسان، وخيراته عطاء غير محظور لقوله ﷻ: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾(الإسراء:٢٠)، فالكون لا يفرق بين مؤمن ولا كافر، ويعطي لمن يحاوره، وعنده هذه القدرة على العطاء إلى حين ﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾(البقرة:٣٦)، لأن هذا الحين سوف ينسخ ﴿وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ ۝ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾(الانشقاق:٣-٥)، وقوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝ وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝ وَقَالَ الإِنْسَانُ مَا لَهَا ۝ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾(الزلزلة:١-٥)، والوحي المقصود في هذه الآية الكريمة، وحي جديد بعدم التسخر، ولذلك يقول الإنسان ما لها؟ لماذا لا تعمل هذه السنن؟ والجواب هو، أن هذا وحي جديد نسخ الوحي القديم بالتسخر.

فإذن حوار الإنسان مع الكون بهذا الحرص، مع استبطان أن هذا

الكون نسق منظم، هو الذي يمكّن الإنسان من أن يُجريَ هذا الحوار في احترام للأبجد الكوني، واللغة التي يفهمها الكون، بحيث يصوغ أسئلته بها، وإلا فإن الكون يرفض إجراء الحوار، ومن ثم يتأبّى على التسخّر، ولذلك نجد أن هذه العلوم التي أثمرتها هذه القراءة في الكتاب المنظور ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾(العلق:١-٢) هي التي أعطت علوم التسخير من إلكترونيك، ومن سبيرنطيقا، وطب، ومن علوم المجرة إلى علوم الذرة.

كذا الأمر بالنسبة للقراءة في الكتاب المسطور ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(العلق:٣-٥). وهي القراءة التي نجد الإمام محمد بن إدريس الشافعي (ت ٢٠٤ هـ) كان كَلِفًا بها حين كان مهتما مغتما باكتشاف دليل القياس؛ حيث قرأ القرآن وختمه مرات، يقوم به الليل، ويتبتل به إلى الله ﷻ، سائلا إياه جل وعلا أن يفتح له بدليل القياس، فما كان يتبين له، ويعاود الكَرَّة، يتحاور، وينظر في القرآن إلى أن ظهر له أن الدليل الذي يصلح أن يُستدلّ به على القياس هو قول الله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾(الحشر:٢)، وكذا الأمر بالنسبة لدليل الإجماع، وعدد من الأصول التي ضمنها في كتابه التأصيلي الرائد لعلم أصول الفقه "الرسالة". وهو ما أثر عن إمام دار الهجرة مالك بن أنس الأصبحي (ت ١٧٩ هـ) في مواضع متعددة، وهو حال الإمام ابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) في التفسير، وغير هؤلاء من الأئمة كلٌّ في مجاله، وكل في بابه.. حوار مستمر مع القرآن المجيد، وهذه هي علوم التيسير، أخذا من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾(القمر:١٧).

وحين كف الحوار في واقعنا الحضاري مع الكون للأسف، رأينا

أننا أصبحنا نستهلك المنتجات التي ينتجها غيرنا؛ لأن علوم التسخير وكما سبقت الإشارة إلى ذلك، رهينة بالقراءة في الكتاب المنظور، وأصبحنا عالة على ما كان عندنا قبلا، قبل أن نحتك بهذه الحضارة التي استمرت في حمل المشعل الذي استلمته غلابا من عندنا، واستمرت في هذه القراءة وفي هذا الحوار، توظيفا للكشوفات التي حصلت قبلا بناء عليها وإضافة إليها. فحين كف الحوار مع الكون في عالمنا، وفي فضائنا الحضاري، أصبحنا عالة على ما كان. فحين تغيب علامات الاستفهام، يغيب المنهج، لأن الذي يشي بالمنهج ويكشف عن وجوده هو التساؤل، وهو ما يبرز في قوله سبحانه﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۞ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۞ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾(النبأ:١-٣) وتستمر التساؤلات إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾(النبأ:١٧) حيث تختم الحياة بيوم الفصل، يوم القيامة، مما يعني أن التساؤل وجب أن يكون مرافقا للإنسان إلى أن تنقضي حياته، نصوصنا اليوم فيها عقم من حيث علامات الاستفهام، وهو مؤشر على الحالة التي يوجد عليها الحوار مع الكتابين في عالمنا اليوم.

شروط المُحاوِر

والذي يستطيع أن يحاور القرآن المجيد في موضوع مخصوص، لابد أن تكون تضاريس عقله قد نحتت، ونقشت، لتكون قادرة على إجراء الحوار في ذلك الموضوع، فمثلا لا يمكن أن نتصور أن الذي سوف يستخرج بعض معالم المنهج التربوي في القرآن المجيد سوف يكون من خارج علماء التربية؛ لأنه لن يلتقط الإشارات التربوية العميقة والدقيقة الموجودة في القرآن المجيد، إلا من قد نقشت تضاريس عقله بحسب

مقتضيات هذا الفن، وأصبحت عنده الردود الأفعال التي تجعله ينتبه إلى هذه الإشارات الموجودة بخصوص التربية في القرآن المجيد.

لكن المشترك بين هذا الذي سوف يحاور القرآن المجيد في علوم التربية، وذلك أو تلك الذي أو التي سوف تحاور القرآن المجيد في علوم البيئة، أو الذي سوف يحاوره، أو تلك التي سوف تحاوره في مجال الاجتماع، أو في مجال المناهج، أو في مجال السياسة، أو في مجال السبيرنيطيقا، أو في أي مجال من المجالات، لا يمكن إلا أن يكون ذا أو ذات خلفية في هذا الباب لكي يكون الاستعداد للحوار، وبهذا تنفتح أمامنا فعلا آفاق متعددة متنوعة ومتكاملة في آن بين كل هذه الفئات، ولكن في قدر مشترك ينطلق مما تقدم، أي العلم بطبيعة القرآن المجيد، وكذلك الاستمرار في الحوار مع القرآن المجيد مع استجماع الوسائل المُمَكِّنة من ذلك، وهذه الشروط قد نص عليها علماؤنا في مظانها كالإمام السيوطي (ت٩١١ هـ) في "إتقانه"، والإمام بدر الدين الزركشي (ت ٧٩٤ هـ) في "برهانه" بكلام جامع، ومانع، يعتبر المنطلق للتعامل البنّاء مع القرآن المجيد، والذي من خلاله سوف يتمكن الإنسان من القيام بوظيفته؛ والتي هي نقل الهداية للتي هي أقوم الكامنة في القرآن الكريم إلى دنيا الناس، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾(الإسراء:٩).

وهذا التقرير وحده لو أننا أعملنا فيه الفكر، واجتهدنا لفهم أبعاده، لرأينا أن ثمة اختلالا ما، فلو أننا تساءلنا سؤالا أوّلا، انطلاقا من تقرير الله تعالى ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾(الإسراء:٩)، وإذ أن هذا تقريرٌ إلهي، فهل يمكن أن يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه؟ هل يمكن

تصور حالة لا يهدي فيها هذا القرآن للتي هي أقوم؟ بالطبع لا. وإذا كان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم، هل حالنا اليوم ينطبق عليها أنها التي هي أقوم في كافة المجالات؟ وما هي المجالات التي يمكن أن نزعم أنها داخلة في التي أقوم؟ وما هي المجالات التي يمكن أن نقرر أنها ليست داخلة في التي هي أقوم؟ وما هي معايير ذلك؟

ولا شك أن عددا من المعارف، وعددا من العلوم التي تفتّقت ذات اليمين وذات الشمال، علوم من شأنها تمكيننا من أن نبدأ في علم منهاجيّ جديد، فقط من خلال آية سورة الإسراء، مثل أن نحدد معايير التي هي أقوم في كل مجال على حدة، وأن نستدرك التخلف والتراجع عن التي هي أقوم، لكي نرجع إلى التي هي أقوم.

فإن نحن بنينا على هذا الأصل، ونظرنا إلى حال الدراسات القرآنية في هذه المجالات، ونقصد المجالات التساؤلية، سوف نتبين أن الدراسات ليست فيها بعدُ الحركية المطلوبة، ولا هذا النبض الذي تحض وتحث عليه هذه الآية. فرغم أن بين أيدينا الكتاب المحفوظ الذي يهدي للتي هي أقوم، فإننا متخلفون عن التعامل معه بهذا الاعتبار، نحمد الله ﷻ أن رب العزة: ﴿بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾(الجمعة:٢)، فكانت التلاوة التي هي مستوى من مستويات القراءة؛ لأن القراءة من قَرَأ يَقرأ، جَمَع يَجمَع، وهذا الجمع فيه كل المستويات التي يمكن تصورها من مستويات الوجود ومراتبه.

مستويات منهجية القرآن المعرفية

حين نتحدث عن منهجية القرآن المعرفية نستحضر مستويات هذه

المنهجية، ومحدداتها، وهي كالآتي:

المستوى الأول: وهو مستوى القراءة، وفعل القراءة في عالم الإنسان وفي دنياه أصبح -بحمد الله- ممكنًا بإقدار الله ﷻ لهذا الإنسان على هذه القراءة. وتجلّي هذا الإقدار في الجانبين المنظور والمسطور، كان من خلال تلقي الكلمات ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾(البقرة:٣٧) وتعليم الأسماء﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾(البقرة:٣١).

هذا الإقدار هو الذي يمكّن الإنسان من تفصيل وتفكيك المجملات؛ بحيث يستطيع أن يأتي إلى مجمل ويفكِّكه، وكلُّ جزء ينتج وينجم من هذا التفكيك يكون قادرًا على إعطائه اسمًا، فيضبطه في مكانه من خلال هذا الاسم، وهكذا يستمرّ في التفكيك، ويكون بعد ذلك من خلال هذه الصور والمعالم الأسمائية قادرًا على التركيب، أي إنها قراءة في اتجاهين: تفكيكًا وتركيبًا، قراءة قد أصبحت ممكنةً بسبب هذه القدرة على التسمية.

المستوى الثاني: وهو مستوى التلاوة، أي الاتباع، والتِلْو من الإبل، الفصيل[٧٠] الذي يتبع أمّه. والتلو[٧١] من الخيل كذلك هو الذي يتبع أمه الجذع[٧٢]، ونقول تتالت الخيل إذا تبع بعضها بعضا. وهو المعنى

---

[٧٠] الفصيل: ولد الناقة إذا فُصِل عن أمه، "لسان العرب"، مادة: فصل (١٨٨/١١).

[٧١] التلو: ولد الشاة حين يفطم من أمه ويتلوها، والجمع أتلاء. والأنثى تلوة، وقيل: إذا خرجت العناق من حد الإجفار فهي تلوة حتى تتم لها سنة فتجذع، وذلك لأنها تتبع أمها. والتلو: ولد الحمار لاتباعه أمه. النضر: التلوة من أولاد المعزى والضأن التي قد استكرشت وشدنت، الذكر تلو. وتلو الناقة: ولدها الذي يتلوها. والتلو من الغنم: التي تنتج قبل الصفرية. "لسان العرب"، مادة: تلا (٢٣٥/٢).

[٧٢] الجذع: الصغير السن، وأما الجذع في الخيل فقال ابن الأعرابي: إذا استتم الفرس سنتين ودخل في الثالثة فهو جذع، وإذا استتم الثالثة ودخل في الرابعة فهو ثني، "لسان العرب" مادة: جذع (١٠٣/٣).

الذي يتضح في قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۞ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاَهَا﴾(الشمس:١-٢)، والذي يتلى هنا هو نور الآيات البينات، فسيدنا رسول الله ﷺ قد تلا الآيات في سياقه الذي هو المدينة المنورة، ورسم المنهج الذي به تكون القراءة، وتكون التلاوة، في استحضار للتمايزات المكانية والزمانية والذهنية التي لها تأثيرٌ وجب أن يؤخذ بعين الاعتبار، وقد سجل ﷺ حالة الحكمة؛ أي وضع الشيء في موضعه. فقراءاته ﷺ كان يقرأها باعتباره حالة السواء؛ فهو الإنسان الذي يشكل الوحدة القياسية، أي الحالة الأكمل الممكن تصورها في بني آدم عليه الصلاة والسلام، وهو الإنسان الكامل الممكن الذي تبلورت فيه كل الفضائل، وكل المزايا، ومن هذه المزايا؛ والتي تُبين صلاحية حالة السواء، وتخرجها من الأحدية إلى المحمدية، كونه ﷺ بالمؤمنين رؤوفًا رحيمًا: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ۞ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾(التوبة:١٢٨-١٢٩)، وهو ما تؤكده أيضًا الآية الكريمة: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾(آل عمران:١٥٩)، فالخروج من الأحدية إلى المحمدية، من لدن الإنسان الكامل الذي يشكل الوحدة القياسية ﷺ، هو الذي يجعل هذا التنزيل، وهذه التلاوة، تكون بحسب مقتضيات الرحمة، وبحسب مقتضيات الرأفة سيرا بسير الضعيف من أمته ﷺ[٧٣]، ورفعا برفع الحرج عن ذوي الحاجة منها.

---

[٧٣] إن عدم استبانة الوحدة القياسية أضحى يسبب مشكلاً مزمنًا وخطرًا للعالمين، والذين طفقوا يبحثون عن الأبطال، ويتساءلون من هو البطل الذي يتبعونه؟ فتتعدد الدروب، وإذا بالإنسان يصبح في أمر مريج، لا يعرف من يتَّبع، وبمن يقتدي، ولا بمن يتأسّى؟

ومن رحمة الله ﷻ أن أرسى لنا نموذج الإنسان السوي في أعلى حالات السواء والكمال، وهو سيدنا رسول الله ﷺ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ﴾(الأحزاب:٢١)، والتأسي ليس هو الاقتداء؛ وإنما هو النظر إلى المتأسى به، وأن تعلم سياقه الذي يوجد فيه، وأن تنظر إلى نفسك، وإلى سياقك، ثم تحاول أن تتمثل على الوجه الأكمل بما وقّعه في واقعه هو، وبحسب مقتضيات هذا السياق، وأن تأخذ بعين الاعتبار الفوارق التي قد تفرض ذاتها في سياقك أنت.

هذا على الصعيد الفردي، أما على الصعيد الجماعي، فالتلاوة، هي ما تم في يثرب، فكانت آنذاك تسمى يثرب، وكانت تسمى طيبة، لكن النقلة التي أحدثها سيدنا رسول الله ﷺ، بإذن الله، تكمن في أنه صَيّر هذا المكان هو "الوحدة القياسية الاجتماعية"، فأصبح اسمها بتسمية منه ﷺ، "المدينة"، بالألف واللام؛ أي أنها نموذج المدينة التي ينبغي أن يُستلهم، وينبغي أن يُنظر في معالمه، ويُؤخذ الهدي بخصوص الاجتماع البشري منه ومن خلاله كي يتم توقيعه. فإذن المدينة المنورة وحدة قياسية على الصعيد الاجتماعي، ولذلك فإن التلاوة التي تلاها ﷺ للآيات بين ظهراني الناس في حاله، وفي أسرته، وفي مجتمعه، تشكل منهج التلاوة الأمثل، والأكمل، الذي ينبغي أن يُستلهم، وهذا لعمري عمري الله روض أنف لم تطأه بعد الأقدام الكافية، وقد وجب!

المستوى الثالث: هو المستوى الذي سماه الله ﷻ ترتيلاً، والترتيل هو النضد، وهو الصفّ، وهو التنسيق في كل المستويات. والفم الرّتِل، هو

الفم الذي قد انتضدت أسنانه[٧٤]. والترتيل لا ينحصر فقط في المستوى الصوتي، بل ينتقل إلى المستوى المفاهيمي، وإلى المستوى المرجعي النسقي، ثم إلى المستوى التنزيلي، ثم إلى المستوى التقويمي، هذه المستويات يُسلم بعضها إلى بعض فإذا لم ترتل صوتا، لن تستبين ما هو الترتيل لفظا، والترتيل لفظا له مناهجه من دراسات مصطلحية ومفاهيمية وغيرها، دراسة للكلمة في بيئتها، وفي سياقها مع استحضار لضمائمها، ومشتقاتها، والتصنيف، وغير ذلك من الأمور التي تعطيك في النهاية فهما أقرب إلى الصواب للمصطلح القرآني، وهذا بدوره روض أنف، لم تطأه الأقدام الكافية وقد وجب!

المستوى الرابع: وهو المستوى النسقي، (أو الأطر المرجعية)، ويجدر التنبيه إلا أن هذا المستوى يُتوخى به أمر في غاية الأهمية[٧٥]، وهو شأن قد انتبه إليه علامة باكستان فضل الرحمن، حين تساءل قائلا: "لماذا لم نستطع في الفضاء الإسلامي أن ننتج وأن نبلور شيئا اسمه الكسمولوجيا، أو الرؤية الكلية، أو كما يقول الألمان فيلتون شونغ، أي التصور الكلي، والرؤية الكلية، التي قد يطلق عليها البعض: المنظومة الرؤيوية الفلسفية في الإسلام، يقول: لا المتكلمون، ولا الفلاسفة، ولا الفقهاء، ولا الأصوليون اهتموا بأن يقدموا الرؤية الكلية والتي لا شك تبقى فيها الفُرَج

---

[٧٤] الصحاح (١٧٠٤/٤)، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (٣٥/٣)، "لسان العرب" (٢٦٥/١١)، تاج العروس (٢٦٢/١٤)، أساس البلاغة (ص:٢٢٠).

[٧٥] ومن علمائنا الذين اشتغلوا بهذا الشأن، الإمام ابن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦ هـ) ولاسيما في كتابه "الإحكام في أصول الأحكام"، والإمام برهان الدين البقاعي (٨٨٥ هـ) ، وآخرين، يبقى في مقدمتهم بدون منازع الإمام أبو إسحاق الشاطبي (ت٧٩٠ هـ) في عدد من كتبه سيما "الموافقات".

النسبية، والتي يمكن أن تستكمل عبر الزمن، وهذا الأمر كان ينبغي أن يشغَل علماء العقيدة، وعلماء التصوف.."[٧٦] بحيث إن العقيدة لا ينبغي أن نقبل بحال أن تكون شيئا يستظهر فقط، إذ العقيدة تأطير للإنسان في هذه الحياة لكي يكسب في إيمانه خيرا ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾(الأنعام:١٥٨).

ولكي أكسب في إيماني خيرا لابد من الصوى[٧٧]، ولابد من المعالم التي أهتدي بها في هذه الحياة، وعلم العقيدة، كان هو المحضن الطبيعي لهذه الرؤية الكلية، والتصور الكلي، فهي تنبؤنا عمن هو الإنسان في القرآن، وتجدر الإشارة إلى أن ثمة أبحاثا لعلمائنا في هذا الباب، كالذي دبّجه أبو الحسن الحرالي المراكشي (٦٣٨ هـ) في "مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل" وغيره، غير أن هذه الأبحاث لم تشكل الكتلة الحرجة المتوخاة.

فعلم العقيدة كان ينبغي أن يكون، هو المحضن الطبيعي للبحث في هذه الأطر المرجعية، والأنساق القياسية، التي حين تُستجمع بشأن المواضيع المختلفة؛ (الإنسان، الحياة، المجتمع، الآخرة، الدنيا، المال، الفتنة، الهدى، الضلال، الجود، الأنساق المعرفية، التكتلات البشرية، الحركية بين الأمم تداخلا، تناقضا، تنافرا، تواؤما، تواشجا دون ذلك، فوق ذلك) هذه الأطر المرجعية تشكل المفردات التي حين تُؤَثَّل، وحين

---

[٧٦] عن كتابه "الإسلام والحداثة" بتصرف.

[٧٧] الصُّوى: والأصواء الأعلام المنصوبة المرتفعة في غلظ. وفي حديث أبي هريرة: إن للإسلام صوى ومنارًا كمنار الطريق، ومنه قيل للقبور أصواء. قال أبو عمرو: الصوى أعلام من حجارة منصوبة في الفيافي والمفازة المجهولة يستدل بها على الطريق وعلى طرفيها، مادة: صون، "لسان العرب" (٣١٠/٨).

تُجمع، يمكن أن تُحرر لنا طلائع هذه الرؤية الكلية والشمولية، التي يحتاج إليها المسلمون اليوم؛ لأن الفاعلية الحضارية تنطلق من امتلاك رؤية ناظمة عن الوجود، والحياة، والأحياء.

ولا يخفى أن الذين يمتلكون الفاعلية في دنيا الناس إنما يمتلكونها لاستبطانهم رؤية معينة، فمثلا حين تنظر إلى الحضارة الغربية الراهنة، تجد أن عندها دافعية، وإن كانت دافعية نحو مآلات لا يمكن أن نطمئن إليها جميعها، ولكنها دافعية على كل حال، وهي دافعية تأتي من كونهم قد استكملوا رؤية معينة، وتصورات كسمولوجية معينة، مثلا نجد باحثين من أمثال فيبر، ومن أمثال ديدرو، ومن أمثال ماركس، ومن أمثال نيتشه، قد بحثوا في هذه الجوانب التصورية، وتكامل هذه الأبحاث أعطى ما يسمى مركزية الإنسان، ومركزية الإنسان نسق قياسي، وإطار مرجعي يمكن أن يكون مدخلا للتعامل مع علوم السياسة، فيصبح الإنسان لمركزيته، هو مدار العلوم السياسية، ومدار كل ما جاء بعد ذلك من حقوق الإنسان، ومن حريات، وغير ذلك، مما نروج وسطه اليوم في عالمنا، مما هو منفرج، وخارج.

وهذه الرؤية -أي مركزية الإنسان- التي نحن إن رجعنا بها إلى القرآن المجيد سوف نجد بينها وبين الرؤية التي في القرآن المجيد جملة تفاوتات. وهذه التفاوتات وجب أن يتم ضبطها، وهذا الضبط ينبغي أن يكون تعارفيا، وهذا هو بعض ما يمكن أن يفهم من قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(الحجرات:١٣)؛ لأن الحكمة المتعالية الكاملة، منال لا يمكن الاقتراب منه إلا بالتكامل، كما أن الكعبة لا يمكن النظر إليها من أوجهها كاملة ثم السقف، إلا لمن نظر إليها

من مختلف الزوايا، وكذا الحكمة فإن لها هذه الأوجه كلها، وقد فُرض الطواف في الحج، وفي العمرة، لكي تتعلم أن الطواف هو وحده الذي يمكن أن يُطلعنا على الحكمة من مختلف الزوايا، علما أنها مستويات لا تزال أيضا بدورها تحتاج إلى جهود مستأنفة.

المستوى الخامس: هو المستوى التنزيلي الذي استرعى اهتمام مجموعة من العلماء وخاصة العاملين منهم المكابدين، ففصلوا في كيفيات التنزيل، وفرعوا القول في شروطه ومناطات -تخريجا وتحقيقا وتنقيحا- ومقاصده ومآلاته.

وتجدر الإشارة أن ثمة مجموعة من التطبيقات أنجزت بهذا الصدد، والتي يغلب على الظن أن الدافع فيها كان هو الإخلاص، ولكن الإخلاص لم يكن الإحسان مفارقا له في بعض الأحيان، ولله درّ الفضيل بن عياض (ت ١٨٧ هـ) حين قال في حق قول الله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾(الملك:٢) قال: "أحسنُ العمل: أخلصه وأصوبه"[٧٨].

فإذن المستوى التنزيلي وجب أن يبحث فيه بإزاء الإخلاص عن الصواب، وهذا أيضا يفتح المجال أمام دراسات مستأنفة، البشرية اليوم في أشد الحاجة إليها، حتى يكون التنزيل تنزيلا بحكمة. وهذا التنزيل تفرض على الباحث العالم المسلم فيه علوم أخرى يجد لها بهذا المنظور موقعا، وقد كان يتساءل قبل ذلك عن موقعها قبل أن يستدمج همّ التنزيل؛ فتعلم مثلا أن علم مقاصد الشريعة، سوف يمكنك من التنزيل الأوفق، على وجه الحكمة، لمقتضيات التلاوة التي قد انتقلت من اللفظ إلى

[٧٨] انظر "حلية الأولياء وطبقات الأصفياء"، لأبي نعيم الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠هـ) السعادة - بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م (٩٥/٨).

المعاني، إلى الأنساق القياسية والأطر المرجعية، ثم أفضت إلى التنزيل.

وعلم أصول الفقه يصبح له محل أيضا، فيبحث فيه عن الحلول للمشاكل التي تراكمت بسبب طول الركود والخمول، إلى غير ذلك من العلوم التي إذا تم التعامل معها بهذه المنهجية المعرفية لدراسة القرآن المجيد، سوف نجد أنها كلها أجزاء من سورة معرفية جميلة موحدة يمكن -إن شاء الله- أن تعطينا الدافعية المطلوبة لكي نكون أمة لا تكون هملا، ولا تكون من سقط المتاع كما قال القائل.

نخلص من هذا كله، إلى أن العلم بطبيعة القرءان المجيد ووظيفته، يفضي إلى العلم بمستويات التعامل مع هذا الوحي الخاتم، مستويات القراءة، ومستويات التلاوة، ومستويات الترتيل فالتنزيل فالتقويم؛ وهي مستويات يفضي بعضها إلى بعض في تكاملية فذّة، كما يعصم من السقوط في النزول بالكلام الإلهي إلى مرتبة الكلام البشري، فالكلام الإلهي متعال عن الزمان والمكان، لذا وجب التعامل معه بمنهج مستمد من داخله يراعي طبيعته وخصائصه، فتنطلق بذلك القدرات التفسيرية كشفا عن مكنونات الكتاب الكريم عبر الزمن.

فالعلم بطبيعة القرءان المجيد وبمستوياته، يمكّن من الرؤية الكلية المؤطرة لحركة الإنسان فردا واجتماعا، سواء في علاقته مع ربه، أو مع كلام ربّه، أو مع نفسه، أو مع بني جنسه، أو مع محيطه، الرؤية الممكّنة من الإبصار للآيات والاستبصار بها. والتي تقوم وتنبني على أساسها المنهجية المعرفية القرآنية، بكل أبعادها ودلالتها.

نسأل الله ﷻ أن يوفقنا للتعاون على هذا الورش الحضاري الكبير، وأن يلهمنا أن نكون إن شاء الله.

المبحث العاشر:

العلوم الإسلامية

ومقتضيات الاجتهاد والتجديد

من أكبر الإكراهات التي يحياها إنسان القرن الحادي والعشرين، عدم التماهي الكلي بين مظاهر الحياة المعاصرة والمبادئ التي يعتقدها ويكنها في جنانه.. بسبب أن الاقتصاد والتدبير قد سارا في اتجاهات لم يكن يُقام فيها اعتبار للقيم وللأخلاقيات.

العلوم الإسلامية ومقتضيات الاجتهاد والتجديد

العلوم الإسلامية والوعي بالسياق

لا يختلف اثنان اليوم أن من أبرز سمات عالمنا الراهن التركيب والتداخل والسرعة وفداحة وكبر الآثار التي تترتب عن التصرفات بسبب ذلك، ومن هنا فإن من مقتضيات العيش في العصر الراهن القدرة على استيعاب هذه السمات من جهة، ثم القدرة على التجاوب معها بفعالية وإيجابية من جهة ثانية.

ومن أكبر الإكراهات التي يحياها إنسان القرن الحادي والعشرين، عدم التماهي الكلي بين مظاهر الحياة المعاصرة والمبادئ التي يعتقدها ويكنها في جنانه.. بسبب أن الاقتصاد والتدبير قد سارا في اتجاهات لم يكن يُقام فيها اعتبار للقيم وللأخلاقيات؛ بيد أن هذه الأخلاقيات وهذا القيم وهذه المبادئ بقيت كامنة وأحيانا نابضة، في أنفس الناس وفي أذهانهم. وقد استحر النقاش منذ منتصف الثمانينيات من القرن الماضي، حول وجوب إعادة إدخال القيم "ethics" إلى الجوانب الاقتصادية والتدبيرية من أجل رأب هذا الصدع. والسؤال هنا هو: كيف يمكن أن تُدخل القيم، وكيف يمكن أن تُدخل المبادئ والأخلاقيات مرة أخرى إلى الجوانب الاقتصادية والتدبيرية التي تغطي أكثر ساحات النشاط الإنساني الفكري والعملي؟

وفقهاء الشريعة الإسلامية ليسوا في معزل عن هذه الإشكالات، وعن تأثرهم بهذه السمات الحضارية المشتركة والعامة.

ومن هنا فإن ثلاث مشاكل رئيسة تعترضهم اليوم:

المشكلة الأولى: هي كيف يُفقه النص، وما هي آليات وضوابط فقه دينامي متجدد ووظيفي للنص؟ وكيف يمكن التمييز بين الثابت في اجتهادات السابقين وبين ما هو قابل للتحول والتغير؟ وقد سبق أن قال ابن القيم -رحمه الله- في كتابه "إعلام الموقعين": فصل في تغير الفتيا بتغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والعادات والأعراف.. قال: وهو فصلٌ عظيمُ النفع جدا قد دخل على الناس من فرط الجهل به ضررٌ عظيم. فما هي آليات وضوابط التمييز بين الجوانب الثابتة والجوانب القابلة للتجدد في الفقه الإسلامي؟، وكيف يمكن لفقيه الشريعة الإسلامية أن يطور آليات ومنهجيات التعامل مع هذه الجوانب كلها بنفس مقاصدي يروم جلب المصالح ودرء المفاسد باتزان؟

المشكلة الثانية: هي كيف يُفقه الواقع بكل سماته وبكل تمظهراته بالغة التعقيد والتركيب والتشابك، دون أن يكون هناك جور على أي سمة من السمات، احتذاء بقول من قال: ينبغي أن نجعل كل شيء أبسط ما يمكن وليس أبسط مما يمكن، وبأية مناهج وبأية آليات؟ وما هي التكوينات التي يقتضيها كل ذلك؟

المشكلة الثالثة في كيفية تنزيل أحكام النص المطلق المتجاوز المهيمن، بطريقة متوازنة، على هذا الواقع المتقلب المتغير العيني المشخص؛ موازنة بين الأفعال، وترجيحا بين المصالح والمفاسد في ضوء وعي شديد بوجوب اعتبار المآلات والعواقب؛ حتى لا تُجلب مفسدة عوض المصلحة

التي كانت مقصودة، أو تُفوَّت مصلحة أكبر من أجل مصلحة أدنى.

وهو ما يستنبط من قول رسول الله ﷺ، في الحديث الذي رواه إمامنا مالك من طريق عائشة رضي الله عنها والذي فيه أن رسول الله ﷺ قال: "لولا حدَثَانُ قَوْمِكِ بالكفر لَهَدَمْتُ الكعبة، ولَصَيَّرْتُها على قواعدِ إبراهيم"[٧٩]. ففوت عليه الصلاة والسلام هذه المصلحة (إعادة إقامة الكعبة على قواعد إبراهيم) حتى لا يجلب مفسدة هي أرجح من هذه المصلحة؛ أي افتتان الناس. لأنهم لا يزالون مرتبطين بعالم الأشياء، على حد تعبير مالك بن نبي.

غير أن التعامل مع هذه المشاكل الثلاث في أفق حلها لابد له من مقتضيين منهاجيين:

المقتضى الأول: هو المنطلقات التي ينطلق منها الفقيه المسلم؛ أي "الباراديغمات" (Paradigmes) والنماذج المعرفية. فينبغي أن يكون من الواضح أن الفقيه المسلم يريد تحقيق مرضاة الله، وتحصيل السعادتين العاجلة والآجلة للجنس البشري، ويريد إشاعة التكامل بين أفراد المجموعة البشرية، ويريد إشاعة التكامل بين أفراد المجموعة البشرية؛ هذه الأسرة الإنسانية الممتدة. لأنه قد سادت في أزمنة معينة نماذج أخرى فيها من الانسحاق أو الانغلاق ما فيها.

وإن من الباراديغمات والنماذج المعرفية التي يحق للمسلمين أن يفخروا بها: النموذج التعارفي المنطلق من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(الحجرات:١٣). وهو نموذج يسعى بوازعه الإنسان المسلم؛ ذكرا كان أو أنثى، إلى تحقيق التعاون والتكامل بين أفراد

---

[٧٩] أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الحج، باب ماجاء في بناء الكعبة، حديث رقم: ١٠٤.

الأسرة الإنسانية الممتدة. إنه نموذج يتجاوز النموذج المعرفي القائم على مجرد التسامح. فالتسامح يستدمج بين طياته أن هذا الآخر في درجة أدنى ولكن أنا أتسامح معه! أو أخطأ وأنا أتسامح معه! بيد أن التعارف فيه الحاجة المتبادلة والاحتياج المتبادل؛ مما يفسح المجال أمام التكميل والإثراء المتبادلين بين العالمين عوض التنافي والصراع.

المقتضى المنهاجي الثاني: هو تحديد آليات التعاطي مع هذه المشاكل الثلاث، وتبين العلاقة الجدلية بين النماذج المعرفية التي تُشكل المنطلقات وبين الآليات المستعملة من أجل تحقيق الغايات المستهدفة أو الأهداف المتغياة.

فالآليات، رغم ما قد يتبادر إلى الذهن من أنها محايدة، ليست كذلك. فلا يجوز الوقوف فقط مع شرط الفعالية في الآليات، وإنما وجب أيضا أن يتم التأكد من تماديها وتناغمها مع المنطلقات. ومع النماذج المعرفية التي تشكل المنطلقات والمبادئ والقيم التي تحملها حضارة معينة ودين معين.

ولقد يسّرنا القرآن للذكر

رتع الإنسان خلال القرن الماضي في مراتع النسبية إلى الضجر، وعاقر الوجودية إلى السأم، ومارَس طولا وعرضا استقلاليته عن الوحي إلى الملل، وطفق تحت أزِّ حاجاته الفطرية، وتطلباته الفكرية، ومقتضيات العولمة، وسؤالات الهوية، والتمزقات الاجتماعية، والقلق الكوني العام من جراء نماء العلوم والاقتصاد والسياسات، في الأغلب، بعيدًا عن الأخلاق والقيم، طفق الإنسان من جراء كل ذلك يتساءل بحثًا عن مسارات جديدة للحضارة ولعيشه فوق هذا الكوكب فرديا وجماعيا. فطفا

من ثَمَّ الاهتمامُ بالدين وبالوحي وبالروحانيات فوق سطح الاهتمام من جديد، وبرزت أضربٌ من التعامل مع الوحي تختلف سطحية وعمقا، وبساطة وتركيبا، ولطفا وعنفا، لم يزد بعضها الناس إلا خبالا والطين إلا بلة، وشروط عيش الإنسان فوق هذا الكوكب إلا عسرا.

ومن ثم فإنه ينفتح حين طرح سؤال: أية مناهج للاستمداد من الوحي في السياق الإسلامي؟ دربان متكاملان من التفكير على الأقل:

فأما الأول: فينطلق من يقينيات الوحي ذاتها، إذ يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾(الإسراء:٩)، وحالُ المسلمين اليوم ليست بالتي هي أقوم؛ ممّا يفيد حتما وجود اختلال منهجي ومنهاجي في التعاطي مع الوحي والاستمداد منه علمياً وعملياً. تنطرح، طبعا، هاهنا أسئلة أخرى مثل: ما هي "التي هي أقوم"؟ وما مقاييس تحديد "التي هي أقوم"؟ ومن يُحدّد "التي هي أقوم"؟

والحاصل أن الجواب عن هذه الأسئلة الثلاثة جميعها كامنٌ في الوحي ذاته، وليس يقتضي إلا الكشف والتحرير.

ومن الهاديات بهذا الصدد ما يَبرز حينَ تدبر قصص الأنبياء مع أقوامهم المختلفين من تغيّر الأولويات والمقاربات الدعوية والعملية، بسبب تغير الشروط والسياقات والمقتضيات. ومن الهاديات كذلك بروزُ مرحلة الختم بشمولها وعمومها ومرونتها وانفتاحها ومسؤولية إنسانها الكبيرة. كما أن منها قيام تيسير الوحي ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾(القمر:٣٢)، على كونه بناءً آياتيا بصائريا موائما لعقل الإنسان ووجدانه يسهل على الإنسان استنطاقه والتحاور معه صُعُدًا نحو آفاق معرفية ومنهاجية واسعة جدًّا: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾(الواقعة:٧٧)، ومن سمات كرمه هذا العطاء غير المجذوذ.

كل ذا يفيد أن مناهج المقاربة فيها اختلالات لا يمكن، دون تجاوزها، استخلاص "التي هي أقوم" مما يستدعي فتحَ مسارات مراجعات واستدراكات عالمة رصينة لاستئناف مسيرة بناء علوم التيسير وتجديدها.

وأما الدرب الثاني: فهو أننا حين ننظر في القرآن المجيد نجد ضربين من العلوم: علوم التسخير انطلاقا من قول الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الجاثية:١٣)، وعلوم التيسير انطلاقا من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾(القمر:٣٢).

علومُ التسخير تُدرَك من خلال النظر والتفكر ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾(آل عمران:١٩١). وعلوم التيسير يمكن استخلاصها انطلاقا من التدبر: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾(محمد:٢٤).

والملاحظ هو أن علوم التسخير تطوّرت، وعلوم التيسير لم تتطور بالشكل ذاته؛ فعلوم التسخير تطورت بفضل الحوار المستدام بين الإنسان والكون، واجتهاد الإنسان من أجل استخلاص معالم الأبجد الكوني، واللغة التي بها يتم الحوار مع الكون، ممّا أدى إلى انفجار كل هذه العلوم التي نراها اليوم من الصناعات البسيطة إلى السبرنيطقا (la cybernétique) في تعقيداتها الكبرى، وكذلك في مجالات (Synthetic life) أي الحياة الاصطناعية التركيبية.

وتَبرز من خلال النظر في هذا الصوب قضية أخرى، دائما في ارتباط مع عدم تطور علوم التيسير، وهي وجود نبض معرفي رائع عند علماء الصدر الأول من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين... حيث فُتح ملف علوم التيسير، كما رأيناه مع الإمام الشافعي في كتابه "الرسالة"، والإمام

مالك، والإمام أبي حنيفة، والفقهاء السبعة قبل ذلك، حيث برزت بوادر علوم الفقه وأصوله؛ وعلوم القرآن والحديث واللغة والكلام وعلوم أخرى شكلت، بالفعل، مداخل للاستمداد من الوحي، ومن القرآن المجيد.

لكن بعد فترة قليلة من ذلك رأينا انحسارا غير قليل في هذه الجهود وفتوراً في ذاك النبض؛ إذ حصل عجز اللاحق أمام عمل السابق بسبب تعظيم وتعزير في أصلهما محمودين مباركين، غير أن ممارستهما غير الراشدة قد تؤدي إلى عدم التكامل بين مختلف أجيال الأمة وراء أسوتها سيدنا رسول الله ﷺ. وبدأت تبرز عبارات مثل "ليس في الإمكان أبدع مما كان" وأضحت كثير من الجهود إثر ذلك، شروحا لأعمال المتقدمين أو تصنيفا لها أو حواشي عليها أو تذييلا على الحواشي.

مع أننا حين ننعم النظر نرى بجلاء أن ثمة واجبًا دينيًّا يتمثل في التجديد المستمر، وهو الذي يعبر عنه حديث رسول الله، ﷺ، الذي يقول فيه: "يَحْمِل هذا العلْمَ مِن كل خَلَفٍ عُدُولُه يَنْفُون عنه تحْريفَ الجاهلين وانْتِحالَ المُبْطِلين وتأوِيل الغالِين"(٨٠). فالتجديد في علوم التيسير في كل هذه المناحي أمرٌ فريضة على أهل الأمانة من العلماء، غير أننا نجد أن هذه الوظيفة لم يُستمر في القيام بها على وجه الكفاية كما يحض على ذلك هذا النص الكريم وأمثاله.

يسجَّل أيضًا في تاريخنا العلمي بهذا الصدد التباس بخصوص ماهية الفهوم السليمة، حتى كأنه ينطبق علينا قول القائل:

وكلٌّ يَدَّعِي وَصْلاً بِلَيْلَى ... وَلَيلَى لَا تُقِرُّ لَهُمْ بِذَاكا

ممّا يقتضي نهضة لتجريد معالم مناهج الاستمداد من الوحي وتوضيحها

---

(٨٠) رواه الإمام أحمد وصححه، وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٣٥٣/١٠)، رقم: ٢٠٩١١.

بجلاءٍ برهاني يتكامل عبر الزمن حتى تضيق مجالات الالتباس والغموض.

وثمة قضية أخرى، تتمثل في الحاجة الماسة إلى إعادة نَظْم تراثنا حتى يكون سهل المتناول متعقَّل المعنى والمبنى، وينطبق عليه قول رسول الله ﷺ: "قد ترَكْتُكمْ على المحجّة البَيْضاء ليْلُها كَنَهارها، لا يَزِيغُ عنها بَعْدِي إلا هالِكٌ"[٨١]. فالإرث مبارك وغني وواسع، والمؤسف أن نرى شيوع التعامل معه في أغلب الأحيان بمنهج الاستظهار والترداد والتبرك والسرد فقط. والسؤال هو كيف يمكن أن نحقق النقلة من هذه الحالة إلى حالة الاعتبار والوظيفية؟ وهذا، لاشك، سيفرض بدوره سلسلة من المراجعات، ويقتضي جملة من الجهود أَزِفَ أوان القيام بها.

إن التجديد في هذه المناهج هو الذي من خلاله يمكن أن يتم إسهامُ المسلمين وشراكتهُم في تشكيل التاريخ المعرفي والحضاري الكوني، انطلاقا من قوة اقتراح قابلة للفهم وللفحص، متأبّية على الردّ والتفنيد، وإلا فإن هذا التاريخ المعرفي والحضاري العام سوف يستمر في التشكل ونحن غيابٌ هذا الغياب الجزئي.

العلم قبل القول والعمل

الإنسان ووجدانه هما حلقة الوصل بين الوحي والكون وحقائقهما من جهة، وبين ذات الإنسان وواقعه من جهة ثانية. وعليه فإن حسن عيش الإنسان فردا واجتماعا فوق هذا الكوكب يتوقف على ثلاثة أضرب من السلامة والضبط والدقة والفاعلية:

---

[٨١] أخرجه ابن ماجه عن العرباض بن سارية، افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، رقم: ٤٣.

أ- سلامة وضبط ودقة وفاعلية المناهج التي تم بها بناء الفكر والوجدان وهندستهما.

ب- سلامة وضبط ودقة المناهج والمعارف التي يتم بحسبها الحوار مع الكون ومع الوحي والاستمداد منهما.

ج- سلامة وضبط ودقة وفاعلية مناهج وطرائق التجسير بين الفكر والواقع من خلال تنزيل ثمرات ما سلف.

ولئن تساوى الناس في الحق في الأخذ من الكون ومن الوحي وفي الحق في الوعي بهما، فإن تفاوتات كبيرة تقوم بينهم في الجوانب المنهاجية والتصورية والقيمية المعيارية، وهذه التفاوتات هي التي تتجلى في واقع الناس وتحدد مواقعهم في مصاف الأمم.. وفيما يلي من كلمات، محاولة جزئية للوقوف على جوانب من هذه الإشكالية (Problématique).

أ- سلامة وضبط ودقة وفاعلية المناهج والنماذج التي بها يتم بناء الفكر والوجدان وهندستهما:

فالتمثلات والرؤى وأضرب التوق الكامنة، بمثابة المفاعل التصوري الذي يصهر ويصنّف وينظم كل ما يرد على الإنسان من داخله أو يفد عليه من خارجه، وهو مفاعل له أهمية حاسمة في مجالات المعرفة والشعور إذ هو المحدد لطبيعتهما ووجهتهما.

وقد بدأت كثير من الأبحاث المعرفية المعاصرة تولي هذه القضية اهتماما متزايدا، غير أنه لم يبلغ بعد درجة الكفاية التي ينم عنها ويؤشر عليها مدى عبور ثمرات هذه الأبحاث إلى المناهج والبرامج التربوية، وإلى الجوانب الفنية والإعلامية وكذا الإنتاجية. إن إرساء قواعد الفكر وأسس الوجدان وهندستهما يدخل بامتياز في ما نبه إليه القرآن الكريم

حين الحديث لأول مرة تُعلمُ في تاريخ البشرية، عن صناعة الإنسان في كل من قوله تعالى في حقّ موسى عليه السلام: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾(طه:٣٩)، وقوله سبحانه: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾(طه:٤١).

وهي صناعة تتم حسب مناهج ونماذج تختلف من حيث قدرتها على إطلاق طاقات الإنسان، ومن حيث الوجهة التي سوف تضيفها لهذه الطاقات، وهو اختلاف ناجم أساسا عن مدى استدماج هذه المناهج والنماذج للحقائق الموجودة في الكون مرجع الحركة، والوحي مرجع الوجهة، وتناسقها معها.

وقد أدى عدم إيلاء هذه القضية الأهمية اللازمة، إلى أن يكون بناء الفكر والوجدان في كثير من محطات تاريخ البشرية عشوائيا تلفيقيا، أو أحيانا تحكميا، مما أنتج وينتج مشاكل وآفات ليست بالقليلة.

ورغم أن القرآن والسنة النبوية في فضائنا الحضاري غنيّان بالبينات والإشارات الهادية بهذا الخصوص، فإنها لم تُتَلق بشكل كاف ومؤسس، وهو أمر وجب استدراكه.

ب- سلامة وضبط ودقة المناهج التي يتم بحسبها الحوار مع الكون ومع الوحي والاستمداد منهما:

فالكون وفق المنظومة القرآنية مسخر للإنسان، وهو محيط به، متحاور معه باستمرار، حوارَ أمرٍ إذ هو مأمور بمقتضى وحي الله له بذلك: ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾(فصلت:١٢)، ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۞ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾(الزلزلة:٤-٥)، والكون يُجري حواره الدائم مع الإنسان من خلال بنائيته وبيان آياته ومواءمته للإنسان، كما أن الوحي وفق المنظومة نفسها، مُيَسّر للإنسان، مُفصَّل قد صرّفت آياته وبُيّنت ورُتِّلت وفق نضد

تكاملي بديع، وهو كريم يعطي السائل بحسب إقباله واستعداده، فهو إذن بهذا الاعتبار دائم الحوار أيضا مع الإنسان، استشعر ذلك من استشعره وذهل عنه من ذهل عنه.

غير أن هذا الحوار من جهة الكون والوحي شطرُ الحوار فقط، ولا يكمل إلا بشروع الإنسان في الشطر الآخر وهو حواره الواعي معهما، والذي بمقتضاه يسائلهما ويستنطقهما منتجا بحواره مع الكون علوم التسخير التي تُمَكِّن من الحركة للعيش والارتفاق، ومنتجا بحواره مع الوحي علوم التيسير التي تُمَكِّن من الوجهة للسير والاهتداء، ولا رشاد للحركة الفاعلة إلا باقترانها بالوجهة السليمة، وكما أن سلامة وضبط ودقة مناهج الاستمداد من الكون تحتاج إلى تأهيل وهندسة وفق برامج وخطط متنامية عبر الجهد والزمن، فكذا مناهج الاستمداد من الوحي. غير أن الذهول عن هذه المقتضيات في مجال علوم التيسير بالذات، باد للعيان، مما وجب العمل الناجز لاستدراكه.

ج- سلامة وضبط ودقة وفاعلية مناهج وطرائق التجسير بين الفكر والواقع نحو تنزيل سليم لثمرات ما سلف:

لا يخفى أن هذا التجسير أمر عملي إجرائي بامتياز يقتضي وضوحا في عناصره الثمانية، وهي:

١- التوجيه؛ هو الجانب الاستراتيجي التقديري.

٢- التخطيط؛ هو عبارة عن تصميم في مجالات الإنسان والمجال والزمان والإمكان لبيان كيفية تنزيل هذه الاستراتيجيات على أرض الواقع، وبرامج ذلك وما يحف بها من إجراءات وضبط وتدقيق.

٣- التشريع؛ وهو عبارة عن الشرائع والقوانين المؤطرة والميسّرة

والحامية لعمليات التنزيل.

٤- التنظيم؛ وهو عبارة عن كيفية تدبير سائر عمليات التنزيل والموارد البشرية والتقنية والمادية المعينة على ترتيب ذلك.

٥- التعيين للمسؤولين عن هذا التنزيل أفرادا ومؤسسات، وفق مؤشرات وظيفية واضحة.

٦- التمكين؛ فلا معنى للتعيين دون منح الإمكانات المادية والمعنوية المسعفة في القيام بوظائف ومقتضيات التنزيل.

٧- الإنجاز؛ أي لكل ما سلف.

٨- التقويم؛ وهو الذي يمكّن من النظر في ثمرات هذا التنزيل وتطويرها.

وواضح أن هذه المناهج والطرائق تحتاج في عالمنا عامة، وفي عالمنا الإسلامي خاصة إلى مزيد من الضبط والتدقيق والتّفعيل، فنحن هنا أمام آفاق أُنُفٍ لفقه التنزيل، آفاق لم يستمر ارتيادها بشكل كاف، مما وجب أيضا استدراكه في المجالات العلمية والعملية.

إن ما يُستمدّ من الوحي كما من الكون مرتهن بالمعمار الفكري والوجداني للمستمِدّ، وبمناهج الاستمداد، وكذا بمناهج تنزيل ثمرات هذا الاستمداد. وهو ورش ثلاثي لا شك أنه يستلزم في عالمنا الإسلامي أعمالا كثيرة مستأنفة.

نحنُ، علومُنا، والمستقبل

منذ اكتمال نزول الوحي والتحاق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى. عكف المسلمون خلفا عن سلف على كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ تدبرا

وتفكرا واستنباطا واستلهاما باعتبارهما مصدري التشريع اللذين ينبغي أن تدار أمور الحياة كلها وفقا لهدايتهما وإرشادهما.

وقد اختلفت علاقة المسلمين بكتابهم وسنة نبيهم تمثلا وتأسّيا باختلاف العصور والأجيال، فلم تكن الحاجة قائمة على عهد الصحابة ﭭ إلى تدوين العلوم وضبطها وتقعيدها؛ إذ كان العلم سلوكا والتزاما، فلما دعت الحاجة إلى التدوين حين كثر اللحن وتجرأ أناس على النصوص، نهضت همم العلماء لتدوين هذه العلوم، فكانت الكتب والمدونات الأولى المؤسسة في كل علم، ثم تواتر التأليف بعد ذلك شرحا واختصارا واستدراكا واستئنافا للنظر، غير أنه حريّ بالذكر أن النشاط التأليفي المتصل باستئناف النظر، كان هو الأقل.

ولقد كان مدار كل هذه العلوم في البداية على النص نشأة وتداولا، حيث كانت في منطلقها متمثلة له علما وعملا، مما جعلها تنفتح بهدايته على الكون وعلومه وعلى الإنسان ومعارفه وتشيد عالميتها الرائعة الأولى. والتي تجلت فيها فعلا أبرز خصائص الوحي وعكست بقدر طيب نوره وإشعاعه في الهداية والرحمة والعدل والحرية والأمن... كما تجلت فيها أيضا كثير من القيم العليا المزكية للإنسان والبانية للعمران.

وهذه العلوم اليوم على الفضل والخير الكبيرين اللذين فيها، أضحت تُكِنُّ مجموعة من العوائق الذاتية تحول دون استئناف العمل البنائي والتجديدي فيها، ويمكن ترتيبها كما يلي:

أول هذه العوائق، أن علومنا الإسلامية دلفت نحو قُطب التقليد، فحينَ مُورست على الإنسان المسلم مجموعة من الضغوط والتقليصات؛ سواء معنوية أو مادية. وحين استُبدل واقع "قل يا ابن أخي ولا تحقر نفسك"

(الذي كان يُمارس في الصدر الأول حين قال عمر بن الخطاب ﵁ هذه الجملة الرائعة لعبد الله بن عباس ﵄ وكان فتى ساعتئذ)، بواقع صه! بدأنا نرى أن بعض العلماء شرعوا في تبوّء مقامات فيها الإطلاق والكليانية ودعوى امتلاك الحقائق... مما قلص الهوامش النقدية، وضيّق مجالات الاجتهاد، وأدى إلى ظهور عبارات من مثل قولهم: ليس في الإمكان أبدع ممّا كان! وظهور أنماطٍ من التبعية تحت دعوى القداسة في بعض الأحيان. إلى غير ذلك من الفهوم التي حين توضع في غير موضعها وتورد في غير موردها تجعل الإنسان المسلم ينسحب من ساحات الإبداع المباركة نحو ساحات التقليد والانكماش الاستهلاكي لما يُعْرَض! فالإبداع وحرية الفكر صنوان. والإبداع والكرامة صنوان.

في الصدر الأول كنا نجد سلوك الإمام المعلم مع تلامذته فيه التشجيع على القول، وقد تقدم مثال عمر بن الخطاب ﵁. لكن التاريخ ينقل لنا كذلك أن أبا حنيفة كان يُعجبهُ حين تتعالى أصوات تلامذته محمد بن الحسن الشيباني وأبي يوسف وزفر.. كما كان ذلك يعجب الإمام مالك والإمام الشافعي مع أصحابهما... لما كان ينتجه هذا التعاطي من مداولات وسؤالات وأخذ ورد وثمار. حين استُبدل بهذا الواقع واقع آخر فيه الكليانية والإطلاقية، وعدم المشاركة مع الأستاذ في البحث عن المعلومة وصوغها بدل الاقتصار على التلقي غير التفاعلي... بدأت علومنا تدلف نحو التقليد والترداد.

وثاني هذه العوائق، أن هذه العلوم قد انفكت من النص المؤَسِّس، الوحي ومعطياته، فالعلوم في فترة تأسيسها كانت عبارة عن حوار مع الكتاب والسنة للاتصال الوثيق والمبدئي معهما، وهذا الحوار كان

يُعطي بالفعل القابلية لاكتشاف مجموعة من الآفاق، استنادا إلى استثمار المعطيات الموجودة فيهما، واستنادا إلى المقاربة الآياتية للوحي وللكون، ممّا جعل هذا الحوار في الفترة الأولى يُولِّد مجموعة من المعارف المتعلقة بالإنسان والعمران والطبيعة والكون المحيط. ولكن حين كَفَّ هذا الحوار بقيت العلوم الإسلامية منحسرة فيما أنجز خلال تلك الفترات الوضيئة الأولى، دون البناء على مكتسباتها، وقيام اللاحقين بما عليهم هم أيضا من الواجب إزاء هذا الوحي المبارك، وإزاء متطلبات الواقع. وإنه ليتعيّن على المسلمين اليوم استئناف هذا الحوار لسد الثغرات المترتبة عن هذا العطل المنهجي العميق.

وثالث هذه العوائق، أن هذه العلوم قد توزعتها نزاعاتٌ مذهبية خلال بعض الفترات، نزاعات قد أدت إلى سجالات لم تكن دائما إيجابية. حيث تحول النص المؤسس إلى حلبة لاقتناص الشواهد والمبررات السجالية والحجاجية التي يستقوى بها طرف على آخر، أو تعزز بها أطروحة على أخرى ولو على حساب وحدة النص البنائية والسياقية، أو على حساب وظيفة العلم البيانية. الأمر الذي كان له أبلغ الأثر في توجيه حركة تدوين العلوم والتأريخ لها من جهة، وعلى مناهج ومقررات التربية والتكوين التي تلقتها أجيال متتالية في الأمة مما أضعف فكر الوحدة والتكامل على مستوى بنيات العلوم وعلى مستوى قضايا الأمة الاجتماعية والسياسية والثقافية.

ورابع هذه العوائق، أن هذه العلوم، قد تسربت إليها خلال تاريخنا مناهج دخيلة كالمنطق الصوري الأرسطي -مثلاً- ممّا أدخل عليها إفسادا جوهريا من الجانب المعرفي؛ لأن المقاربة الأرسطية تعتبر أن العقل هو المولِّد للمعرفة، في حين أن العلوم الإسلامية تأسّست انطلاقا من النقلة الكبيرة

التي في الوحي، والتي تَعرض العقل باعتباره مكتشِفًا لهذه المعرفة ومستنبطا لها، وشتان بين المقاربتين: مقاربة التوليد ومقاربة الاكتشاف والاستنباط!

وخامس العوائق، أن هذه العلوم غدت في بعض مراحل تاريخها علوما يغلب عليها التجريد والصورية مما جعلها تنأى كليا أو جزئيا عن هموم ومشكلات الواقع والإنسان، وهي ما جعلت إلا لتيسير حياته وإسعاده في معاشه ومعاده. فتاريخنا متصل من حيث انطلاق هذه الدورة الحضارية الإسلامية بالرسول الأكرم ﷺ وبصحبه المنتجبين الذين أسسوا الأنموذج المشكّل للوحدة القياسية؛ أي المعيار وحالة السواء التي وجب ردُّ الأمور إليها في المجالات المعرفية والحياتية. ولاشكّ أن هذا كان وراء كثير من الاختلال في جانب ارتباط العلوم الإسلامية ارتباطا وظيفيا بواقع الإنسان فردا واجتماعا، وهو ارتباط يصعب تصوره إذا لم يتم تجريدُ حالة السواء هذه وتجلية معالم الوحدة القياسية التي تحدثنا عنها، ولم تتم "مَنهَجَة" كيفية التعاطي معهما والاستمداد منهما، بكل الواقعية وكل المرونة اللتين تجعلان هذا الارتباط يجري في إطار منهج قائم على خطوات ثلاث: الخطوة الأولى هي تَمثُّل الوحدة القياسية وحالة السواء، بطريقة علمية بحيث تكون مبوّبةً وممفصلةً وممنهجة. والخطوة الثانية هي النظر إلى الواقع وتحليله، والوقوف على مقوماته ومكوناته وأدواره وسُلطه ومراكزه.. وحين يعي الإنسان واقعه في استحضارٍ للوحدة القياسية ولحالة السواء، تكون الخطوة الثالثة خطوةً تلقائيةً وهي تجاوز الواقع في استلهامٍ لحالة السواء. مع استدامة الوعي بأن هذه الحالة أيضا كانت محكومةً بواقعها وبأسيقتها في ما عدا الثوابت.

فإذا لم تُلحظ الفوارق وأريدَ استعمال القياس بشكل آلي فإن ذلك

سوف يؤدي إلى الخطأ في التقدير. و"مفهوم الأسوة" قائم أساسا على هذا الوعي، ولذلك فثمة فرق بين التأسّي والاقتداء. فالقدوة في القرآن المجيد مرتبطة بالهدى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ﴾(الأنعام:٩٠). أمّا بالنسبة للرسول الأكرم ﷺ فهو أُسوة؛ أي أنك تعي واقعك وتتمثّل نموذجية المتأسَّى به في وعي بالفوارق. وهذا أمر محوري في هذا الباب.

فحين ذهلنا عن هذه المنهجية في التعاطي مع تاريخنا أصبحنا نجعل كل فترات هذا التاريخ نموذجية تتركب بعضها على بعض! وحين لم نُحكم الفصلَ بين الوحدة القياسية (حالة السواء) وبين سائر المراحل، ولم نجعل كل المراحل الأخرى خاضعةً لهذه الخطوات الثلاث التي أشرنا إليها... حدثت أزمة.

وحين اعتقدنا لفترة أن المراد هو الاقتداء وليس هو التأسي حدثت أيضا أزمة؛ لأننا أردنا -في فترات معينة- إعادة إنتاج هذا الواقع بكل حيثياته. في حين أن هذا منالٌ يستحيل؛ لأن الأسيقة الكونية والمحلية والنفسية والفكرية، والأفق المعرفي، كل ذلكم يتغيّر. فلا يُمكن أبدًا أن إعادة إنتاج هذا الواقع بحذافيره، مما أدى ويؤدي لأضرب من الاختلال المضرة بالنص وبالواقع.

وبوعي ما سلف يصبح لتاريخنا حضور استلهامي واعتباري هادٍ، بعيد كل البعد عن أي حضور تأزيمي.

وسادس هذه العوائق، أن هناك إشكالا نجده منسابا في كل فصول تاريخنا العلمي والمعرفي، يتعلق بقضية الثابت والمتحول، وما هي الطريقة والمنهجية التي بها نُمقدرُ Le dosage الثابت ونعرفه ونعرّف حدوده، حتى لا نصادمه ولا نتجاوزه. ثم نعرف ونُمقدرُ المتحوِّل الذي

سيكون موضوعًا للاجتهاد المستأنَف في كل عصر كما نصّ عليه العلماء. حين لم نستثمر الجهد المطلوب واللازم في هذه القضية، وتركناها منتشرة في كتب النابغين من علماء الأمة دون جمع، ولم تُتَلَقَّ الإشارات الكثيرة الموجودة في القرآن والسنة إلى هذه القضية فبقيت غير بينة المعالم حصلت مشاكل كثيرة. وقد أورد ابن القيم -رحمه الله- في كتابه "أعلام الموقعين" فصلا سماه "في تغير الفتوى واختلافها بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد". فنحن الآن مطالبون مرة أخرى بفتح ملف الثابت والمتحول في مجال العلوم الإسلامية... بما يلزم من مقدرة Dosage واتزان وتشرّع حتى نستطيع تجاوز جانب من هذه الأزمات التي نعيشها اليوم.

وهنا وجب الانتباه إلى العائق السابع، والذي يفرض ذاته ويتمثل في قضية البراديغمات؛ أي الأنساق والأطر المرجعية والمركبات المفاهيمية التي تقود عمليتنا التفكيرية والتحليلية، وتؤطر أضرب النظر الذي نستعمله ونوظفه. هذه البراديغمات أمرٌ لم يُعطَ حقه، في أفق تحرير وتجريد البراديغمات الكامنة من جهة وراء العلوم الإنسانية حتى نتعامل معها برشد وفاعلية واتزان، ونجرّد من جهة ثانية البراديغمات الكامنة وراء علومنا ومعارفنا الإسلامية حتى نتأكد من قرآنيتها وسلامتها، حتى لا تبقى علومنا خاضعة لبراديغمات غير سليمة نُضفي عليها سربال القداسة ويكون لها من التأثير السلبي علينا وعلى تاريخنا ما يكون. ومن ذلك إدراك النواظم المنهجية الكلية بين العلوم الإسلامية التي توحدها في أصل انبثاقها الأول وتزيح عنها توهم الاكتمال والشرف والأفضلية والاستقرار.. وتجسر علاقتها التكاملية مع دوائر العلوم الأخرى في ضوء

مقاصد وفلسفات العلوم كما يقرها القرآن المجيد في أبعادها الإنسانية والكونية التواصلية والتعارفية من غير نزوع نحو هيمنة أو استبداد معين.

هذه العوائق حين استحكمت صيرت هذه العلوم كما استقرت بعدُ، في كثير من مناحيها وأبوابها تنسدّ مناهجها دون الاجتهاد والإبداع، مما يستدعي مراجعات في ضوء هذه العوائق بغرض تخليص علومنا من آثارها السلبية، وإزاحة الشوائب العالقة بها وجعلها قادرة وحاضرة في موكب التدافع الكوني الراهن تسهم فيه ولو بمقدار في ظل ظروف وتحولات قاهرة لاترحم المتخلف عنها.

تجديد العلوم الإسلامية: مسار أمة ومصيرها

"ما سماه الله سبحانه في كتابه: فقهًا، وحكمة، وعلمًا، وضياء، ونورًا، وهداية، ورشدًا، فقد أصبح بين الخلق مطويًّا، وصار نسيًا منسيًّا.

ولما كان هذا ثلما في الدين مُلِمًّا، وخطبا مدلهمًّا، رأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب مهما: إحياء لعلوم الدين، وكشفا عن مناهج الأئمة المتقدمين، وإيضاحا لمباهي العلوم النافعة عند النبيئين والسلف الصالحين"[٨٢].

ثمانية قرون ونيف مرت على هذا الكلام المبارك للإمام الغزالي -رحمه الله- (ت ٥٠٥هـ)، وقد قيل هذا الكلام نفسه، وأثيرت معانيه بصيغ متقاربة، قبل صاحب الإحياء وبعده، في اندراج تام ضمن قوله ﷺ: "إن الله يَبْعَث لهذه الأمة على رأس كلِّ مائة سنة مَن يجدِّد لها دِينَها"[٨٣].

وهو كلام يمكن رصده في اللحظات التاريخية التي يكون فيها

[٨٢] الإمام الغزالي، إحياء علوم الدين، (١/٨).

[٨٣] أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المائة، رقم (٤٢٩١)، والحاكم في المستدرك (٥٦٨-٤/٥٦٧). رقم (٧٥٩٢) و(٧٥٩٣).

انفصال بين علوم الدين والنص المؤسس كتابا وسنة من جهة، وبينها وبين المجتمع من جهة ثانية، وهو ما عبر عنه ابن القيم -رحمه الله- (ت ٧٥١هـ) في "مدارج السالكين". حين قال: "سبحان الله! ماذا حرم المعرضون عن نصوص الوحي، واقتباس العلم من مشكاته من كنوز الذخائر؟! وماذا فاتهم من حياة القلوب واستنارة البصائر؟ قنعوا بأقوال استنبطتها معاول الآراء فكرا، وتقطعوا أمرهم بينهم لأجلها زُبرا... درست معالم القرآن في قلوبهم فليسوا يعرفونها، ودثرت معاهده عندهم، فليسوا يعمرونها، ووقعت ألويته وأعلامه من أيديهم، فليسوا يرفعونها. وأفلَت كواكبه النيرة من آفاق نفوسهم، فلذلك لا يحبونها، وكُسفت شمسه عند اجتماع ظُلم آرائهم وعُقدها فليسوا يبصرونها.

خلعوا نصوص الوحي عن سلطان الحقيقة، وعزلوها عن ولاية اليقين، وشنّوا عليها غارات التأويلات الباطلة، فلا يزال يخرج عليها من جيوشهم كمين بعد كمين.."(٨٤). وهو المعنى نفسه الذي نلمسه عند الإمام الشاطبي -رحمه الله- (ت٧٩٠هـ) في "موافقاته" حين يقول: "فإني شرعت في تأليف هذه المعاني، عازما على تأسيس تلك المباني، فإنها الأصول المعتبرة عند العلماء، والقواعد المبني عليها عند القدماء... ليكون لك أيها الخِلّ الصّفي، والصديق الوفي، هذا الكتاب عونا لك في سلوك الطريق، وشارحا لمعاني الوفاق والتوفيق، وليكون عمدتك في كل تحقُّق وتحقيق، ومرجعَك في جميع ما يعنّ لك من تصور وتصديق؛ إذ قد صار علما من جملة العلوم، ورسما كسائر الرسوم. وموردا لاختلاف العقول وتعارض الفهوم. لا جرم أنه قرَّب عليك المسير، وأعلمك كيف ترقى في

(٨٤) مدارج السالكين (١/٥).

علوم الشريعة وإلى أين تسير، ووقف بك من الطريق السابلة على الظهر، وخطب لك عرائس الحكمة ووهب لك المهر"[٨٥].

لكن علامة المغرب الإمام الشاطبي -رحمه الله- يستحضر كون دعوته التجديدية قد تكون مثار انتقاد وتشكيك، فيستبق بهدوء، وتمكن وإيجابية، ونسبية، وتواضع، الاعتراضات ويدحضها بجملة من التحريرات والتقريرات القبلية، بما يشبه المواكبة النفسية لخائض هذه اللجة؛ والتحصين بالحجة، من الشبهات مخمدا منها الضجة، وما أجمل تواضعه ونسبيته واحترازه -رحمه الله- حين يقول: "فإن عارضك دون هذا الكتاب عارض الإنكار، وعمي عنك وجه الاختراع فيه والابتكار، وغرّ الظانَّ أنه شيء ما سُمع بمثله، ولا أُلِّف في العلوم الشرعية الأصلية أو الفرعية ما نسج على منواله، أو شكِّل بشكله، وحسبك من شرّ سماعه، ومن كل بدعٍ في الشريعة ابتداعه؛ فلا تلتفت إلى الأشكال دون اختبار، ولا ترم بمظنّه الفائدة على غير اعتبار، فإنه بحمد الله أمر قررته الآيات والأخبار، وشدّ معاقده السلف الأخيار، ورسم معالمه العلماء الأحبار، وشدّ أركانه أنظار النظّار، وإذا وضح السبيل لم يجب الإنكار، ووجب قبول ما حواه، والاعتبار بصحة ما أبداه من الإقرار، حاشا ما يطرأ على البشر من الخطأ والزلل، ويطرق صحة أفكارهم من العلل، فالسعيد من عدت سقطاته، والعالم من قلت غلطاته.

وعند ذلك فحق على الناظر والمتأمل، إذا وجد فيه نقصا أن يُكمّل، وليحسن الظن بمن حالف الليالي والأيام، واستبدل التعب بالراحة والسهر بالمنام، حتى أهدى إليه نتيجة عمره، ووهب له يتيمة دهره، فقد ألقى إليه

---

(٨٥) الموافقات (٢٥-١/٢٤).

مقاليد ما لديه، وطوقه طوق الأمانة التي في يديه، وخرج عن عهدة البيان فيما وجب عليه، وإنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى.."[٨٦].

التفطن نفسه نجد عنه تعبيرات مباشرة في كتابات بعض رواد العلماء المعاصرين.

فهذا علال الفاسي -رحمه الله- (ت ١٩٧٦م/١٣٩٥هـ)، يقول في النقد الذاتي: "ولقد كان الإسلام رسالة تستمد قوتها من الوحي، وتستجيب في مطامحها لحاجة الفكر والروح، استجابتها لحاجة الجسم الإنساني في حدود الفطرة التي فطر عليها الإنسان، وإذا كان الوحي خاصا بصاحب الرسالة الأول؛ (أي من حيث الإيحاء وتقلبه)، فإن مهمة المواصلة لتحقيق الغاية التي بعث بها. وهي هداية الخلق إلى طريق السعادة في الدارين، لم تنته، ولن تنتهي أبدا، بل أصبحت ملقاة على عاتق من يشعرون بالمسؤولية، وينشدون الحرية من ذوي المعرفة والفكر من المسلمين، وأصبح تجديدها وتغيير أساليبها منوطين بكل رجال الإصلاح الذين يجب أن لا يخلو منهم جيل كي يصلحوا التحريف، ويحقوا الحق، ويزيلوا الزيغ، حتى يعود الفكر الإسلامي غضا طريا كما كان، وهل أدل على هذا من الحديث الشريف الذي يقول: "إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا". وإذا كان هذا الحديث خرج مخرج الوعد الإلهي، فإن له من سنن الدين وطبيعته ما يهيئ المسلمين لتحقيقه... على أن الذي يهمنا هو ما يشتمل عليه هذا الحديث من روح صريحة وضمنية تؤذن بأن الأمة الإسلامية تخضع للتطور كغيرها من الأمم الأخرى، وتنذر بأنه لا تمر مائة عام إلا وتكون في حاجة لبعث

---

(٨٦) الموافقات (٢٦-١/٢٥).

جديد ويقظة ثانية"[٨٧].

بيد أن بحاثة باكستان فضل الرحمن -رحمه الله- (ت ١٩٨٨م/١٤٠٩هـ)، وهو يربط بمنهجية عالية الدقة، أزمة علوم الدين، بالانفصال عن النص المؤسس، يضيف عاملين آخرين هما: الأول: عدم تجريد الرؤية الكلية الناظمة الكامنة في الوحي، ليستهدى بهديها في سائر أعمال العلماء الاستنباطية، والثاني: اختراق الفكر الهلينيستي للعلوم الإسلامية وفي ذلك يقول: "إن النقص وعدم الدقة في مناهج وأدوات العلوم الإسلامية، يرجع أساسا إلى غياب منهجية مناسبة لفهم القرآن نفسه، وقد بات ظاهرا وبينا وجود فشل في مجال استبانة معالم الرؤية الكلية الناظمة والتوحيدية الكامنة في القرآن، فشلٌ عززه الإصرار على التركيز على المقاربة التجزيئية الذرية لمفردات القرآن الكريم وآياته، بمنهج "التعضية"؛ (أي أخذا من قوله تعالى: ﴿جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾(الحجر:٩١)). وقد كانت نتائج هذه المقاربة الذرية للقرآن المجيد، أن الأحكام كانت في بعض الأحيان تؤخذ من آيات ليست أحكامية من حيث قصدها.

وفي غياب تجريد هذه الرؤية الكلية كانت الضريبة في مجال التشريع هي اختراق المناهج الدخلية لسد الفراغ الذي تركه غيابها مما كانت له آثار مدمرة في بعض الأحيان"[٨٨].

قبل الإمام الغزالي -رحمه الله- إذن، وبعده، كابد علماء كثر مسألة تجديد العلوم الإسلامية، فالإمام أبو حنيفة (ت ١٥٠هـ)، والإمام مالك (ت ١٧٩هـ)، والإمام الشافعي (ت ٢٠٤هـ)، وكذا الإمام أحمد (ت ٢٤١هـ)،

---

[٨٧] النقد الذاتي، علال الفاسي، (ص:١٢٧-١٢٦).

[٨٨] الإسلام والحداثة، فضل الرحمن، (ص:٢-٣).

واجهوا مشكلة المنهج في مجال التعامل مع النص والاستنباط منه، ولفيف المحدثين اجتهدوا في مضامير الرواية والدراية، ونخل الدخيل من الأصيل حتى صفّوا ووفّوا، رحمهم الله، وجزاهم عن الإسلام والمسلمين خيرا. والإمام الأشعري (ت ٣٢٤هـ) رام جمع ورصد وتحليل وتأصيل مقالات الإسلاميين، كما حاول بناء إجماع إسلامي في مجال الاعتقاد، وبعده وارثه أبو بكر الباقلاني -رحمه الله- (ت ٤٠٣هـ)، والإمام الجويني (ت ٤٧٨هـ) اشتغل بالتجديد في قضايا الإمامة والمجتمع والحكامة العملية في مجال التعامل مع النصوص الشرعية، والارتقاء بالعلوم الإسلامية إلى الوظيفية، والفقيه ابن رشد (ت ٥٩٥هـ) اجتهد في تبيان ما بين الحكمة والشريعة من اتصال وتجاوز الثنائيات المستحكمة في علوم الدين وعقول المشتغلين بها، بين العقل والنقل، والإرادة والأسباب، كما تطلع إلى معالجة الفقه الخلافي والارتقاء به من ربقة النزاع والتأزيم، إلى آفاق الإيجابية والثراء، كما رأينا جهود مدرسة آل تيمية، وآل المقدسي، في كثير من القضايا المنهجية، ومحاولة العودة إلى الأصول ومنهج الصدر الأول، مع تميز ابن تيمية أحمد بن عبد الحليم (ت ٧٢٨هـ) باجتهادات متعددة ونوعية في الفقه وأصوله، والتفسير، والمنطق، والسياسة الشرعية وغيرها.

كما أن عبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٣هـ) قاد حركة رائدة في مجال التأسيس للعلوم الاجتماعية، وإعادة تشكيل النسق الثقافي الإسلامي، في أفق إخراج عمران إسلامي قادر على استئناف نبضه وعطائه الحضاريين، دون نسيان ذكر رموز آخرين، من أمثال ابن حزم، والباجي، وابن عقيل، وملا صدرا، وشاه ولي الله الدهلوي، والنائيني، والشوكاني، والوزير الصنعاني، والآلوسي، والطباطبائي، وزروق، والأفغاني، وعبد الرحمن

الكواكبي، والسنوسي، والمهدي، وابن باديس، ومحمد إقبال، وبديع الزمان سعيد النورسي، والمودودي، وأبو الحسن الندوي، ومالك بن نبي، وعبد القادر عودة، وإسماعيل راجي الفاروقي، ولويز لمياء الفاروقي، ومنى أبو الفضل، وغيرهم بفضل الله كثير ممن انتقلوا إلى رحمة الله، أو ممن لا يزالون أحياء بين ظهرانينا ولهم كسبهم البارز في هذه الحلبات المباركة.

ولئن كان ثمة من خلاصة، يمكن أن ينفصل بها المرء من مثل هذا الاستقراء الجزئي لمحاولات تجديد العلوم الإسلامية، فهي أن التجديد، ليكون ذا فاعلية ونفع اليوم، فلابد له من جملة شروط:

١- **الاستيعابية**: ونقصد بها الاستيعابية في مجال تمثل العلوم موضوع التجديد، من حيث المعرفة بها نشأة، ومضمونا، ومباحث، وسيرورة، ومقاصد، وثمرات ومشاكل، وبدون هذه الاستيعابية، فيعسُر تصوُّر تجديد مثمر.

٢- **التساؤلية**: وهو شرط يُسلِمُ إليه سابقه، إذ لا يمكن دون استيعابية أن يفضى إلى مرحلة التساؤلية الفاحصة داخل هذه العلوم؛ والمؤدية إلى الوقوف على مدى انبنائها على النص المؤسس وانطلاقها منه وكذا الوقوف على مدى وظيفيتها، وواقعيتها، وعلى أنجع مناهج وأساليب التقويم والتجديد فيها.

٣- **المعرفية**: ونقصد بها الغوص في بُنى هذه العلوم وأنساقها ومناهجها للتأكد من اندراجها في النسق المعرفي الذي جاء به الوحي.

٤- **الوظيفية**: بحيث يتم الحرص على التأكد من مدى خدمة العلوم الإسلامية للإنسان فردا واجتماعا، وإعانته على تحصيل السعادتين في انضباط لضوابط التيسير ووضع الإصر والأغلال، وإحلال الطيبات، وتحريم الخبائث، التي بيّنها الوحي الخاتم (النص المؤسِّس).

٥- **الجماعية:** ونقصد بها وجوب ارتكاز التجديد في مجال العلوم اليوم على العمل العلمي البحثي التجديدي الجماعي التكاملي وذلك لِتَفَرُّع الإشكالات ومجالات الإصلاح داخل هذه العلوم والمعارف، وهو شرط لن يكون تنزيله الاجتهادي ناجعا، إلا إذا توافرت الشروط الأربعة السالفة، مع إضافة أربعة شروط ضرورية أخرى، وهي:

٦- **الانغمارية:** ونقصد بها الانغمار الواعي والذكي، في هموم ومشاكل الإنسان محليا وكونيا لمعرفتها أولا، ثم الاجتهاد ثانيا لوجدان حلول وظيفية وعملية لها، انطلاقا من النسقين المعرفي والقيمي الإسلاميين، مما سوف يعطي للأداء الجماعي روحه ومقاصده ونفعيته.

٧- **الاستشرافية:** بحيث لا يتم الاشتغال بالمهم وتأخير الأهم، وبالمفضول وإهمال الأفضل، كل ذلك في تحديد دقيق للأولويات وهندسة لها.

٨- **الحكامة والتدبير الجيدان**، على المستويات الأكاديمي، والبشري، واللوجيستيكي، والزمني.. مما قد يجر إهماله إلى اضطراب في إنجاز شرط الجماعية. ولا شك أن من مقتضيات ذلك، الشرط الأخير، والذي هو:

٩- **التكوين الأساسي والمستمر**: بحيث يتم بناء مناهج تكوين المكِونين والمكوَنين في ضوء الوعي بكل ما سلف، ليتم بعد ذلك، وتأسيسا عليه تنسيق جهود فرق البحث المنتقاة فكريا ونفسيا ووجدانيا واستراتيجيا ومواكبتها بالتكوين المستمر حتى يكون الأداء بحول الله مثمرا.

إن التجديد في علومنا الإسلامية كان وكما رأينا، دوما حاضرا وبطريقة عضوية عبر مسار أمتنا، تطلبا واجتهادا، كما أن هذا التجديد لاشك، أمر مصيري لها، وجوديا، فيما يستقبل من تاريخها.

عن القيم الدينية والأخلاقية.. والمدنية-الاجتماعية

سوف نكتفي بين يدي هذا الحديث في تعريفنا للقيم بالإشارة إلى ثلاثة أمور:

١- أن مختلف التعاريف للقيم تتحوصل حول كونها مجموعة من القوانين والمقاييس تنبثق عند جماعة ما، وتتخذها معايير للحكم على الأفكار والأشخاص في تمظهرهم الفردي والجماعي والتصرفات والمسلكيات، ويكون للقيم من القوة والتأثير على الجماعة، وما يسربلها بصفة الإلزام والضرورة والعمومية، وأي خروج عليها أو انحراف عن اتجاهاتها يصبح خروجا عن مبادئ الجماعة وأهدافها ومثلها العليا، فالقيم، إذن، هي موجهات السلوك وضوابطه وموازينه، وهي حراس الأنظمة وحامية البناء الاجتماعي ومفعّلته.

٢- أن من القيم ما هو ثابت وهو القسم المتعلق بمرتكزات الهوية، ومنها ما هو ديناميكي؛ إذ يطبع القيم ما خلا العقدية، حركية كبيرة فيما يخص ترتيبها بحسب الأولويات التي تفرضها حاجة المجتمع في سياق حضاري وظرف تاريخي معينين.

٣- إنّنا نعيش، اليوم، وعلى الصعيد العالمي، أزمة انهيار نظم القيم بسبب التغيرات الكبيرة التي أصابت بُنى المجتمعات، وأنماط الإنتاج، وسيولة المعلومات، وهياكل العلاقات الأسرية والاجتماعية والدولية، ومضامين وأشكال القوانين التي باتت تنظم كل ذلك، ممّا زج بالإنسان المعاصر في أنواع متعددة من المعاناة كالإحباط، وخيبة الأمل Frustration، والإحساس بالاغتراب Aliénation، والشعور بالضعف Powerlessness، والمعاناة من عدم الانسجام، ومظاهر الشذوذ في الحياة والسلوك Normlessness.

ولقد أُحِلّت على الصعيد العالمي محل القيم المنهارة، قيم جديدة ذات طابع براغماتي تتسم بنسبية كبيرة جدا بسبب الضعف في المعطيات الناجم عن القصور في البحث والاستقراء من جهة، وعن الافتقار إلى مرجعية صواب ثابتة بالنسبة للأغلبيين من جهة ثانية.

بناءً على ما مر، فإن أي مجتمع يرنو إلى أن يكون له وجود مستقبلي بالنظر إلى موضوع القيم، ينبغي له أن يكون متوفرا على آليات تنظيرية وتربوية واجتماعية.

الآليات التنظيرية: لتمكنه من:

- ضبط معالم وحدود مرجعية المجتمع وكذا منطقها الداخلي.
- ضبط مناهج قراءة المرجعية واستنطاقها والاستنباط منها وبلورة التمثل لها وكذا ضبط مناهج تنقيح هذه المناهج وتفعيلها.
- ضبط مناهج التعرف على الواقع La représentation du réel، محليا، وإقليميا، وعالميا، وكذا ضبط آليات التحسس على التوجهات الكبيرة العارمة Les mégatendances التي تتبرعم فيه لتوظيفها إن كانت إيجابية، أو لاجتنابها إن كانت سلبية، أو لمقاومتها إن كانت مدمرة مخترقة.
- ثم ضبط آليات تفعيل القيم الإيجابية الموجودة وإنتاج الأخرى المفقودة استهداءً بعناصر الضبط المتقدمة.

وهذا يفيد أن الجهات التي تحرك هذه الآليات التنظيرية ليست بالضرورة هي وزارات التربية الوطنية، بل كذلك الجامعات والمنتديات، ومستودعات التفكير Think Tanks، والجمعيات، وهيئات العلماء الخ.

الآليات التربوية والتواصلية: لتمكنه من تعدية هذه القيم إلى أفراده بطريقة فعالة وإيجابية ومقنعة، وتندرج تحت الآليات التربوية المقتضيات الآتية:

- المقتضيات التكوينية.
- المقتضيات المنهاجية.
- المقتضيات الديداكتيكية.
- المقتضيات الحكامية.
- المقتضيات التقييمية.

الآليات الاجتماعية: لتمكن من العبور بثمرات الآليات السالفة، إلى مختلف أنواع العمل العام الذي يتخذ المجتمع ككل ميدانا له.

- العمل الثقافي.
- العمل الجمعوي.
- العمل السياسي.
- العمل الاجتماعي.
- العمل الإعلامي.

فما هي اليوم حدود فعالية وإنتاجية وتناسق وتكامل هذه الآليات؟ وما هي توجهاتنا في تحديد خصاصاتنا بشأنها؟ وما هي إنجازاتنا من أجل تجاوز هذه الخصاصات استراتيجية وتخطيطا وتنظيما وتشريعا وتقويما؟

إن جردا سريعا لسمات الوضع الراهن لنُظمنا التعليمية بخصوص القيم يفيدنا ست إفادات رئيسة:

١- مسألة القيم لا تندرج ضمن البناء التمثلي والتصوري الديناميكي الذي تقتضيه أهمية القيم كما بسطنا خطوطه العامة آنفا.

٢- التوجيهات الواردة بهذا الشأن رغم أنها مهمة لا تتجاوز التعميم إلى التخصيص والتدقيق والأجرأة.

٣- الاستراتيجيات البيداغوجية لا تمكن من تحقيق هذه التوجيهات

الواردة رغم عموميتها بل وربما بسبب عموميتها.

٤- التداخل بين المجالات، المعرفي -العقلي والحس- حركي، والوجداني في التخطيط لتحقيق القيم في فكر وبنية ووجدان المتلقي يجعل من الاضطلاع بهذه الوظيفة أمرا بالغ الدقة والتركيب مما يجعل تنفيذنا لها لا يرقى في كثير من الحالات إلى المطلوب.

٥- الضعف البارز في ضبط التعامل مع الأهداف التربوية المنتمية إلى المجالات الثلاثة المذكورة أعلاه، وخصوصا الأهداف الوجدانية التي لها صلة مباشرة بالقيم، ونلاحظ هذا الضعف في وضع الأهداف وصياغتها، كما في الوسائل الديداكتيكية المتخذة وكذا في المتابعة والتقييم.

٦- القصور الظاهر في بلورة نسق فعال للأنشطة الموازية، والدعامات التقنية المواكبة، سواء كانت سمعية بصرية أم مقروءة مما من شأنه أن يمكن من دعم أداء التخطيط المنهاجي، والعمل القسمي لتركيز القيم في وجدانات وعقول الخاضعين للعملية التربوية.

يبرز أن استدراك ما سلف يقتضي جملة تدابير:

١- وضع تأصيل معرفي أولي للمجال التصوري الذي ينبغي أن يندرج ضمنه زرع القيم في بلداننا.

٢- التجديد في مجال وضع وبناء الصنافات المفصلة للأهداف الوجدانية المصوغة من مختلف القيم التي نريد تركيزها في وجدانات المتلقين وأجهزتهم المفاهيمية في ضوء التأصيل المذكور أعلاه ثم ـ أجرأة هذه الأهداف لتكون قابلة للتنفيذ في مختلف أشكال النقل والاتصال مع وجوب الحرص على التكامل الذي نصصنا عليه سابقا.

٣- وضع سلسلة أدلة تضم مجموعة من التقنيات والأنشطة الملائمة

لهذا المجال، والقابلة للاندراج ضمن تنفيذ الاستراتيجيات التربوية والاتصالية.

٤- تحديد بعض طرائق التقييم لإنجاز الأهداف المصوغة من القيم المراد تركيزها في وجدانات المتلقين.

٥- التنسيق بين كل هذه الأهداف ضمن استراتيجيات عامة لتيسير التنفيذ.

في محورية السند الديني للأخلاق والقيم

يشكل الانفجار المعلوماتي غير المرشَّد، والتلوث، والتكنولوجيات القابلة للاستعمال في مختلف الاتجاهات، والاكتشافات العلمية المتيممة شطر الربح، والمنفلتة من كل كبح، والصراعات الدينية والطائفية والعرقية، والنزعات التوسعية، اقتصاديا، وسياسيا، وجغرافيا، يشكل كل ذلك اليوم، مصادر تأثير كبير على الحياة فوق كوكبنا وما حوله، وقد بات من الضروري التفكير في آليات وإجراءات للحد من الآثار السلبية لما سلف ذكره، ولضبط مناهج الكسب العلمي والاكتشافي ضبطا استشرافيا، حتى توقّع كافة أضرب النشاط الإنساني بحسب النفع، وتتجافى عن الإفساد، ولا يُتصور ذلك في انفكاك عن استحضار وعي قيمي، وأخلاقي وظيفي، مستوعب لمختلف مظاهر العطاء الإنساني، مع التكييف التفصيلي بحسب طبيعة كل منها.. في أفق استخلاص جملة من الشفرات والقوانين التنظيمية، التي تسهم في تيسير تحقيق مقاصد الحفاظ على الضروريات، من دين، وحياة، وكرامة، ونسل، وعقل، ومال، على الصعيد الكوني، مما يعتبر عملا ناجزا بسبب ما بات يتهدد النوع البشري

من مخاطر آزفة.

وهو لاشك عمل ينبغي تأطيره برؤى واضحة، واستراتيجيات ناهجة، وهندسات ناجعة، في مراعاة لما يحف هذا العمل من حساسيات بالغة، مما يستلزم تظافر الجهود بين الحكومات ومؤسسات المجتمع المدني، والعلماء، والمثقفين، والمربّين، والمبدعين، والمشرّعين، وكل المكلفين بالتنزيل تصميما وتنفيذا.

وجب أن يستحضر بهذا الصدد وجود جملة من المقاربات اليوم، لموضوع الأخلاق والقيم، تنظر للأديان والثقافات باعتبارها عوائق دون بلوغ التوافق الكوني في المجال القيمي والأخلاقي، مع تقديم للرفاه ومقتضياته، ومسارات البحث العلمي ونتائجه، ومكاسب التحرر وإنجازاته، على تطلبات التدين وتشريعاته، وقد استحكمت اليوم هذه المقاربات في عالمنا، وباتت تهدد بانهيار العديد من النظريات الأخلاقية، والأنساق المعيارية، والدساتير السلوكية، التي كانت إلى حدّ الآن توجه الحضارة السائدة.

ولعل استشعار هذا المستقبل قيد التخلق، والتوجس من نتائجه، هو الذي يكمن وراء الاهتمام المتزايد عالميا في المحافل الأكاديمية، والمحاضن البحثية المختلفة، بمبحث القيم والفلسفات الأخلاقية، في كافة الميادين المعرفية والعلمية والمهنية، غير أننا نلاحظ -رغم كثرة ونوعية الجهود المبذولة بهذا الصدد في عالم اليوم- عدم القدرة على تجاوز عجز الكسب التحديثي عن بلورة أخلاق وقيم عقلية، تلتفّ حول الفراغ الذي خلفه تدمير السند الديني الاعتقادي للأخلاق والقيم.

لقد أثبت السند الديني للأخلاق والقيم في صيغته الإسلامية، أنه قادر

على تجاوز القطيعة بين المرجعيتين الدينية والعقلية، وأنه لا تعارض بين صحيح المنقول وصريح المعقول، وأنه لا تعارض بين مصالح العباد، وتشريع رب العباد، فحيثما المصلحة المنضبطة بضوابطها ثمة شرع الله، وذلك من خلال ما يكنّه الوحي الخاتم من إمكانات هائلة للتوفيق بين حاجات الحرية الشخصية، وحاجات بناء السلطة، وبين ما يهدي إليه من انسجام جمالي بين الأخلاق الفردية الخاصة، والأخلاق الجماعية المشتركة، حيث لا تضيع مصلحة الفرد وحرياته، أو حقوق الجماعة وتطلباتها، غير أن هذه الآفاق رغم وضوحها من حيث المبدأ، تقتضي تشميرا تنظيريا، ومنهاجيا، وتربويا، وإجرائيا كبيرا، مما له جملة مقتضيات لابدّ من تجريد العزم لاستجماعها واستكمالها.

وإنه لمن المطلوب اليوم بإلحاح، أن يتم شفع الجهود الهامة التي تبذل في مجال الدرس الأخلاقي والقيمي، باستنطاق صيغ الإسناد الديني للأخلاق والقيم الموجودة في عالمنا، قصد فتح إمكانات أوسع للتأطير الإيجابي والانسيابي لأكبر قدر من المجموعات البشرية بهذا الصدد.

ويمكن إجمال هذه المقتضيات في خمسة:

أولها: ضبط الإطار النظري، واستكمال التحديد المفاهيمي والمجالي للأخلاق والقيم، في أفق الاستبانة النقدية البناءة لمعالم منظومات القيم السائدة في عالمنا، في اعتبار لمختلف المجالات التداولية التي تحددها طبيعة النظم الثقافية المعيارية المرجعية العامة، وتحددها الأسيقة التاريخية والحضارية.

ثانيها: الوقوف على مختلف المقاربات المنهاجية المعتمدة في التعاطي مع المنظومات الأخلاقية والقيمية في عالمنا.

ثالثها: ضبط أضرب الصلة بين الأخلاق والقيم، وما هو سائد في محاضنها

من معتقدات ورؤى وتمثلات للعالم وللحياة والأحياء، وتحديد أوجه التأثر والتأثير بين الأخلاق والقيم، وبين المعتقدات والرؤى والتمثلات.

ورابعها: رصد أوجه التلازم الوظيفي بين الأخلاق والقيم، وبين مختلف تمظهرات التربية والتعليم والإعلام، في أفق استبانة المضامين الأخلاقية والقيمية السارية في النظم التعليمية والإعلامية، وتقويمها من هذا الصوب.

وخامسها: الرصد الميداني لتأثير المنظومات الأخلاقية والقيمية على مناهج بناء الذات ونحت الشخصية الإنسانية في بعديها الفردي والاجتماعي، وتوجيه أضرب الكسب الإنساني في مختلف المجالات.

وهذه مقتضيات لابد منها، حتى لا يبقى التوق إلى رتق ما فُتق من علاقة بين السند الديني للأخلاق والقيم، وبين مناهج التأصيل والتنظير والتفعيل في هذا المجال، مجرد آمان نعيش بها زمن كتابة أو قول رغد، في انفكاك عن تطلبات التنزيل الإجرائي الراشد على أرض الواقع، لهذا البعد المحوري من أبعاد الحياة الإنسانية.

النظر المقاصدي وسؤال التجديد

من المسلّم به عند علماء الأمة، أن أحكام الشريعة الإسلامية إنما شرعت لتحصيل مقاصد؛ غايتها تحقيق مصالح الناس في العاجل والآجل، وبعض هذه المقاصد منصوص عليه في القرآن الكريم والسنة الشريفة على وجه التصريح، وبعضها مشار إليه على وجه الإيماء والتنبيه، والدوران والإخالة، والسبر والتقسيم، وبعضها منضبط وظاهر بحيث لا يختلف النظار في تحديده والاعتداد به.

وقد روعي في كل حكم من أحكام الشريعة إما حفظ ومراعاة

ضرورة من الضروريات الخمس المعهودة: (الدين والنفس والعقل والنسل والمال)، أو غيرها من الضروريات المستحدثة، تبعا لتطور الحياة الاجتماعية وتركيبها، وتعدد مستلزماتها؛ وهي الضروريات التي تمثل الأساس الذي ينبني عليه الاجتماع والعمران البشري في كل زمان ومكان؛ وإما مراعاة وحفظ المصالح الحاجية، التي لولا ورودها على الضروريات لَلَحِق بالناس قدر غير يسير من الضيق والعنت والحرج؛ وإما مراعاة وحفظ المصالح التحسينية، التي جرى ربطها بمكارم الأخلاق ومحاسن العادات. وهو الربط الذي وسعه باحثون معاصرون ارتقوا بالأخلاق إلى مستوى المبدأ المرجعي الحاكم لكل المصالح.

والناظر في السياق التاريخي لمباحث مقاصد الشريعة، يلحظ جهدا مباركا في استبانة حلقاتها، والكشف عن مسالكها، وذلك منذ مرحلة التأصيل المرجعي مع نزول القرآن الكريم وترجمته العملية السنة الشريفة، مرورا بمراحل: التأسيس النظري مع الرواد الأوائل من أمثال الإمام الترمذي الحكيم (ت ٣٢٠هـ)، والإمام القفال الشاشي الكبير (ت ٣٦٥هـ)، والإمام الأبهري (ت ٣٧٥هـ)، والإمام العامري (ت ٣٨١هـ)، والإمام الباقلاني (ت ٤٠٣هـ)، وإمام الحرمين الجويني (ت٤٧٨هـ)، والإمام الغزالي (ت ٥٠٥هـ)، والإمام الرازي (ت ٦٠٦هـ)، والإمام الآمدي (ت ٦٣١هـ). ثم مرحلة الجمع بين التأصيل النظري والتفعيل العملي مع سلطان العلماء العز بن عبد السلام (ت ٦٦٠هـ)، والإمام القرافي (ت ٦٨٤هـ)، وابن تيمية (ت ٧٢٨هـ)، وتلميذه ابن القيم (ت ٧٥١هـ)، ثم مرحلة النضج النظري والإبداع المنهجي مع اللوذعي الإمام أبي إسحاق الشاطبي المالكي (ت ٧٩٠هـ)... وصولا إلى مرحلة الإحياء واستئناف

الاجتهاد المقاصدي مع جيل النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري إلى اليوم (الأستاذ علال الفاسي، والشيخ الطاهر ابن عاشور، والشيخ عبد الله دراز...) وقد حاولت هذه الزمرة الكريمة، تحقيق أهم نصوص هذا العلم، ومحاولة نقده، وقراءة محتويات أهم مصنفاته، تدقيقا وتركيزا على بعض قضاياه، واجتهاداً في تجديد مضامينه، وتقريبها من التداول العام.

ويبرز الفكر المقاصدي اليوم باعتباره مجالا علميا غنيا، يمكن إذا تم تسييقه، أن يفتح أمام الباحثين أبوابا جديدة للاشتغال والإبداع، أبوابا يستطيعون، إن ولوجوها بمسؤولية، القيام بقراءة متجددة لنصوص الوحي، وامتلاك آليات جديدة للاجتهاد الفقهي، وتنزيل متجدد للأحكام على الوقائع، كما سوف يمكّنهم ذلك من تقريب إدراك فحوى الشرع والشريعة من العالمين.

ويتجلى البعد الوظيفي للمقاصد أكثر، انطلاقا من كون العلم بالمقصد المراد من الحكم الشرعي، يكتسي أهمية قصوى في فهمه الفهم السليم من جهة، وكذا في تنزيله التنزيل الرشيد والناجع من جهة أخرى؛ بناء على أن كل مسألة تفتقر إلى نظرين: أحدهما في دليل الحكم، والآخر في مناط الحكم؛ وضابط ذلك أن تنزيل الحكم الشرعي بعد ثبوته بمُدركه يتوقف على عدة أمور في مقدمتها؛ الوعي بسياق التنزيل (سياق الحال أو المقام)، ثم دراسة مناطه تحقيقا في نطاق النوع (تحقيق المناط العام)، وتصديقا في نطاق العين (تحقيق المناط الخاص) وهو أخص وأدق من سابقه.

مما يقتضي ضرورة الجمع عند إجراء الأدلة بين المقدمات النقلية، والموضوعات المناطية (سياق الخطاب، والتخاطب، والتنويط)، مع الوعي بالمقتضيات العامة للتنزيل بأبعادها الزمانية والمكانية، ومعطياتها

الاجتماعية والعلمية، واستحضار العلوم الخادمة والمعارف اللازمة في هذا الباب.

وحري بالذكر أن مقاصد الشريعة رغم تعددها وتنوعها، فإنها تتركز في مقصد كلي جامع جرى التعبير عنه تارة بـ"جلب المصالح ودرء المفاسد"، وتارة بـ"تحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها"، كما جرى النظر إلى فريضة "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" باعتبارها ترجمة سلوكية لجلب المصالح ودرء المفاسد.

وقد وظف مقاصديونا المعاصرون نظرية المقاصد في صلتها القوية بمبدأ المصلحة، سعيا لصياغة تشريعية متجددة تحاول المزاوجة بين النص والسياق، وبين الأحكام ومناطاتها، سعيا لبلورة مشروع إصلاحي نهضوي للأمة يمكنها من استئناف رسالتها في الشهود الحضاري الذي لا يُتصور تحققه بدون الاضطلاع بواجب الاستخلاف والتعمير المستمد من المقاصد العليا للدين الخاتم الموجهة لسائر أنواع الفعل الإنساني (القلبي، والعقلي، والوجداني، والبدني)، مع الحرص على مد الجسور بين الإسلام والمعطيات والقيم الكونية ذات الصلة، وبوجه خاص، بمنظومة حقوق الإنسان.. وقضايا التنمية الشاملة والمستدامة.. التي تعد بمثابة غايات ومقاصد عامة للشريعة، وجب تكييفها مع نسيجها وأحكامها، في اعتبار رصين لمختلف الأسيقة المحيطة.

ولعل من أبرز ميزات الفكر المقاصدي، كونه فكرًا كليًّا يأبى الانحسار في ظواهر الأدلة الجزئية، دون وصلها مع الأدلة الكلية؛ في حرص على المواءمة باتساق ووظيفية، بين الدليل الكلي أو الأصلي، والدليل الجزئي أو الفرعي، بحيث لا يصح تصور الأدلة الشرعية، إلا من خلال انبنائها على مقدمتين:

إحداهما: نقلية، تثبت بالنقل عن الشارع نقلا صحيحا. والثانية: نظرية، تثبت بالنظر والاستدلال. الأولى ترجع إلى نفس الحكم الشرعي. والثانية ترجع إلى تحقيق مناط الحكم، في تجاوز واضح للمقاربة المقتصرة على "طلب المعاني من الألفاظ"، وسعي أصيل إلى الانطلاق من إدراك كون علم الشريعة علما برهانيا، مبنيا على القطع المناقض للظن. وهو القطع الذي يوازي في النقليات، اليقينَ في العقليات.

وكما أن "الكليات العقلية" تؤسسها مبادئ العقل لأنها مفاهيم، فإن "الكليات الشرعية" يؤسسها "قصد الشارع"؛ لأنها غايات؛ وبيان ذلك أن الشارع لم يكلف الناس بما كلفهم به من واجبات في العبادات والمعاملات، من دون مقاصد معينة، كما أنه ما من حكم جزئي من أحكام الشريعة، إلا وهو يحمل معه معنى الكلي؛ أي قصد الشارع منه. ولذلك فكل جزئيات الشريعة تنتظمها كليات مقاصدية.

ولا يخفى أن الاستفادة من تراثنا الفقهي، رغم ما يمثله من قيمة علمية استثنائية، لا يُتصوَّر حصولها، إلا بتجلية وجرد ما يكنّه هذا التراث المبارك في بنيته من أعراف تغيرت، ومصالح تبدلت، وأوضاع وظروف وسياقات اندرست، للتمكن من النظر الاجتهادي المستأنف المستجيب لواجب التجديد، من خلال التفاعل الإيجابي المتشرّع، مع التحولات النوعية التي طبعت عالمنا المعاصر، على مستوى علاقاته الاقتصادية والمالية، والتكنولوجية، والاجتماعية، والسياسية.. وأنظمته المؤسساتية، والقانونية، والمعلوماتية، والثقافية، والمعيارية.. ولا شك أن المبحث المقاصدي إذا تم تنقيحه وتفعيله، يعد من أهم وأنجع آليات تجديد منظومتنا الفقهية والقانونية الفذّة، ردما للهوة التي ما فتئت تتعمق بين نص

رباني مطلق، وواقع شديد التغير والتركيب.

وهو ما يستدعي إيجاد حلول فقهية تتساوق مع ما تم بناؤه في فقهنا ومختلف مسائله وقضاياه ومقاصده، قصد تفعيل كل ذلك التفعيل الشامل المستوعب برشادة لكليات الدين الهادية، وكليات الحياة النابضة.

المقاصد ومقتضيات الاجتهاد والتجديد

تعد مقاصد الشريعة مكونا من مكونات الخطاب التشريعي منذ نزوله، وعنصرا أساسيا في تنزيله، وآلية داخلية لتفعيله، ومقرراتها إحدى الركائز الأساسية التي يبنى عليها الاجتهاد؛ إذ تشكل إطارا شرعيا مرجعيا، وفق منهجية استدلالية منضبطة، وبحسب معطيات يتداخل فيها النقلي، والعقلي، والواقعي.

وقد شكلت مقاصد الشريعة الإسلامية كسبا معرفيا معتبرا، ودافعا معنويا، أسهم في إبراز واقعية وعالمية ورحمة الدين الخاتم، على تغير الأزمنة، والأمكنة، والوقائع، والمستجدات، والسياقات.. والدارس لكرونولوجيا هذا العلم الجليل، يجد المدونات الفقهية والأصولية في المذاهب الإسلامية المختلفة، وفي مقدمتها مذهب إمام دار الهجرة، مالك بن أنس -رحمه الله- تحفل بألفاظ علمية من قبيل "حكمة التشريع"، و"علل الشرائع"، و"مقاصد التشريع"، و"مآخذ الشرائع"، و"أسرار التشريع"، و"مدارك الأحكام"، وغيرها من المركبات المفاهيمية التي تتحرك بوظيفية في التراث الأصولي، وكتب النوازل، وكتب السياسة الشرعية، متصلة حينا، ومنفصلة حينا آخر، ومترادفة في بعض الأحايين، في قواعد معلومة، مثل قاعدة الاستحسان، والقياس، والاستصحاب،

والعرف، ومراعاة الخلاف، والمصالح المرسلة، وسد الذرائع وفتحها، واعتبار المآل.. وهي ألفاظ/أصول منطلقها الأساس مراعاة قصد الشارع، واستحضاره في معاني ومباني الخطاب التشريعي في الإسلام.

وإن الناظر فيما كتب من مؤلفات وموسوعات مباركة، وما أنجز من دراسات وأبحاث طيبة في مقاصد الشريعة، يلحظ تراكما في التأصيل، وأحيانا في التنزيل على قضايا محددة.. فمنذ القرن الأول الهجري تعددت انشغالات العلماء بالفكر المقاصدي، وتوسعت أنظارهم فيه.

وبالإضافة إلى أهميتها العلمية، والمعرفية، ركز التداول المعاصر حول استثمار مقاصد الشريعة كثيرا على المزاوجة بين النص والسياق، وبين الأحكام ومناطاتها، مع الحرص على توظيف نظرية المقاصد في صلتها القوية بمبدأ المصلحة، كما رام هذا التداول مد الجسور بين الإسلام والقيم الكونية ذات الصلة، وبوجه خاص، بمنظومة حقوق الإنسان، وقضايا التنمية الشاملة والمستدامة، ومختلف الأنساق الفكرية، والثقافية الكونية ذات الحضور القانوني التداولي في عالم اليوم، وذلك لأن عدم استحضار هذا المعطيات والتجانف عنها، من شأنه أن يدلف بمنظومتنا الفكرية والشرعية إلى هوامش الفعل الحضاري، وليس كعلم المقاصد وسيلة للنظر الراشد والمتزن في هذه المعطيات الحضارية الحارقة، وفي مدى تلاؤمها مع نسيجها التشريعي والأحكامي، ومواءمتها لأسيقتنا الحضارية، والاجتماعية، والثقافية المستقبِلة.

ولا يخفى أن إناطة الأحكام بمقاصد الشريعة ودورانها معها وجودا وعدما، تكسب الفقه الإسلامي مرونة وقدرة على استيعاب تغير الأحوال وتبدل الأعصار، وتيسّر بناء نظر اجتهادي مستأنف، يستجيب لواجب

التجديد في منظوماتنا الفكرية والعلمية، في تفاعل إيجابي مع مختلف المستجدات التي اصطبغ بها عالمنا المعاصر، في تعاقداته الاقتصادية، والمالية، والقانونية، وعلاقاته السياسية، والاجتماعية، والثقافية، وأنظمته المؤسساتية، والتكنولوجية، والتواصلية.

ذلك لأن من أبرز ميزات الفكر المقاصدي، كونه فكرًا كليا، واقعيا، مرنا، وظيفيا، استشرافيا، يأبى الانحسار في ظواهر الأدلة الجزئية، دون وصلها مع الأدلة الكلية؛ في حرص على المواءمة باتساق وتواشج، بين روح ومقتضيات الدليل الكلي أو الأصلي، وإمكانات الدليل الجزئي أو الفرعي.

وجليّ أن الحرص على التواشج العلمي والعملي بين الفهم والتنزيل في هذا الجانب، يمكن أن يسهم في اختراع مفهوم دينامي ووظيفي لمقررات مقاصد الشريعة، ويسهّل عمليات التنزيل على أرض الواقع، في مراعاة لكافة مقتضيات السياق.

المبحث الحادي عشر:

مفهوم الواجب في الإسلام

مقتضياته التشريعية وتطلّباته الحكَمية

يبرز الإنسان في منظومة الإسلام الاعتقادية والتصورية باعتباره الجسر الكوني المؤهَّل الذي تَعبُر منه القيم والأخلاق والتشريعات الحاملة لمراد الله التكليفي من الإنسان تجاه نفسه ومحيطه الكوني إلى البُعدين الزماني والمكاني، لتصبح جزءًا من التاريخ والحياة.

مفهوم الواجب في الإسلام
مقتضياته التشريعية وتطلّباته الحكَمية[٨٩]

يحظى اليوم موضوع الواجب باهتمام واسع في حلبات النقاشات النظمية والحقوقية والاجتماعية والسياسية وحتى الاقتصادية، لكون مبحث الواجب يتموقع من هذه المجالات جميعًا في المنطلق والمبتدأ والبؤبؤ والسويداء؛ ففي مجال حقوق الإنسان مثلاً يجري النقاش على أشدّه حول كيفية زرع مفهوم الواجب ضمن البنية الحقوقية ولاسيما حقوق الجيل الثالث (الحقوق التضامنية) كالحق في البيئة السليمة والحق في السلام والحق في التنمية. وهي حقوق يحضر فيها بجلاء -إلى جانب المكون الحقوقي- مكونُ الواجب ومسؤولية الفرد.

فالبيئة السليمة لا يمكن ضمان وجودها إن لم يتحمل الأفراد مسؤولياتهم ويقوموا بواجباتهم تجاهها، وكذا ضمانُ التنمية والاسترواح بالسلام؛ فكل ذلك يحتاج إلى أن يقوم الأفراد بواجباتهم إزاءه، مما أدى إلى انبعاث مفهوم الواجب من جديد في النقاشات الحقوقية بعد أن كان الجيل الأول من الحقوق (المدنية والسياسية) والجيل الثاني (الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية) مرتكزين على النموذج المعرفي القائم على الحقوق وليس الواجبات، وذلك بسبب ما نبه إليه الباحث "Saul

---

[٨٩] مجلة حراء، العدد: ١٠-١١ (يناير - مارس ٢٠٠٨/ أبريل - يونيو ٢٠٠٨)

Ben" في قوله: "بما أن النضالات التي قامت بها حركة حقوق الإنسان ضد استبدادات الكنيسة والنبلاء الفيوداليين في مرحلة أولى، وفي مرحلة ثانية ضد النفاقات الاجتماعية والإقصاء ونقائص النضالات السالفة، كلها ارتكزت على مواجهة ما كان يفرضه المتنفذون من واجبات ظالمة على الأفراد، فقد بلورت حركة حقوق الإنسان حذرًا تلقائيًّا تجاه كل لغة فيها الواجبات والإلزامات مما يبقى بالنظر إلى ماضي هذه الحركات حذرًا وتشككًا مبررين". ومن ثم معاناة المنظرين لتنزيل الجيل الثالث من الحقوق (الحقوق التضامنية) والتي ضمن بنيتها ضرورة الارتكاز على الواجبات، وهي معاناة لا وجود لها في النماذج المعرفية التي يمنحها الإسلام.

أما في المجالين الاجتماعي والسياسي فيجري اليوم في أكثر دول العالم تقدّمًا نقاش مستحرّ حول كيفية إحياء ثقافة الواجب دون إحياء الدولانية والديماغوجية، وكما قال "Don. E. Eberly": "إعادة اختراع المواطنة ليس كنموذج شاعري بل كعقد اجتماعي يشتمل على العمل الجادّ والتضحيات، ومهما كان ما تفعله الحكومة أو لا تفعله فإن مهمة الإصلاح والتجديد ستقع على كاهل المواطنين. إذ ثمة أمل ضئيل في التغيير الذي يعتمد على الإستراتيجيات الفوقية أو على النظريات المجرّدة دون إدماج المواطنين في تولّي مسؤوليات إنعاش المؤسسات والاتّسام العملي أمامهم بالصفات التي ينبغي أن يقتدى بها". وهذا التوق ما بعد الحداثي هو ما تجسده سنة المصطفى ﷺ الذي كان سباقًا للواجبات، فعن أنس رضي الله عنه قال: "كان النبي ﷺ أَحسن النَّاس وأجود الناس وأشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق الناس قِبَل الصوت فاستقبلهم النبي ﷺ قد سبق الناسَ إلى الصوت وهو يقول: "لن تُراعوا لن تُراعوا"

وهو على فرس لأبي طلحة عُرْي ما عليه سرج في عنقه سيف فقال: "لقد وجدته بحرًا" (لفرس أبي طلحة)[٩٠]. وكل ما سلف من عوامل يجعل الحديث في موضوع الواجب في هذه الظرفية بالذات يكتسي أهمية خاصة. فالواجب لحمة وسدى النسيج العلائقي في المجتمعات والمؤسسات، وهو المحور الذي يتمحور حوله إنجاز الدول والحضارات.

التأسيس القرآني لموضوع الواجب

ويمكن التأسيس للحديث في موضوع الواجب في الإسلام انطلاقًا من عدد من آيات الذكر الحكيم يبقى من أبرزها في هذا السياق قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاَهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(النحل:٧٦).

أورد الطبري -رحمه الله- في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما رواية بالغة الدَّلالة على قدرة حَبر الأمة على تبين مراد الله من كلامه. فقد قال رضي الله عنه: "وهذا المثل في الأعمال"[٩١] وهذا لب الآية الكريمة.

فالآية فيها الإشارة إلى مقومات القيام بالواجب من الأعمال كلِّها، وهي "القدرة" و"الإرادة" و"الإنجاز".

والقدرة قدرتان فهمية ومادية. وإلى انعدام القدرة الفهمية تمت الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَبْكَمُ﴾، قال الراغب الأصفهاني رحمه الله: "وكل أبكم أخرس وليس كل أخرس أبكم، يقال بكِم عن الكلام إذا ضعف عنه

---

[٩٠] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء، وما يكره من البخل، رقم: ٦٠٣٣.

[٩١] جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣١١/١٤).

لضعف عقله. فصار كالأبكم". وهو ما ذهب إليه ابن الجوزي في تفسيره إذ قال: "والبكَم عيب في الفؤاد يمنعه أن يعي شيئًا فيُفهِّمه، فيجمع بين الفساد في محل الفهم وفي محل النطق"[٩٢]. قال الأزهري: "وبين الأبكم والأخرس فرق في كلام العرب، فالأخرس الذي خُلق ولا نطق له، والأبكم الذي للسانه نطق وهو لا يعقل الجواب ولا يحسن وجه الكلام". وأما "القدرة المادية"، فإلى انعدامها أشار قوله تعالى: ﴿لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾.

أما قوله تعالى: ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاَهُ﴾ فالكلّ هو الثقيل على وليه وقرابته والذي "لا إرادة له"، فانعدم بهذا المقوم الثاني من مقومات القيام بالواجب وهو الإرادة. ونظرًا لما للإرادة من أهمية ومركزية في الفلاح فقد اشتهر في العرف الصوفي تسمية السالك: "المريد" إذ أول ما يربّى فيه هو ضبط هذه الإرادة وذلك بتزكية منابعها الباطنية وتصفية مقاصدها ومناطاتها الظاهرية وتوجيهها وجهة الخير. والإرادة تتفرع من عاملين هما: العلم والمحبة، فحتى يراد شيء لابد أن يعلم، ثم لابد أن يحب البلوغ إليه. وهذا المقوم هو الأساس الذي تقوم على توظيفه علوم التسويق إذ يصاغ العلم بالسلعة على نحو جاذب وتُنشأ في نفس المستهلك محبة البلوغ إليها.

أما قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾، فهو دلالة على انعدام الإنجاز والجدوى في العمل إذا أُجبر هذا الكَلُّ على القيام به بتوجيه مولاه له، وبذلك ينعدم المقوم الثالث الذي هو الإنجاز.

أما الذي يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم فأمره بالعدل دال على فهم عنده يمكّنه من إدراكه. وقد عرّفوا العدل بكونه الحق والصواب الموافق للواقع وأنه ضد الظلم؛ والظلم هو وضع الأمور في غير

---

[٩٢] زاد المسير، لابن الجوزي (١/٤١).

مواضعها. وعين أمره بالعدل دالّ على قدرته، وأما طيّب إنجازه فيدل عليه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، فأمامنا هنا إنسان قادر على تبيّن مواطن العدل وعلى الأمر به بحكمة مواجهًا في سبيل ذلك ما قد يعترض من عقبات، كما أنه قادر على تبين العلامات التي تمكّن من التعرف على الصراط المستقيم والثبات عليه.

وهذا الأمر بالعدل والثبات على الصراط المستقيم لا يكون بدون إرادة، فهي إذن مقومات القيام بالواجب الثلاث: "القدرة" و"الإرادة" و"الإنجاز"، وأي إنجاز أعظم من الاتصاف بالعدل والأمرِ به على صراط مستقيم.

والآية الكريمة من آيات وعلامات سورة النحل. وهي سورة ومنذ مطلعها تبين مؤقتية هذا الوجود وتُذكر بيوم الحساب ﴿أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(النحل:١). وتبين للإنسان أن لا حجة ولا عذر بعد البيان الذي جاءت به الرسل: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ﴾(النحل:٢).

وبعد امتنانه تعالى وتذكيره بكل المقومات والمؤهلات التي سخرها للإنسان ينتقل السياق إلى تجلية وبيان معالم أوجبِ الواجبات وهو توحيد الله تعالى وإفراده بالعبودية المبني على الاستحقاق الأمْكَن، بسبب الخلق والهداية والتسخير والإحسان: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(النحل:١٨)، في مقابل ما تردّى إليه الضالون من عبادة ما لا يستحق ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾(النحل:٢٠).

ليخلص السياق بعد ذلك إلى بيان -وعلى لسان من قاموا بواجب طلب العلم- أن الجزاء من جنس العمل. وَوَفْقَ القيام بالواجب أو عدمه:

﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ۞ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(النحل:٢٧-٢٨). فلا يجيب أهل الظلم والتفريط والكلالة، للـ"بكم" الذي فيهم، بل يجيب أهل العلم والعدل في مقابل الذين أحسنوا عملاً الذين يجيبون عن أنفسهم لأنهم كانوا -وهم بعد في الدنيا- محسنين آمرين بالعدل وهم على صراط مستقيم: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾(النحل:٣٠). إلى أن يقول سبحانه: ﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللهُ الْمُتَّقِينَ ۞ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(النحل:٣١-٣٢). ليبين بعد ذلك سفه وبكم منظومة الشرك واختلال معتقدهم ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ ۞ وَيَجْعَلُونَ لِلهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾(النحل:٥٦-٥٧).

وهو موقف سوف يصير في السنوات القليلات التاليات لزمن نزول الآيات عنه مؤشرًا على بيان النقلة البعيدة التي قام بها الوحي مع الإنسان وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۞ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾(النحل:٥٨-٥٩). فشتان بين هذا الموقف وبين الريادة العلمية لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

وذلك بعد أن بين سبحانه مركزية الوحي في حياة الكائنات عمومًا وأن فلاحها رهين باتباع هادياته إن طوعًا أو كرهًا. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ

قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ۞ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(النحل:٤٣-٤٤).

كما بين سبحانه أن استقامة الكون وما فيه من كائنات إنما هي نتاج اتباع الوحي: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ وَلِلهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلاَئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ۞ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾(النحل:٤٨-٥٠)، في مقابل: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ﴾(النحل:٦٢)، رغم هاديات الوحي: ﴿تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(النحل:٦٣-٦٤)، بيد أن الكائنات الكونية تنتفع بوحيها وتنتج ما خلقت له عن طريق القيام الطوعي بالواجبات التي يهدي إليها الوحي: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۞ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(النحل:٦٨-٦٩)، لتنتهي بنا السورة الكريمة إلى بيان معالم المجتمع السليم مجتمع الواجبات الذي يكون لأفراده إنجازهم المنتج المتنافس المتكامل "المعتبر بمجتمع النحل وأدائه المتناسق" ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، وذاك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

﴿ وَلاَ تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ وَلاَ تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلاً إِنَّمَا عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(النحل:٩٣-٩٦). وذلك في دقة متناهية ترسم معالم مجتمع الواجب ليُنْصَب، تتويجًا لهذه المعاني وتجسيدًا لها، مثال أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه السلام الذي تجلت كلها فيه بامتياز وذلك في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۞ شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(النحل:١٢٠-١٢١). والشكر عمل وقيام بالواجب لقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾(سبأ:١٣).

لتختم السورة بإيقاع نابض تتجلى من خلاله حركة الإنسان الآمر بالعدل ﴿وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(النحل:٧٦). لإقامة صرح مجتمع الواجب في دفق إنجازي لا يوقفه خلاف المخالفين ولا صدّ الصادّين أو مكر الماكرين ولا كل الصعوبات التي تعترضه ولكن لا تعيقه. وذاك قوله سبحانه: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۞ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾، ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾، ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾(النحل:١٢٥-١٢٨)، مما يجعل سورة النحل سورة تتجلى فيها مقومات الواجب كلها، من بواعث قائمة على الشكر الدافع للإحسان بسبب التسخير والهداية. وكذا وعي مؤقتية اللَّبث في هذه الحياة وحتمية مجيء يوم الحساب والعبرة بمصائر المخالفين

والعمل بمقتضى كل ذلك في اتزان على صراط مستقيم.

فما هو الواجب في الإسلام وما هي أسسه الاعتقادية والتصورية؟ وما هي مقتضياته الشرعية وتطلباته الحكمية؟

تعريف الواجب

الواجب لغة: من وَجَبَ الشيء يَجِبُ وجوبًا، أي لزم لزومًا، وثبت ثبوتًا، والموجِبة من الأعمال الكبيرة، الحسنة أو السيئة الموجِبة للثواب أو العقاب[٩٣].

وقبل الانتقال للحديث عن الواجب شرعًا يحسن المهد لذلك بالحديث عن المقومات والأسس الاعتقادية والتصورية التي يرتكز عليها هذا المفهوم في الإسلام. فالاعتقادات والتصورات دعامة الواجب وعماده في هذا الدين.

الأسس الاعتقادية والتصورية المؤطرة للواجب في الإسلام

يبرز الإنسان في منظومة الإسلام الاعتقادية والتصورية باعتباره الجسر الكوني المؤهَّل الذي تعبر منه القيم والأخلاق والتشريعات الحاملة لمراد الله التكليفي من الإنسان تجاه نفسه ومحيطه الكوني إلى البعدين الزماني والمكاني لتصبح جزءًا من التاريخ والحياة، ويبرز التكليف الملقى على عاتق هذا المخلوق (الأمانة)، ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾(الأحزاب:٧٢). باعتباره تكليفًا لا يعرف حصرًا ولا حدودا،

---

(٩٣) لسان العرب لابن منظور، مادة (وجب)؛ تاج العروس للزبيدي، مادة)وجب(.

إذ الكون كله في هذه المنظومة مسرح لفعل الإنسان وعتاد له. فالنوع الإنساني كله موضوع فعله الأخلاقي كما الكون كله.

وقد تجلى هذا الوعي بعمق في قول عمر ﷺ: "لو أن بغلة عثرت في طفّ العراق لخشيت أن يسألني الله لِمَ لَمْ تعبّد لها الطريق يا عمر".

أما زمانيا فإن هذا التكليف لا ينتهي إلا يوم القيامة، قال رسول الله ﷺ: "إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها"[٩٤].

وتبرز مقومات القيام بالواجب في هذه المنظومة الاعتقادية والتصورية على الشكل الآتي:

١- تزويد الإنسان بالعقل وجعله مناط التكليف: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(النحل:٧٨)، ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾(الأعراف:١٧٩).

٢- المواءمة بين الإنسان والكون من جهة، وبين الإنسان والوحي من جهة ثانية: وارتكاز المواءمة في الإنسان يقوم على قدرته على الفهم عن طريق الألباب/ النُّهى/ الأفئدة/ العقل، وهي الوظائف التي تمكن الإنسان من الإدراك والتعقل والتفكيك والاستنباط والتخيل والحدْس والاستشراف: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۞ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ

[٩٤] أخرجه البخاري في الأدب المفرد (ص:١٤٦). وإسناده صحيح على شرط مسلم.

أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾(البقرة:٣٣). أما في الكون فترتكز المواءمة على تسخيره ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الجاثية:١٣). وترتكز في الوحي على تيسيره ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾(القمر:١٧)، مما يجعل الإنسان قادرًا على استبانة الآيات والعلامات سواء كانت في الكون أو في الوحي. ونظرًا لمطواعية الكون واستجابة الوحي فإن الإنسان يصبح قادرًا على الفعل في الأول بهاديات الثاني.

٣- قصدية الخلق: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ۞ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ ۞ إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾(الذاريات:٥٦-٥٨). وارتكازًا على الأسس السالفة يصبح الإنسان قادرًا على إدراك هذه القصدية ويصبح من ثم مسؤولاً عن تحقيقها.

٤- بنائية الشرع والعقيدة ووحدتهما ومفهوميتهما: وهذا يثمر وضوح الواجبات التي توجهان إليها، فمقاصدُهما، وأوامرهما، ونواهيهما واضحة قابلة للتعقل، ومتكاملة تحرر تماسكًا يُمكِّن من تحديد الأولويات وتبَيُّن مراتب الأعمال.

٥- المسؤولية والمحاسبة: إذ برز أن على الإنسان مسؤولية العمل في ذاته وفي محيطه وفق قيم الوحي الحاكمة وشرائعه الموجِّهة. وقد زوِّد بالقدرات التي تمكنه من الاضطلاع بذلك، وكان الكون قابلاً لفعله مسخرًا له، وكان الوحي مُيَسَّرًا له متستجيبًا لتساؤلاته: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلاَءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾(النحل:٨٩).

فإن ذلك يستتبع المحاسبة التي يُجزى بمقتضاها المحسنون عن إحسانهم، والمسيئون عن إساءتهم. وهذا البناء هو الذي يحرر الشعور النبيل المتسامي بالواجب وهو شعور انزرع في نفوس المسلمين فأثمر المسلكيات والممارسات التي رفعت في جمالية صرح الحضارات والثقافات الإسلامية الشامخة.

التعريف الشرعي للواجب

الواجب شرعًا هو "ما طلب الشارع فعله من المكلف طلبًا حتمًا بأن اقترن طلبه بما يدل على تحتيم فعله، كما إذا كانت صيغة الطلب نفسها تدل على التحتيم، أو دلّ على تحتيم فعلٍ ترتيبُ العقوبة على تركه، أو أيةُ قرينة شرعية أخرى"(٩٥).

تجدر الإشارة هنا إلى أن الواجب عند جمهور الأصوليين لا فرق بينه وبين الفرض، وقد انفرد علماء الحنفية بالتمييز بينهما فقسموا الحكم التكليفي إلى سبعة أقسام عوض خمسة عند الجمهور، أولها الفرض، وميزوا بين الفرض والواجب بقولهم: "ما طلب الشارع فعله طلبًا حتمًا وكان دليل طلبه قطعيًّا بأن كان آية قرآنية أو حديثا متواترًا، فهو الفرض، كالأركان الخمسة مثلاً، أما إن كان دليل طلب الفعل ظنيًّا بأن كان حديثًا غير متواتر أو قياسًا فهو الواجب"، ولهذا التفريق وجه من جهة إسعافه في التمييز بين الواجبات المنصوص عليها في العبادات وغيرها والأخرى المرسلة التي ينفسح فيها المجال للاجتهاد والتقدير، فيكون بذلك هذا التفريق في غاية الوظيفية. ويقترب من معنى الواجب في العلوم السلوكية: "Duty, Devoir".

---

(٩٥) أصول الفقه، لعبد الوهاب خلاف، (ص:١٠٥).

وقد قسم علماء الأصول الواجب إلى أقسام أربعة كل منها يستند إلى اعتبار:

١- الواجب من جهة وقت أدائه: ويكون مؤقتًا أو مطلقًا، ومثال المؤقت الصلاة، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾(النساء:١٠٣)، ومثال المطلق الحج والكفارة. والواجب المؤقت حين يوقع في وقته كاملاً مستوفيًا أركانه وشروطه يسمى ذلك أداء، وإذا فعله المكلف في وقته غير كامل ثم فعله داخل الوقت كاملاً سمي ذلك إعادة، أما إذا فُعل خارج وقته فيسمى قضاء[٩٦].

٢- من جهة المقدار المطلوب: حيث ينقسم الواجب بهذا الاعتبار إلى محدد وغير محدد، فالواجب المحدد ما عين له الشارع مقدارًا معلومًا لا تبرأ ذمة المكلف إلا إذا أداه، كالصلوات الخمس والزكاة والديون. والواجب غير المحدد، هو ما طلبه الشارع من المكلف بدون تحديد، كالإنفاق في سبيل الله، وإطعام الجائع، وإغاثة الملهوف.

٣- من جهة تعيين ماهيته وصيغته وكيفيته: حيث ينقسم الواجب بهذا الاعتبار إلى معيّن ومخيّر، فالمعيّن ما طلبه الشارع بعينه كالصلاة والصيام وثمن المشترى وأجر المستأجر وردّ المغصوب. والواجب المخير ما طلبه الشارع واحدًا من أمور معينة؛ كأحد خصال الكفارة لمن حنث في يمين مثلاً، فعليه إما أن يطعم عشرة مساكين أو يكسوهم أو يعتق رقبة أو يصوم ثلاثة أيام، وتبرأ ذمة المكلف بالقيام بأحدها، وهو معنى التخيير.

٤- الواجب من جهة المطالب بأدائه، (هل هو مكلف بعينه أم عموم المكلفين): وبهذا الاعتبار يكون الواجب إما عينيًا أو كفائيًا.

---

[٩٦] انظر: المستصفى، للغزالي، (ص:٥٣)، أصول الفقة، لعبد الوهاب خلاف، (ص:١٠٥-١٠٧).

فالواجب العيني: هو ما طلب الشارع فعله من فرد من أفراد المكلفين، ولا يجزئ قيام مكلف به عن آخر، كالصلاة والصيام والوفاء بالعقود.

والواجب الكفائي: هو ما طلب الشارع فعله من مجموع المكلفين لا من كل فرد منهم بحيث إذا قام به من يكفي من المكلفين أجزأ ذلك وسقط الإثم عن الباقين. قال الشافعي -رحمه الله- في الرسالة: "وهكذا كل ما كان الفرض فيه مقصودًا به قصد الكفاية فيما ينوب، فإذا قام به من المسلمين من فيه الكفاية خرج من تخلّف عنه من المأثم، ولو ضيعوه معًا خفت ألا يخرج واحد منهم مطيق فيه عن المأثم". ويدخل في هذا القسم من الواجب كل ما يلزم الأوطان من خدمات عامة لا تتعلق بذمة مكلف بعينه كالتطبيب وبناياته ومستلزماته وصناعاته ومدارسه وإيجاد العدد الكافي للأمة من الأطباء والصيادلة ومؤسسات تكوينهم وأماكن عملهم وخدمتهم ومصانع الأدوية والمعدات، وكحراسة الأوطان وحمايتها، وبناء المساكن والطرقات والقيام بواجب التعليم والقضاء والإفتاء. وغير ذلك مما لا يكاد يُحصر إذ تتجدد حاجات الأمم في كل حين.

والحاصل أن هذه الفئة من الواجبات هي مناط التكليف العام، وهو تكليف لا تبرأ ذمة الأمة إن لم تقم به على وجه الكفاية، بمعنى أن الجماعة جميعَها تأثم في هذه الحالة قادريها وغيرُ قادريها وهو قول الإمام الشاطبي المالكي الأندلسي -رحمه الله- في موافقاته: "القيام بهذا الفرض قيام بمصلحة عامة، فهم مطلوبون بسدها على الجملة، فبعضهم هو قادر عليها مباشرة وذلك من كان أهلاً لها، والباقون وإن لم يقدروا عليها قادرون على إقامة القادرين. فالقادر مطلوب بإقامة الفرض، وغير القادر مطلوب بتقديم ذلك القادر، إذ لا يتوصل إلى قيام القادر إلا بالإقامة، من

باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب"[٩٧]. أي إنه في حالة عدم القيام بهذه الواجبات على وجه الكفاية يأثم القادر لإهماله واجبًا قدَر على أدائه إذ يكون متعيّنًا عليه، ويأثم غير القادر لإهماله ما تعيّن عليه من حثّ القادر وحمله على القيام بالواجب المقدور له، وهذا هو البعد التضامني في القيام بالواجب.

وقد كان هذا الوعي متجذّرًا عند علمائنا عامة وعند علماء هذه الربوع خاصة، ومن تمظهراته ما روي عن الإمام أبي عبد الله محمد بن علي المازَري المالكي نزيل المهدية -رحمه الله- المتوفى سنة ٥٣٦هـ، وكان إذا أطلق لقب الإمام في إفريقية لا ينصرف إلى غيره لنبوغه وتمكنه في العلوم الشرعية. فحين علم -رحمه الله- أن الحاجة ماسة إلى الأطباء في هذه الأوطان خاف لفقهه من المأثم، إذ لمس في نفسه القدرة على القيام بهذا الواجب الكفائي، فتوجه إلى طلب علم الطب إلى أن صار وكما قيل عنه -رحمه الله- تعالى: "يفزع إليه في فتوى الطب كما يفزع إليه في فتوى الفقه"[٩٨].

إن هذا البناء التشريعي قد ألزم الأمة بامتياز ومنذ وقت مبكر جدًّا بالولوج إلى آفاق الهندسة الاجتماعية والإستراتيجيات العملية للبراءة من الإثم والفوز بالرضوان. وهو ما انتبه إليه الباحث الأمريكي "Jason Morgan Foster" حين قال: "ولأن الواجبات لها مركزية في الاعتقاد والتطبيق الإسلاميين، فإن لغة وبنية الواجبات تطورت في الشريعة الإسلامية، وهما إلى حد بعيد أكثر تركيبًا من الإحالات البسيطة إلى الواجبات التي نراها

---

[٩٧] الموافقات، للشاطبي، (١/٢٨٤-٢٨٥)

[٩٨] انظر: ترجمته في شجرة النور الزكية في طبقات المالكية.

في الإعلانات العالمية لحقوق الإنسان، فالشريعة الإسلامية عبارة عن مخطط عمل اجتماعي عقلاني المعنى لكل أفعال المسلمين والتي قد أُطّر مجملُها من مدخل الواجب"(٩٩).

وفي تراثنا العلمي عيون وذرر تؤكد ما انتبه إليه هذا الباحث. فقد جاء عن إمامنا مالك رضي الله عنه أنه سئل عن طلب العلم أفرض هو؟ فقال: "أما على كل الناس فلا" يعني به الزائد على ما لا يسع المسلم جهله من أركان وغيرها. وقال أيضًا: "أما من كان فيه موضع للإمامة فالاجتهاد في طلب العلم عليه واجب، والأخذُ في العناية بالعلم على قدر النية فيه"(١٠٠).

وللعلماء تفصيلات مشرقة في رسم إستراتيجيات تدبير الملفات الحيوية للأمة من هذا المدخل، ومن ذلك مثلاً ما خطه الإمام الشاطبي في موافقاته عن الملف التعليمي، إذ قال: "فإذا فرض مثلاً واحد من الصبيان ظهر عليه حسن إدراك وجودة فهم ووفور حفظ لما يسمع -وإن كان مشارِكًا في غير ذلك من الأوصاف- مِيلَ به نحو ذلك القصد، وهذا واجب على الناظر فيه من حيث الجملة مراعاةً لما يرجى فيه من القيام بمصلحة التعليم، فطُلب بالتعلم وأُدّب بالآداب المشتركة بجميع العلوم، ولابد أن يُمَال به منها إلى بعض، فيؤخذَ به ويعان عليه، ولكن على الترتيب الذي نصّ عليه ربانيو العلماء، فإذا دخل إلى ذلك البعضِ فمال به طبعه إليه على الخصوص وأحبه أكثر من غيره تُرِك وما أحبّ وخُصّ بأهله.

وهكذا الترتيب فيمن ظهر عليه وصف الإقدام والشجاعة وتدبير الأمور، فيُمال به نحو ذلك ويُعلَّم آدابه المشتركة ثم يصار به إلى ما هو

(99) Yale Human Right and Development Vol (8.p.106).

(١٠٠) الموافقات، للشاطبي (١/٢٨٢).

أولى فالأولى من صنائع التدبير كالنقابة أو الجندية أو الهداية أو الإمامة أو غير ذلك مما يليق به وما ظهر له فيه نجابة ونهوض". وبذلك يتربى لكل فعل هو فرض كفاية قوم، لأنه يسير أولاً في طريق مشترك، فحيث وقف السائر وعجز عن السير فقد وقف "في مرتبة محتاجٍ إليها في الجملة"، وإن كان به قوةٌ "زاد في السير إلى أن يصل إلى أقصى الغايات في المفروضات الكفائية". وبذلك تستقيم أمور الدنيا وأعمال الآخرة"[١٠١].

وفي الجانب الاجتماعي يقول: في "وجوب الصدقاتِ المطلقةِ وسَدِّ الخَلاَّت ودفعِ حاجات المحتاجين وإغاثة الملهوفين وإنقاذ الغرقى والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويدخل تحته سائر فروض الكفايات، فإذا قال الشارع: ﴿وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾(الحج:٣٦)، أو أمر بكسوة العاري أو قال: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللّٰهِ﴾(البقرة:١٩٥)، فمعنى ذلك طلبُ رفعِ الحاجة في كل واقعة بحسبها من غير تعيين مقدار؛ فإذا تبيّنت حاجة تبيَّن مقدارُ ما يُحتاج إليه فيها بالنظر لا بالنص، فإذا تعين جائع فهو مأمور بإطعامه وسدّ خلّته بمقتضى ذلك الإطلاق، فإن أطعَمَهُ ما لا يرفع عنه الجوع فالطلب باق عليه ما لم يفعل من ذلك ما هو كاف ورافعٌ للحاجة التي من أجلها أُمر ابتداء، والذي هو كاف يختلف باختلاف الساعات والحالات في ذلك المعيّن، فقد يكون في الوقت غير مفرط الجوع فيحتاج إلى مقدار من الطعام فإذا تركه حتى أفرط عليه احتاج إلى أكثر منه، وقد يطعمه آخرُ فيرتفع عنه الطلب رأسًا، وقد يطعمه ما لا يكفيه فيُطلَب هذا بأقلّ مما كان مطلوبًا به.

فإذا كان المكلف به يختلف باختلاف الأحوال والأزمان لم يستقرّ

---

[١٠١] الموافقات، للشاطبي (٢٨٦/١).

للترتيب في الذمة أمر معلوم يطلب ألبتة. فلا يكون معلومًا إلا في الوقت الحاضر "بحسب النظر، لا بمقتضى النص". فإذا زال الوقت الحاضر "صار في الثاني مكلّفًا بشيء آخر لا بالأول" أو سقط عنه التكليف إذا فُرضَ ارتفاع الحاجة العارضة"(١٠٢).

إن علماءنا قد نظروا إلى الواجبات باعتبارها مرتّبة حسب مراتب ثلاث، فثَمة الضروريات ثُم الحاجيات ثم التحسينيات. وأرسوا بناء على هذا الوعي العميق دوائر للواجب يحمي بعضها بعضًا وَفْقَ نسق مفهومي في غاية الدقة، فنصّوا على أن اختلال الضروري بإطلاقٍ يؤدي إلى اختلال الحاجي والتحسيني بإطلاق، وأنه لا يلزم من اختلالهما أو اختلال أحدهما اختلالُ الضروري بإطلاق، كما نصّوا على أن اختلال الحاجي بإطلاق ينجم عنه اختلال التحسيني بإطلاق، ونصوا على أن اختلال التحسيني بإطلاق يؤدي إلى اختلال الحاجي بوجه ما، وأن اختلال الحاجي بإطلاق يؤدي إلى اختلال الضروري بوجه ما. مما يلزم معه الحفاظ على الواجبات المتعلقة بالتحسيني حماية للحاجي، والحفاظ على الواجبات المتعلقة بالحاجي حماية للضروري. وبينوا أن التجرّؤ على الإخلال بالتحسيني منها معرِّض للتجرؤ على ما سواه.

وعلى هذا الإدراكِ قام أصل سدّ الذرائع واعتبار المآل، وقرروا أن المندوب إليه بالجزء واجب بالكل، إذ الإخلال بالمندوب مطلقًا إخلال بركن من أركان الواجب، ونصّوا على أن المندوب في كليته محميةٌ لا يجب خرمها، لأن خرمها يؤدي إلى الإخلال بالواجب وإبطاله. وقالوا في ذلك: "وكل واحدة من هذه المراتب لمّا كانت مختلفة في تأكد الاعتبار

(١٠٢) الموافقات، للشاطبي (١/٢٤٧-٢٤٨).

-فالضروريات آكدها ثم تليها الحاجيات ثم التحسينيات- وكان مرتبطًا بعضها ببعض، كان في إبطال الأخفِّ جرأةٌ على ما هو آكد منه، ومدخل للإخلال به، فصار الأخفُّ كأنه حمى للآكد، والراعي حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، فالمخلّ بما هو مكمِّل كالمخل بالمكَمَّل من هذا الوجه"(١٠٣). قال الإمام الغزالي رحمه الله: "قلّما يُتصوّر الهجوم على الكبيرة بغتة، من غير سوابقَ ولواحقَ من جهةِ الصغائر"(١٠٤).

معظم الواجبات كفائية

وحيث ثبت أن جلَّ الواجبات التي تقوم عليها حياة الأمم في معاشاتها داخلة في الصنف الكفائي، ويقتضي كلٌّ مِن تَبَيُّنها ومَقْدرتها وتقعيداتها وتقنيناتها اجتهاداتٍ مستأنفةً في كل حين، من أجل تنزيلٍ متَّزِن لها على أرض الواقع تكون عاقبته يسرًا... لما ثبت أن الأمر كذلك، فقد كان لعلمائنا كلام مفصل نفيس عن كيفية الاضطلاع بالواجب في سياقاته المختلفة؛ مِن نظرٍ في المآلات وتحقيقٍ للمناطات وتنقيحٍ لها وموازنة دقيقة بين المصالح والمفاسد جلبًا للأُولى إن رجحت، ودفعًا للثانية إن غلبت، تسديدًا وتقريبًا وتغليبًا، مع تحديدات وضيئة لمناهجِ كل ذلك مما هو مفصل في مظانه.

فقه الموازنات واعتبار المصالح

يقول الإمام الشاطبي رحمه الله: "النظر في مآلات الأفعال معتبر مقصود شرعًا، كانت الأفعال موافقة أو مخالفة، وذلك أن المجتهد لا

(١٠٣) الموافقات، للشاطبي (٣١/٢).
(١٠٤) إحياء علوم الدين، للغزالي (٣٢/٤).

يحكم على فعل من الأفعال الصادرة عن المكلفين بالإقدام أو بالإحجام إلا بعد نظره إلى ما يؤول إليه ذلك الفعل [فقد يكون] مشروعًا لمصلحة فيه تستجلب، أو لمفسدة تدرأ، ولكن له مآل على خلاف ما قصد فيه، وقد يكون غير مشروع لمفسدة تنشأ عنه، أو مصلحة تندفع به، ولكن له مآل على خلاف ذلك، فإذا أطلق القول في الأول بالمشروعية فربما أدى استجلاب المصلحة فيه إلى مفسدة تساوي المصلحة أو تزيد عليها، فيكون هذا مانعًا من إطلاق القول بالمشروعية؛ وكذلك إذا أطلق القول في الثاني بعدم المشروعية ربما أدى استدفاع المفسدة إلى مفسدة تساوي أو تزيد، فلا يصح القول بعدم المشروعية، وهو مجال للمجتهد صعب المورد، إلا أنه عذب المذاق، محمود الغِبِّ جارٍ على مقاصد الشريعة"[١٠٥].

وعن فقه الموازنات يقول هذا الإمام: "وإنا وجدنا الشارع قاصدًا لمصالح العباد، والأحكام العادية تدور معها حيث دارت، فترى الشيء الواحد يُمنع في حال لا تكون فيه مصلحة، فإذا كان فيه مصلحة جاز"[١٠٦].

ومفاد ذلك وجوب الموازنة بين الاحتمالات الممكنة في غير المحكم من الأحكام، ترجيحًا وموازنة بين ما تحققه تنزيلاتها في إطار الشرع الحنيف وبمقاييسه وموازينه من المصلحة في الظرف الواقعي المعين، ثم اعتماد الاحتمال الذي يرجُح أنه أكثر تحقيقًا للمصلحة بضوابطها الشرعية المبينة في أماكنها، واعتبار ذلك هو الحكم الشرعي في تلك الحالة، وهذا مناط الاجتهاد فيما مردّ الأحكام فيه إلى النظر. ومن تداعيات الوعي العميق عند علمائنا بهذه الآليات في النظر كونهم درجوا على ألا يُسقطوا

---

[١٠٥] الموافقات، للشاطبي (٤/١٩٤-١٩٥).

[١٠٦] الموافقات، للشاطبي (٢/٢٢٥).

من اعتبارهم الآراءَ المرجوحة في تراثنا الفقهي، إذ هي ذخيرة اجتماعية قد تمس إليها الحاجة في أوضاع لاحقة مختلفة، فما لم يرجح في واقع عيني مشخص نظرًا لملابسات وسياقات معينة، قد يضحى راجحًا ضمن ملابسات وسياقات أخرى، وفقه إمام دار الهجرة إمامنا مالك ﵁ يحضر فيه هذا الوعي العميق بشدة، لانبنائه على قواعد واقعية كعمل أهل المدينة والاستحسان والمصلحة المرسلة وسد الذرائع.

كما نبغ علماؤنا في تقعيد فقه مراتب الأعمال ومنازلها في الفضل، ومعرفة مقاديرها، والتمييز بين عاليها والأقلّ علوًّا، وفاضلها ومفضولها، ورئيسها ومرؤوسها، وسيدها ومسودها. يقول ابن القيم رحمه الله: "فإن في الأعمال والأقوال سيدًا ومسودًا، وذروة وما دونها، كما في الحديث الصحيح: "سيد الاستغفار أن يقول العبد اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك...الحديث"[١٠٧]، وفي الحديث الآخر: "الجهاد ذروة سنام الأمر"[١٠٨]، وفي الأثر: "إن الأعمال تفاخرت، فذكر كل عمل منها مرتبته وفضله، فكان للصدقة مزية في الفخر عليهن" ولا يقطع هذه العقبة إلا أهل البصائر والصدق من أولي العلم، السائرين على جادّة التوفيق، قد أنزلوا الأعمال منازلها وأعطوا كل ذي حق حقه"[١٠٩].

وصعوبة المورد التي أشار إليها الشاطبي آنفًا في هذا الاجتهاد تصبح مضاعفة في واقعنا الراهن، نظرًا لكون العالم قد تقاربت أركانه اليوم بفعل

[١٠٧] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب فضل الاستغفار، رقم: ٦٣٠٦

[١٠٨] رواه بمعناه وهو جزء من حديث أخرجه ابن ماجة في سننه، كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، رقم: ٣٦٧٣. بلفظ: "ألا أخبركَ برأس الأمر، وعموده، وذُرْوَةِ سَنَامِهِ؟ الجهاد".

[١٠٩] مدارج السالكين، لابن القيم (٢٢٥/١).

كل ما تم التوصل إليه من إمكانات. وأضحى تيار التأثير والتأثر يمرّ بين أرجائه بيسر بالـغ، وينطّ فيه الجديد كلَّ عشر ثانية فما أقل، مما يفرض فرضًا الاجتهاد الجماعي متعدد الاختصاصات، وفق منهجيات تكاملية تقوَّم في كل حين حتى تُضمن فاعليتُها ومواءمتُها لتطلبات الواقـع. وهذا هو الدور الحيوي المنوط بمؤسسة العلماء.

مرحلة الجمود وأسبابه

ويحق للمرء بهذا الصدد أن يتساءل عن الأسباب التي تحول دون التوظيف والاستثمار الأمثلين الدائمين والممنهجين لكل هذه الجهود المشرقة في واقعنا الإسلامي خلال الفترات السابقة.

ويمكن إجمال هذه الأسباب في أربعة:

١- السبب العقيدي: أدى انتشار عقيدة إبطال الأسباب في الأمة نتيجة لسوء فهم تقريرات بعض الأئمة كالرازي والغزالي وغيرهما، إلى التواكل الذي أفضى إلى أضرب من العجز، فغيض العطاء، وانكمشت العقول، وفشت الشعوذة، واستتب التعامل مـع الكون استهلاكًا وتأثرًا، وليس إبداعًا وتأثيرًا، مما جَرّ عواقب غير مرضية وأسهم بفعالية في إدخال الأمة إلى فترة من الجمود. ولم يقتصر الأمر على الجانب العملي، بل تعدّت الإصابة إلى الجانب التنظيري العلمي فأسقطت المقاصد، إذ استبعد عند طوائف من العلماء أن تكون الشريعة وضعت لعلة، وبسبب جلب المصالـح العاجلة والآجلة للعباد في الدنيا والآخرة، مما جعل عطاء فقهاء الأمة ينحسر في ترداد ما كان من الفتاوى والأنظار، ويجمد دون مجال

الكشف عن مقاصد الشارع في شرعه مما هو مجاف للشرع نفسه، يقول الشاطبي: "واستقرينا من الشريعة أنها وضعت لمصالح العباد، استقراء لا ينازع فيه الرازي ولا غيره فإن الله تعالى يقول في بعثة الرسل: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾(النساء:١٦٥).

ويقول ابن القيم: "وبالجملة فالقرآن من أوله إلى آخره صريح في ترتيب الجزاء بالخير والشرّ، والأحكام الكونية والأمرية، على الأسباب، بل ترتب أحكام الدنيا والآخرة ومصالحهما على الأسباب والأعمال، ومَن تفقه في هذه المسألة وتأملها حق التأمل، انتفع بها غاية النفع ولم يتّكل على القدر، جهلاً منه وعجزًا وتفريطًا وإضاعة، فيكونَ توكّله عجزًا، وعجزه توكّلاً، بل الفقيه كل الفقه الذي يردّ القدر بالقدر، بل لا يمكن للإنسان أن يعيش إلا بذلك"[١١٠]، ويقول: "وقد رتب سبحانه حصول الخيرات في الدنيا والآخرة، وحصول الشرور في الدنيا والآخرة في كتابه على الأعمال، ترتيبًا للجزاء على الشرط والمعلول على العلة والسبب على المسبب، وهذا في القرآن يزيد على الألف موضع"[١١١].

وهذا السبب العقيدي كان من شأن الوعي به وتجاوزه أن يوسع آفاق الأمة ومداركها ويجنبها الوقوع في نكبات كثيرة، سياسية واجتماعية واقتصادية.

٢- السبب التصوري: سادت في العالم الإسلامي، خلال العصور الأخيرة تصورات سلبية حادت بالمسلمين خاصتهم وعامتهم عن المشاركة الإيجابية في حل مشاكل مجتمعاتهم، وحادت بهم عن التبني المتبادل

---

[١١٠] الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، لابن القيم (ص:١٠).

[١١١] الجواب الكافي، لابن القيم (ص:١٨٨).

لهموم بعضهم البعض من خلال قيام كلٍ حسبَ قدرته بالفروض الكفائية، وتفلتت من وعيهم الجماعي ومن بنائهم التصوري بعض أهم سمات هذا الدين وعلى رأسها الواقعية. فالإسلام دين واقعي، تتجلى واقعيته في تصوراته للإنسان والكون والحياة، وتتجلى في تشريعاته. فالإسلام ينصّ على أن القدرة هي حد التشريع الذي يقف عنده، فلا يتحرك إلا معها، فإذا وقفت القدرة وقف التشريع حيث هو، لا يتقدم ولا يتأخر؛ يقول تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾(البقرة:٢٨٦)، ويقول سبحانه: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾(التغابن:١٦). فليس ثمة ضيق على الإنسان في التشريع، بل هو المجال الواسع الذي يجعله يتحرك براحة وحرية، فإذا ضاق عليه حكم وَسِعه آخر. فهنالك قاعدة "نفي الحرج": ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾(الحج:٧٨).وقاعدة "الضرر يزال" وقاعدة "لا ضرر ولا ضرار" وقاعدة "الأمر إذا ضاق اتسع". إلا أن هذه التصورات والضوابط حين اختفت من أذهان المسلمين اختفت في تقعيدات علماء العصور المتأخرة، فاختفت من واقعهم حركية الإسلام المعهودة ونبضه المألوف.

إن استبطان هذه السمات هو الذي يقدح زند حركة المجتمع المسلم بمنحه لأفراده هذه الأسس التصورية الرافعة لكوابح الكسب النافع.

٣- السبب الفقهي: إن تدبير وتنظيم الاضطلاع المبرئ للذمة بالواجبات الكفائية في كافة جوانب الحياة العامة، من وظائف مؤسسة الإمامة العظمى، فهي القائمة على تقديرها وتنسيقها وتدبيرها. وعلى "النظر الكلي في كفاية أهم الأشغال" كما قال الإمام الجويني في الغياثي بعد ذكره مهام مؤسسة الإمامة العظمى[١١٢]. فإلى الإمامة العظمى إذن

---

[١١٢] الغياثي، للجويني (ص:١٤٩).

يعود تقدير الفروض الكفائية وتنسيقها وتدبيرها والنظر الكلي في كفاية أهم الأشغال، ولكن هذا لا يعني بحال تبرئة ذمة المواطنين من القيام بواجباتهم في هذا الصدد. وهو ما قرره إمام الحرمين بقوله: "ومما يجب الإحاطة به أن معظم فروض الكفاية مما لا تتخصص بإقامتها الأئمة، بل يجب على كافة أهل الإمكان أن لا يغفلوه ولا يغفلوا عنه. وإن ارتفع إلى الإمام أن قومًا يعطلون فرضًا من فروض الكفايات زجرهم وحملهم على القيام به"[١١٣]، إلى أن يقول: "والدنيا بحذافيرها لا تعدل تضرر فقير من فقراء المسلمين في ضر، فإن انتهى نظر الإمام إليهم رمَّ ما استرمّ من أحوالهم، فإن لم يبلغهم نظر الإمام وجب على ذوي اليسار والاقتدار البدار إلى دفع الضِّرار عنهم، وإن ضاع فقير بين ظهراني موسرين حرجوا من عند آخرهم وباؤوا بأعظم المآثم وكان الله طليبهم وحسيبهم. وقد قال رسول الله ﷺ: "من كان يومن بالله واليوم الآخر، فلا يبيتنّ ليلةً شبعانَ وجاره طاو"[١١٤]. وإذا كان تجهيز الموتى من فروض الكفايات، فحفظ مهج الأحياء وتدارك حُشاشَة الفقراء أتم وأهم"[١١٥].

ولتحقيق هذه المقاصد مضى إجماع علماء المسلمين على وجوب إقامة الإمامة العظمى حفاظًا على حقوق الأمة المرتهنة بالقيام بالواجبات الكفائية على وجه الكفاية، ولولا الإمامة، وكما قال العز بن عبد السلام رحمه الله: "لفاتت المصالح الشاملة وتحققت المفاسد العامة واستولى القويّ على الضعيف"[١١٦]. وللإمام الجويني -رحمه الله- في الغياثي مثل

---

[١١٣] الغياثي، للجويني (ص:١٥٥-١٥٦).

[١١٤] رواه البخاري في الأدب المفرد (ص: ٤٦).

[١١٥] الغياثي، للجويني (ص:١٧٣-١٧٤).

[١١٦] قواعد الأحكام في مصالح الأنام، للعز بن عبد السلام (ص:٥٨).

هذا القول[١١٧]، ولم يشذ عن هذا الإجماع إلا النجدات من الخوارج والأصم من المعتزلة كما روى ذلك الإمام القرطبي المالكي[١١٨].

غير أن انحرافًا عن هذه المقاصد قد وقع منذ وقت مبكّر، فقد أتت على الأمة أحيان من الدهر طغى فيها على الانشغال بالاضطلاع بالفروض الكفائية وتنظيمِها، وبالمجتمع وقضاياه، اشتغال بالنزاعات والثورات، والثورات المضادّة، وبالتمكين للدول القائمة على أنقاض دول، وتتبع بقايًا وجذور الدول المسقطة، كما سُجِّل انزلاق في وهاد مشاريع وهمية، كسقوط دولة المأمون في فخ فتنة خلق القرآن، وغيرها من الفتن، وما أعقب ذلك من انفصامات عدة في جسم الدولة، وأعاق جزئيًّا التطور الطبيعي لكسب الأمة الفقهي، والعلمي التنزيلي في هذه الاتجاهات. فلم يُشحذ فقه المجتمع، ويبرد بالمناظرات والحوارات والرسائل، شأن فقه الأفراد (فقه العبادات بشكل خاص)، إذ لم يكن همّ التنظير للحياة في المجتمع والاضطلاعِ بالفروض الكفائية، وهمّ استنباط الأحكام الخاصة بذلك همَّ جمهور الفقهاء، ولم يتوجه إلى ذلك إلا بعض النابهين منهم، مما يفسر ندرة ما يتداول من العناوين في هذا المضمار، حتى بين خاصة العلماء، كالأحكام السلطانية للماوردي، والسياسة الشرعية لابن تيمية، والطرق الحِكَمية في السياسة الشرعية لتلميذه ابن القيم، وسلوك المالك في تدبير الممالك، لابن أبي الربيع، وما دبّجه ابن خلدون في مقدمته. وغير ذلك قليل.

مما يقتضي اجتهادًا مستأنفًا تنخرط فيه بوظيفية كلُّ المؤسسات البحثية

---

[١١٧] غياث الأمم في التياث الظلم، للجويني (ص:٢٤).

[١١٨] الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١/٢٦٥).

المعنية من مقترب تنظيم الواجبات الكفائية تحت قيادة مؤسسة الإمامة العظمى، وهو مقترب يمنح -كما تقدم- مدخلاً نسقيًّا للشأن العامّ ويمكّن من القيام بهندسة اجتماعية راشدة.

٤- الصدمة الحضارية: لقد نشطت المجتمعات المسلمة أفرادًا ومؤسسات -عبر التاريخ- لإقامة الواجبات الكفائية وأبدعت في ذلك، تشهد بذلك أوقاف المسلمين في تنوعها وإبداعيتها، وكذا التدبيرات السلطانية والمخزنية في الموانئ والثغور، وتسبيلُ السبل وبناءُ المرافق، وحفظُ الأمن وإقامة المعاهد العلمية، وغير ذلك من الوظائف كثير، مما يؤشر على النبض الذي كان في المجتمعات المسلمة، وقد واكب هذه الأعمال جهود تقعيدية وتنظيرات علمية رائعة، لا يزال جلها -للأسف- ثاويًا في بطون السجلات والدفاتر المخزنية والكنانيش الوقفية، وتحتاج إلى استخراج وترتيب ودراسة حتى لا نقسو حضاريًّا على أجيالنا السالفة بسبب عدم التعرف على جهودهم في هذه المجالات، وهذا يحتاج إلى تجسير معرفي -تصالحي- بين أجيال علماء الأمة، خصوصًا بين أجيال ما قبل الاستعمار وما بعده من العلماء والباحثين، وهو تجسير لا يمكن أن يتم إلا بالوقوف على اجتهاداتهم وعلى شدّة الصدمة التي ما كانت تغني عنها هذه الاجتهادات في ما مهّد للاستعمار من فترات فأثمر ما أسماه مالك بن نبي -رحمه الله- "القابلية للاستعمار".

يقول المؤرخ المنصف "Marshal Hodgson" في كتابه القيم: "التفكير المستأنف في تاريخ العالم": "إلى حدود القرن السابع عشر من حقبتنا التاريخية هذه، كانت المجتمعات المرتبطة بالديانة الإسلامية أغنى المجتمعات في الشق الأفرو (أورو) آسيوي من العالم، وكانت الأكثر

تأثيرًا على المجتمعات الأخرى، وقد كان ذلك في جزء منه بسبب موقعها الجغرافي المركزي، ولكن كان ذلك أيضًا بسبب أنه كانت تظهر فيها وبفعالية ضغوط ثقافية مدنية لا تقليدية نزاعة نحو المساواة. لقد أضحت ثقافة العالم الإسلامي مقياسًا للتقدم العالمي لشعوب كثيرة وهي تندمج في مجاله الاقتصادي والحضاري، كما منحت هذه الثقافة إطارًا سياسيًّا مرنا للأعداد المتصاعدة من المتحضرين الأصلاء. لقد كانت المجتمعات الإسلامية تبرهن على إبداعية مستدامة وعلى نماء، رغم أن بعض الفترات كانت أكثر إبداعية من أخرى. إلى أن بلغنا العصر الحديث، حيث انقطع هذا التطور ليس بسبب انهيار داخلي، ولكن أساسًا بسبب أحداث خارجية غير مسبوقة"(١١٩).

ويقصد بهذه "الأحداث الخارجية غير المسبوقة" الطفرات العلمية التي انطلقت في الغرب، وهي طفرات قد فَرضت على العالم -آنذاك- إيقاعًا جديدًا لم يكن عنده بمألوف.. إيقاعٌ لم يواكبه الكسب السياسي والاجتماعي والعلمي الممكِّن من مجاراته ومن الفعل الحضاري ضمن شروطه.

وبين أيدينا نص نفيس معبر التقط فيه المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي المتوفى سنة (١٢٤٠هـ/١٨٢٥م) ببراءة وأمانة، هذه اللحظةَ الحضارية بالذات، حين كلامه عن حملة نابليون في مصر، قال ضمن أحداث سنة (١٢١٣هـ): "أحدثوا على التل المعروف بتل العقارب بالناصرية أبنية وكرانك وأبراجًا، ووضعوا فيها عُدّة من آلات الحرب، وأفردوا للمدبّرين (أي العلماء القائمين على التجارب) حارة الناصرية، وإذا حضر إليهم بعض المسلمين ممن يريدون الفرجة لا يمنعونه الدخول إلى أعز أماكنهم،

(119) Marshal Hodgson, Rethinking World History, (pp.97).

ويتلقونه بالبشاشة والضحك.

ومن أغرب ما رأيته في ذلك المكان أن بعضهم قد أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة، فصب منها شيئًا في كأس، ثم صبّ عليها شيئًا من زجاجة أخرى فَعَلا الماء وصعد دخان ملون، حتى انقطع وجفّ ما في الكأس، وصار حجرًا أصفر، فأخذناه بأيدينا ونظرناه، ثم فعل ذلك بمياه أخرى فجمد حجرًا أزرق، وبأخرى فجمد حجرًا ياقوتيًا. وأخذ مرة شيئًا قليلاً من غبار أبيض ووضعه على السندال، وضربه بالمطرقة بلطف، فخرج له صوت هائل كصوت القرابانة، انزعجنا منه فضحكوا منّا. وأداروا زجاجة فتولّد من حركتها شرر يطير بملاقاة أدنى شيء كثيف، ويظهر له صوت وطقطقة، وإذا لمس شخص ولو خيطًا لطيفًا متصلاً بها، ولمس آخرُ الزجاجة الدائرة، أو ما قرب منها بيده الأخرى، ارتج بدنه وارتعد جسمه وطقطقت عظام أكتافه وسواعده في الحال برجّة سريعة، ومن لمس هذا اللامس أو شيئًا من ثيابه متصلاً به حصل له ذلك، ولو كانوا ألفًا أو أكثر. ولهم فيه أحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا يسعها عقول أمثالنا"[١٢٠].

"لا يسعها عقول أمثالنا" إنها عبارة قصيرة، ولكنها مشحونة بالدلالات، تعبّر عن شدّة الصدمة وعن التسليم النفسي الذي تلاها، وعند علية القوم. فعبد الرحمن الجبرتي في تلك اللحظة التاريخية كان من خاصة العلماء، بمعنى أن التوتر الحضاري قد فقد بسبب هذه الصدمة قبل أن يعقُبه التماسك في الأمة وفي علمائها، إلا ما استثني من بعض الأفراد الذين كانوا يعيشون غربة، وقد كانت هذه حالة عامة في المشرق والمغرب،

---

[١٢٠] عجائب الآثار، لعبد الرحمن الجبرتي، حوادث سنة ١٢١٣هـ.

وذلك بفقد العزم على فهم الظواهر المحيطة "وهذا ما لا تدركه عقول أمثالنا"، وإذا فقد هذا العزم على فهم الظواهر المحيطة فقد تم الوقوع في البكم الحضاري، وقد مرّ مَعَنا معنى البكم عند الكلام عن قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاَهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(النحل:٧٦). فهو العجز عن الفهم والتفهيم، والبكَم مقدمة الكلالة أي الثقل وفقدان الإرادة ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاَهُ﴾، والكلالة مقترنة بالبكم تؤدي لا محالة إلى العجز: ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾، فلا غرو أن لا يستفاد ضمن شروط نفسية كهذه من الثروات المعرفية التي تمتلكها الأمة في بلورة مناهج التفهم وتحقيقات المناطات وتنقيحاتها توصلاً إلى مناهج الصياغة التنزيلية لتناول هذه المستجدات، وتبيّن ما يجب إزاءها من واجبات، وهذه الحالة الثانية هي المقصودة في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

غير أن هذه الصدمة الحضارية -بفضل الله- كانت صدمة أعقبها تماسك فنهوضٌ فغذٌّ للسير، وها هم أبناء الأمة وبناتها اليوم بعد قرنين ونيف (٢٠٩ سنة) من هذه الظرفية التي اجتازتها الأمة وعبّر عنها ببراءة ووضوح وأمانة الشيخُ الجبرتي رحمه الله -وما قرنان ونيف في الزمن الحضاري؟!- وها هم منغمرون بدافع من الشعور بالواجب أشدّ ما يكون الانغمار في أحدث العلوم، داخل الأوطان وخارجها، لا يرددون عبارات الصدمة وإنما يرددون -بحمد الله- عبارات التنافسية البناءة، ولم يكن خلال هذه الرحلة كلّها كالشعور بالواجب زادٌ يحمل المكلفين على البذل والمثابرة.

فهذه جملة أسباب نرى أنها كانت خلال هذا الزمن الوجيز حضاريًّا

وراء ما كان من ارتخاء حضاري وقلة في الفاعلية. وإننا لنرقب بارتياح كبير مؤشرات الوعي العام بها في الأمة، مما يبشر بغد أحسن عاقبة وأيسر مآلاً. والله المستعان.

المبحث الثاني عشر:

المسلمون وحقوق الإنسان

قراءة في المقتضيات السياقية،

والمستلزمات المعرفية، وآليات التعاطي

صناعة الإنسان في الإسلام تتغيّا إخراج إنسان متحرر، ليس في ضميره أو جسده فحسب، وإنما متحرر أيضًا في رأيه، وفي أسلوب تعبيره عنه. فالإنسان في الإسلام يُتغيّا أن يكون متحررًا من سلطان العباد. وإن جوهر الاستخلاف والأمانة هو القدرة على أداء الواجبات، وانتزاع التمتع بالحقوق.

المسلمون وحقوق الإنسان

قراءة في المقتضيات السياقية، والمستلزمات المعرفية، وآليات التعاطي[١٢١]

ركّز التداول حول كونية حقوق الإنسان في عمومه، كثيرًا على إشكالية مدى مخالفة أو مواءمة القانون العالمي لحقوق الإنسان للممارسات التشريعية والثقافية المحلية، كما رام هذا التداول فكّ العُقَد بهذا الخصوص لصالح البراديغم الكوني... ويلاحظ بجلاء، أن عناية أقل بكثير، قد أوليت إلى البحث عما يمكن أن يفيده ويَثْرى به الإعلان العالمي لحقوق الإنسان بدراسة الأنساق التشريعية والثقافية الكونية المختلفة.

وقد طرحت كونية حقوق الإنسان، تحديات معتبرة على المختصين والباحثين، من أمثال Kimberly Younce Schooley[١٢٢]، وعبد الله أحمد نعيم[١٢٣]، Charles Taylor[١٢٤]، و Fernando R. Teson[١٢٥]، ورضى أفشاري[١٢٦]، وغيرهم.

---

[١٢١] مجلة حراء، العدد: ٣٦-٣٧-٣٨ (مايو-يونيو ٢٠١٣/يوليو-أغسطس ٢٠١٣/سبتمبر-أكتوبر ٢٠١٣)

[122] Kimberly younce schooley, Comment, cultural Sovreignty, Islam and Human Rights, Toward a communitarian Revision.

[123] Abdullah Ahmed An-Naim: Human Right in The Muslim World.

[١٢٤] في كتابه "Multicultiralism and the politic of recognition".

[125] Fernando Teson; International Human Right, and cultural relativism.

[126] Reza Afshari an Essay on islamic cultural relativism in the discourse of Human Rights.

ولا يخفى أن هذه المسألة تكتسي أهمية استثنائية من الناحية البرجماتية العملية الصرف، بالإضافة إلى أهميتها العلمية والمعرفية، وذلك لأن التجانف، بل والتنكر للحقوق الإنسانية، أمر في غاية الورود إذا لم تراع أثناء عملية تنزيلها، مواءمتها الثقافية للسياقات الحضارية، والأنثربولوجية المستقبِلة. ولأن المصداقية الثقافية لهذه الحقوق لدى المتلقين محورية في عملية تملكهم لها، فإنه ينبغي تشجيع الجهود الرامية إلى تعويض الفرض والإقحام والإلزام بالتوطين والإفهام والإسهام. وذلك ليس فقط من أجل ضمان مشروعية حقوق الإنسان في مختلف المجتمعات، ولكن أيضًا لما يتيحه هذا الأمر من إمكانات في المجال الحقوقي؛ للإفادة والربح المتبادلين، بسبب تضافر وتواشج أضرب الخبرة والحكمة العالمية الغنية والمتنوعة، مما من شأنه أن يجعل حقوق الإنسان -كما هي متعارف عليها كونيًا- أكثر جاذبية، وأوفر قابلية للتطبيق والتبني في كافة المجتمعات.

إلا أن جملة صعوبات تعترض سبيل هذا الطموح، ومن أبرز هذه الصعوبات؛ الاختلاف الجوهري بين الأسس البراديجماتية التي تنبني عليها التشريعات الكونية لحقوق الإنسان، وتلك التي تنبني عليها كثير من التشريعات العالمية الأخرى. وأبرز مثال على هذا الاختلاف الجوهري، كون الحقوق في القانون العالمي لحقوق الإنسان صريحة ومباشرة، في حين أن ما يقابلها من واجبات، متضمنة -وقد تكون أحيانًا متضاربة- وهو ما يشير إليه "دوكلاس هودكسون" (Douglas Hodgson) بقوله: "في قانون حقوق الإنسان، الحقوق صريحة ومباشرة، في حين أن ما يقابلها من واجبات تبقى متضمنة ومتضاربة وغير مغناة من الناحية التنظيرية،

بيد أن العكس هو الصحيح في عدد من المنظومات التشريعية والقيمية والعقدية الأخرى، كالشريعة الإسلامية، والشريعة اليهودية، والنصرانية، والهندوسية، والكنفوشيوسية"(١٢٧).

ولأن المقاربة المؤسسة على الحقوق، وكذا تلك المؤسسة على الواجبات، كلتاهما تصدران عن رؤية براديجماتية متجذرة لها تجلياتها في سائر مفردات الكسب التشريعي والتنزيلي للمنظومتين، فإنه لا يمكن الزعم بأن التوفيق بينها يمكن أن يتم بدون بذل ما يلزم من جهد واجتهاد في أفق الإسهام في حل عدد من الإشكالات المطروحة بهذا الصدد كونيًّا.

وتبتغي هذه الدراسة وضع جملة لبنات وظيفية، تسهم في التعزيز التعارفي لمقاربة "النسبية المعتدلة المعكوسة" (Reverse Moderate Relativism: R.M.R) والتي تختلف عن مقاربة "النسبية الثقافية المعتدلة" (Moderate Cultural Relativism: M.C.R)، حيث إن الأولى تعنى بالنظر التعارفي المنفتح، إلى ما يمكن أن تغني به المنظومات التشريعية المختلفة، منظومة حقوق الإنسان الكونية، بيد أن الثانية تقتصر على النظر في كيفية زرع وفسل منظومة حقوق الإنسان في المنظومات التشريعية الأخرى(١٢٨).

غير أنه مع انبثاق الجيل الثالث من حقوق الإنسان، الحقوق التضامنية؛ كالحق في البيئة السليمة والحق في السلام والحق في التنمية، تبين أن مكوّن الحقوق يفتقر إلى التواشج مع مكوّن الواجب في طفرة متجاوزة لما كان عليه الأمر في الجيلين السابقين من حقوق الإنسان، جيل الحقوق

---

(127) Douglas Hodgson, Individual duty Within a Human Right Discourse pp: 41- 60, 2003.

(١٢٨) انظر Jason Morgan Foster كتاب جامعة ييل عن حقوق الإنسان والتنمية ٨/٦٩.

المدنية والسياسية ثم جيل الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، المرتكزين على البراديغم القائم على الحقوق فقط. وسبب ذلك، على حد تعبير الباحث Ben Saul: "إن النضالات التي قامت بها حركة حقوق الإنسان ضد الاستبدادات المختلفة في مرحلة أولى وفي مرحلة ثانية، ضد النفاقات الاجتماعية، والإقصاء، ونقائص النضالات السالفة، والتي ارتكزت جميعُها على مواجهة ما كان يفرضه المتنفدون من واجبات ظالمة على الأفراد، فقد بلورت حركة حقوق الإنسان حذرا وحساسية تلقائيين، تجاه كل لغة فيها حضور لمفاهيم الواجب والإلزام، وهما حذر وحساسية مبرران، بالنظر إلى تاريخ هذه الحركات النضالي"[١٢٩].

ومن هنا تأتي المعاناة التي ترافق السعي إلى تنزيل الجيل الثالث من حقوق الإنسان، والتي تستدمج في عين بنيتها، ضرورة الارتكاز على الواجبات أيضًا، بإزاء الحقوق التي لا يمكن جلبها للأفراد إلا إذا كان لديهم الاستعداد للقيام بواجباتهم بهذا الخصوص. فمثلاً، لا يتصور النهوض بتنمية بدون انخراط الأفراد في هذا النهوض من خلال القيام بواجباتهم بهذا الصدد. مما يستدعي وجوب مواكبة هذه الحقوق أولاً: بنسيج تأهيلي، تصوريًا، وتربويًا، ونضاليًا، وتقويميًا بطريقة قصدية، وإلا فستبقى الحقوق التضامنية مجرد شعارات. ومواكبتها ثانيًا بنسيج تشريعي احترازي، لحمايتها من الارتداد إلى أتون الدولانية (Etatism) من جديد كما يقول "دون. إي. إيبرلي" (Don. E. Eberly) في كتابه Building a Community of Citizen.

وجليّ أن هذا التواشج بين الحقوق والواجبات، من خلال الاستمداد من مختلف المرجعيات تأسيسًا على مكتسب حقوق الإنسان في كونيتها

(129) Ben Saul, Supra-note 62, at 616.

وعدم تجزيئها، يمكن أن يسهم في اختراع مفهوم دينامي للمواطنة في عالم اليوم المعولم، في منأى عن الشعاراتية، وفي حرص على بحث عقد اجتماعي، فيه التجانف عن الاقتصار على الإستراتيجيات الفوقية، والتشريعات غير المرفقة بالتدابير الإجرائية التنزيلية على أرض الواقع، في مراعاة لكافة مقتضيات السياق.

أولاً: المرتكزات

يروم هذا المبحث الأول، إبراز المرتكزات التي يتأسس عليها مقصد ضمان حقوق الإنسان في الإسلام.

أ- التكريم

يشكّل مبدأ التكريم الإلهي للبشر، معلمًا بارزًا من المعالم التي تستنبط منها مقصدية ضمان حقوق الإنسان، وذلك تأسيسًا على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾(الإسراء:٧٠). فحين يتم تجذير الوعي بالتكريم في كيان الفرد، وتتم مواكبة ذلك بإتاحة المقومات الديداكتيكية للتنشئة، والمقومات التشريعية للنهوض والحماية(١٣٠)، فإنه

---

(١٣٠) ومن ذلك الوفرة في الآيات والأحاديث التي واكبت التنشئة والتشريع، من مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾(البقرة:٣٤)، وقوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۞ فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾(ص:٧٢-٧٣)، وقوله ﷺ عند طوافه بالكعبة: "ما أطيبك وأطيب ريحك، ما أعظمك وأعظم حرمتك. والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك" (رواه ابن ماجة وصححه الألباني في صحيح الترغيب ٢/٦٣٠). وقوله ﷺ: "كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله" (أخرجه مسلم رقم الحديث

يسهل أن ينبثق في حالة تهديد هذا التكريم، مثل رد فعل عمر بن الخطاب ﵁ المشهور حين قال لعمرو بن العاص وقد ظلم قبطيًّا: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا"[١٣١].

ومن مقومات هذا التكريم في القرآن والسنة:

١- **الإيجاد**[١٣٢]

٢- تكريم إحسان التقويم: وهو المشار إليه في الآية الكريمة: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾(التين:٤)، وكذا الآية: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾(التغابن:٣).

٣- تكريم إعظام الدور: وهو تكريم يظهر من خلال التكليف بإعمار الأرض كما في الآية: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾(هود:٦١)، والآية: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾(الأعراف:١٠)، وكذا الآية: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً﴾(طه:٥٣).

ويسجل بهذا الصدد أن ارتكاسًا كبيرًا حصل بعد فترة التأسيس هذه، لأسباب متداخلة لا يتسع المقام هنا لذكرها[١٣٣].

٢٥٦٤)، وغير ذلك من الآيات الكريمات والأحاديث الشريفة.

[١٣١] جلال الدين السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ١٠/٢.

[١٣٢] من أدلة ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ﴾(المومنون:١٢)، وقوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾(السجدة:٧)، وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾(الحجر:٢٦)، وقوله ﷻ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾(الروم:٢٠).

[١٣٣] انظر بهذا الخصوص، كتاب الإسلام وهموم الناس، أحمد عبادي، كتاب الأمة العدد:٤٩، الدوحة ١٩٩٦م. وانظر أيضًا نماذج عائشة ﵂، وأبي ذر، والحسين بن علي، وعبد الله بن الزبير من الصحابة ﵃، وفي جيل التابعين نماذج سعيد بن جبير، وأبي مسلم الخولاني،

٤- **الخلافة**: تعكس خلافة الإنسان في الأرض أسمى مراتب التكريم الإلهي؛ ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾(البقرة:٣٠).

٥- **التسخير**: كما في الآيات: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ ۞ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۞ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾(إبراهيم:٣٢-٣٤)[١٣٤].

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾(الحج:٦٥).

٦- **إيداع القدرة على وسم الأشياء من أجل تعقلها وتوظيفها**: قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(البقرة:٣١)، مما يمكن الإنسان من تنمية قدراته الإدراكية التي تسعفه في تنمية استقلاليته من خلال تزايد قدرته على الفعل في الكون بالتسخير، ولذلك يسمي بعض الباحثين العلوم الكونية "علوم التسخير"[١٣٥].

وفي جيل أتباع التابعين نماذج أبي حنيفة، ومالك، وسفيان الثوري، وغيرهم.

[١٣٤] وفي القرآن الكريم نسيج متكامل في الآيات بهذا الصدد، منها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾(لقمان:٢٠).

[١٣٥] أحمد عبادي، مفهوم الترتيل في القرآن المجيد: النظرية والمنهج.

٧- **الوحي/الكلمات**: وهو المستفاد من العديد من الآيات كما في قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾(البقرة:٣٧)، والآية: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾(البقرة:١٢٤).

والإفادة من قدرة الأسماء ومن إيتاء الكلمات، لا يمكن أن تتم في منظومة الوحي إلا بالنظر والتفكّر والتعقُّل؛ فالاستدلال بالأدلة من أوجَبِ الواجبات بعد الإيمان الفطري الجبلِّي. وإلى هذا ذهب البخاري -رحمه الله- حيث بوَّب في كتابه "باب العلم قبل القول والعمل لقول الله ﷻ": ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾(محمد:١٩).

٨- **إتاحة العلاقة المباشرة بين العبد وربه**: فقد ألغى الشَّارع الحكيم أيَّ وساطة بينه وبين عبادِه تفسد الاعتقاد الجازِمَ به سبحانه[١٣٦]، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾(البقرة:١٨٦).

٩- **الحرية: قال الراغب الأصفهاني**: "الحرية ضربان: الأول من لم يجر عليه حكم الشيء، نحو "الحر بالحر". والثاني: من لم تتملكه الصفات الذميمة من الحرص والشره على المقتنيات الدنيوية، وإلى العبودية التي تضاد ذلك أشار النبي ﷺ بقوله: "تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار"، وقيل: عبد الشهوة أذل من عبد الرقّ"[١٣٧].

وقال الجرجاني صاحب التعريفات: "الحرية في اصطلاح أهل

---

[١٣٦] كاتخاذ كفار مكة الأصنام واسطةً، وقولِهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾(الزمر:٣).

[١٣٧] مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، الطبعة:٣، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص:٢٢٤.

الحقيقة: الخروج عن رق الكائنات وقطع جميع العلائق والأغيار، وهي على مراتب: حرية العامة عن رق الشهوات. وحرية الخاصة عن رق المرادات لفناء إرادتهم في إرادة الحق. وحرية خاصة الخاصة عن رقّ الرسوم والآثار لانمحاقهم في تجلّي نور الأنوار"[١٣٨].

وهو ما ينص عليه القرآن الكريم في الآية: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾(البقرة:٢٥٦)، وفي الآية: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾(هود:٢٨)، وكذا الآية: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾(الكهف:٢٩)، وفي الآية: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾(الإنسان:٢٩)، وفي الآية: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾(يونس:٩٩)، وفي الآية: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾(الغاشية:٢٢).

وقد سيقت كلمة "إكراه" بالتنكير في قوله تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، والتنكير عند علماء الأصول، يفيد الاستغراق لكل مرتبة أو نوع من الإكراه. قال الإمام محمد الطاهر بن عاشور -رحمه الله- في تفسير آية نفي الإكراه؛ البقرة ٢٥٦: "جيء بنفي الجنس لقصد العموم نصًّا، وهي دليل إبطال الإكراه بسائر أنواعه؛ لأن أمر الإيمان يجري على الاستدلال والتمكين من النظر"[١٣٩].

وما أجمل ما قال عبد المتعال الصعيدي بهذا الصدد في كتابه "حرية الفكر في الإسلام": "مثل المرتد مثل الكافر الأصلي في الدعوة إلى الإسلام، فكما يُدْعَى الكافر الأصلي في الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ويجادل بالتي هي أحسن، كذلك يدعى المرتد إلى العودة إلى

---

[١٣٨] التعريفات، تحقيق الأبياري، بيروت، لبنان، دار الكتاب العربي، ط:١٩٨٥م، ط:١١٦.

[١٣٩] التحرير والتنوير، الشركة التونسية للتوزيع، ٣/٢٦.

الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ويجادل بالتي هي أحسن، ولا يكره على العودة إليه بوسيلة من وسائل الإكراه، كما لا يكره الكافر الأصلي على الإسلام بهذه الوسائل أيضا"[١٤٠].

وقد أحسن بعض الدارسين حين فكك الردة إلى قسمين: مركبة، فيها الارتداد عن الدين ومفارقة الجماعة والعمل على إلحاق الأذى بها، وردة بسيطة فيها الارتداد عن الدين فقط. وقد ذهب العلماء إلى أن الردة غير المركبة تجري عليها أحكام قوله تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[١٤١].

فالحرية في المنظومة التشريعية الإسلامية هي الأصل، قال محمد الطاهر بن عاشور: "الحرية وصف فطري نشأ عليه البشر، وبه تصرفوا في أول وجودهم على الأرض، حتى حدثت بينهم المزاحمة، فحدث التحجير"[١٤٢].

ب- التكليف

يبرز الإنسان في منظومة الإسلام الاعتقادية والتصورية، باعتباره الجسر الكوني المؤهَّل الذي تعبر منه القيم والأخلاق، والتشريعات الحاملة لمراد الله التكليفي من الإنسان تجاه نفسه ومحيطه الكوني، إلى البعدين الزماني والمكاني، لتصبح جزءًا من التاريخ والحياة. ويبرز التكليف الملقى على عاتق هذا المخلوق (الأمانة): ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾(الأحزاب:٧٢)، باعتباره تكليفًا لا يعرف

---

[١٤٠] حرية الفكر في الإسلام، ص:٧٣.

[١٤١] أحمد الريسوني في العيد من حواراته.

[١٤٢] الطاهر بن عاشور، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، دار الكتاب، تونس ط ١٩٧٧م، ص:١٦٢.

حصرًا ولا حدودًا، إذ الكون كله في هذه المنظومة مسرح لفعل الإنسان وعتاد له. فالنوع الإنساني كله موضوع فعله الأخلاقي، كما الكون كله.

وتبرز مقومات القيام بالواجب في هذه المنظومة الاعتقادية والتصورية من خلال:

١- تزويد الإنسان بالعقل وجعله مناط التكليف: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(النحل:٧٨).

٢- المواءمة بين الإنسان والكون من جهة "التسخير": ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾(الجاثية:١٣)، وبين الإنسان والوحي من جهة ثانية "التيسير": ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾(القمر:٤٠).

٣- قصدية الخلق: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ۝ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ ۝ إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾(الذاريات:٥٦-٥٨).

٤- بنائية الشرع والعقيدة ووحدتهما ومفهوميتهما، فمقاصدُهما، وأوامرهما، ونواهيهما واضحة قابلة للتعقل، ومتكاملة تحرر تماسكًا يُمكِّن من تحديد الأولويات وتبيُّن مراتب الأعمال.

ويعتبر تكليف الإنسان بتزكية نفسه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾(الشمس:٩-١٠)، إفادة بالتأسي ممن تم تكليفه بريادة هذا الفعل عمرانيًا: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾(الجمعة:٢).

يعتبر هذا التكليف، رافعة عملية تستند على الواجب إزاء الحق، لتمكين

الإنسان فردًا واجتماعًا من ضمان الحقوق والاسترواح في ظلها؛ لأن التزكية بهذا المقترب القرآني ذات حمولة وظيفية وليست فقط استيطيقية.

جـ- الجزاء

وهنا يبرز دور المسؤولية والمحاسبة؛ إذ برز أن على الإنسان مسؤولية العمل في ذاته وفي محيطه، وفق قيم الوحي الحاكمة وشرائعه الموجِّهة. وقد زوِّد بالقدرات التي تُمكّنه من الاضطلاع بذلك، وكان الكون قابلاً لفعله مسخرًا له، وكان الوحي مُيَسَّرًا له متستجيبًا لتساؤلاته: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾(النحل:٨٩). فإن ذلك يستتبع المحاسبة التي يُجزى بمقتضاها المحسنون عن إحسانهم، والمسيئون عن إساءتهم. وهذا البناء هو الذي يحرر الشعور المتسامي بالواجب، وهو شعور انزرع في نفوس المسلمين، فأثمر المسلكيات والممارسات التي رفعت، في جمالية صرح الحضارات والثقافات الإسلامية المتنوعة.

وهو ما انتبه إليه الباحث الأمريكي Jason Morgan Foster حين قال: "ولأن الواجبات لها مركزية في الاعتقاد والتطبيق الإسلاميين، فإن لغة وبنية الواجبات تطورت في الشريعة الإسلامية، وهما إلى حد بعيد أكثر تركيبًا من الإحالات البسيطة إلى الواجبات التي نراها في الإعلانات العالمية لحقوق الإنسان، فالشريعة الإسلامية عبارة عن مخطط عمل اجتماعي عقلاني المعنى لكل أفعال المسلمين، والتي قد أُطّر مجملُها من مدخل الواجب"[١٤٣].

[143] Yale, human rights and development, Vol.8 pp.106.

وفي التراث العلمي الإسلامي وفرة من الشواهد تؤكد ما انتبه إليه هذا الباحث. منها ما جاء عن إمامنا مالك ﷺ أنه سئل عن طلب العلم أفرض هو؟ فقال: "أما على كل الناس فلا" يعني به الزائد على ما لا يسع المسلم جهله من أركان وغيرها... وقال أيضًا: "أما من كان فيه موضع للإمامة فالاجتهاد في طلب العلم عليه واجب، والأخذُ في العناية بالعلم على قدر النية فيه"[١٤٤]، فانظر إلى هذه الدقة في التمييز بين الواجب ومناطه.

ثانيا: التشريعات

صناعة الإنسان في الإسلام تتغيّا إخراج إنسان متحرر، ليس في ضميره أو جسده فحسب، وإنما متحرر أيضًا في رأيه، وفي أسلوب تعبيره عنه. فالإنسان في الإسلام يُتغيّا أن يكون متحررًا من سلطان العباد[١٤٥]. وإن جوهر الاستخلاف والأمانة هو القدرة على أداء الواجبات، وانتزاع التمتع بالحقوق: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾(النساء:٩٧).

وقال سبحانه: ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾(النساء:٧٥).

وقد استنبط الإمام مالك من هذه الآية أن براءة الذمة بخصوص

---

[١٤٤] الموافقات ٢٨٢/١

[١٤٥] قال ربعي بن عامر تعبيرًا عن المقصد الكلي للإسلام في جوابه لرستم بعد أن سأله: "لم جئتم؟" قال ﷺ: "ابتُعِثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده"، ابن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، دار الفكر، ط١٩٧٩م، ٢٣/٣ فما بعدها، أحداث سنة ١٤ هجرية.

المستضعفين، معقودة بالنصر بالبدن إن كان العدد يحتمل، وإلا فلا سبيل إلا ببذل جميع الأموال[١٤٦].

وقال تعالى لومًا للذين ينشِّئون بناتهم تنشئة تعجزهن عن المطالبة بحقوقهن، وبعد ذلك تظل وجوههم مسودة وهم كظيمون إذا بشروا بالأنثى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۞ أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾(الزخرف:١٧-١٨).

ويمكن رصد عدد من المركبات التشريعية المشَكِّلة لصرح مقصد ضمان حقوق الإنسان:

أ- الحفظ

ونقصد به حفظ الحقوق والمصالح الضرورية التي بها تتحصل السعادة في العاجل والآجل. وهذا الحفظ يكون بأحد أمرين: الأول من جانب الوجود؛ وذلك بما يقيم أركانها ويثبت قواعدها. والآخر من جانب العدم؛ وذلك بما يدرأ الخلل الواقع أو المتوقع فيها.

١- حفظ الدين: وذلك من خلال:

- التشريع وتوفير أماكن العبادة المرعية، وتنظيم المساجد والقيمين عليها، وتنظيم الزكاة والصيام والحج، وتنظيم الوقف وحمايته.
- التربية السليمة والممنهجة.
- حماية وتيسير وتوطين القيم المعنوية والروحية للدين.
- حرية التدين وعدم الإكراه.
- تقنين وهيكلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بتجلية شروطه

[١٤٦] أحكام القرآن، ابن العربي، ١/٤٠٩-٤٦٠.

وموانعه، ومناهجه وعقوباته، وزجر من يترامون بغير حق ولا مستحق للقيام به.

- التشجيع على الاجتهاد الكفء.

٢- حفظ النفس: وذلك عبر:

- ضمان الحق في الحياة.
- احترام التشريعات المحرِّمة للقتل والأذى.
- الحماية من العدوان، وهو ما يظهر جليا في حد الحرابة.
- الحماية من التعذيب، والحماية من الإخافة والترويع[١٤٧].
- حماية البيئة (مناخيا ونباتيا وحيوانيا)،
- ضمان حق العيش، والصحة، والحركة، والتنقل مع الحماية من الاتجار بالبشر.
- الاستثمار في الأمن العام والدفاع الوطني، وأمن الدولة[١٤٨].

٣- حفظ العرض: وذلك من خلال حفظ قسميه:

أ. **الكرامة**، عبر تحريم القذف والرمي.

- رعاية وحماية كرامة وسمعة الإنسان الفرد والمجتمع، بالتنشئة على الكرامة، وزرع قيم عدم الاعتداء عليها.

---

[١٤٧] قال ﷺ: "ليس منا من روّع مسلمًا". (أخرجه البيهقي)

[١٤٨] وهنا يشار إلى مفهوم الإعداد المستفاد من قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ﴾(الأنفال:٦٠). فالسلم في الإسلام ليس مقصده الأصل هو القتال، وإنما الإرهاب للعدو قصد ثنيه عن الانخراط فيما يوجب مواجهته، مما قد يؤدي إلى إهراق الدماء وإزهاق الأرواح. والاستطاعة، المراد بها تلك المنضبطة بالموازنة بين الحاجات وعدم تجاوزها بالإنفاق على السلاح وتجويع الناس مثلاً.

• حماية الحق في الخصوصية وعدم الاجتراء عليها وإن قامت حولها شكوك (مثال عمر حين اقتحم على من بلغه أنه يشرب الخمر فزُجِر وقبِل الزجر وانصرف)[١٤٩].

• الحيلولة دون الاستعمال غير المشروع للسلطة، للمساس بكرامة الفرد أو الأسرة أو الجماعة أو المنظمة.

ب. **النسل والأسرة**، عبر ضمان أن يكون التناسل في إطار الزواج، حيث المسؤولية، وحفظ الأنساب، وإمكان تلقي الرعاية والدعم المنظمين والمنضبطين من الدولة، وكافة الجهات المختصة؛

• حماية الأسرة ورعايتها وتوفير حاجياتها الأساسية، غذائيًّا، وإيوائيًّا، وصحيًّا، وتربويًّا، وقيميًّا.

• رعاية الطفولة والنشء (أيتام، ذوي الاحتياجات الخاصة).

• رعاية الشيخوخة.

• الحرص على توطين المساواة بين الرجال والنساء، حتى يضطلع كلٌّ بمسؤوليته لحفظ الأسرة وتنميتها.

ج. حفظ العقل:

• تحريم الشرك، والخرافة، والسحر، والطيرة، والمخدرات،

---

[١٤٩] عن عبد الرحمن بن عوف، أنه حرَسَ مع عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنهما ليلةً بالمدينة، فبينما هُمْ يمشون شَبَّ لهم سِراجٌ في بيتٍ، فانطلقوا يَؤُمُّونه حتى إذا دَنَوْا منه إذا بابٌ مُجافٌ على قومٍ لهم فيه أصواتٌ مُرتفِعةٌ ولَغَطٌ، فقال عمرُ رضي الله عنه وأخذ بيَد عبد الرحمن، فقال: أَتَدْري بيتَ مَن هذا؟ قلت: لا، قال: هذا بيت ربيعةَ بنِ أُمَيةَ بنِ خَلَفٍ، وهُمُ الآن شُرَّبٌ، فما تَرى؟ قال عبدُ الرحمن: أَرَى قد أتينا ما نهى الله عنه: ﴿وَلاَ تَجَسَّسُوا﴾(الحجرات:١٢)، فقدْ تجسّسنا، فانصرَفَ عنهم عمرُ رضي الله عنه وتركهم"، السنن الكبرى، للبيهقي (٥٧٩/٨) (١٧٦٢٥).

والمسكرات، والمفترات التي تؤدي إلى مختلف أضرب الإدمان الضارة بالعقل وبالفرد وبالمجتمع.

• إشاعة الموضوعية في التمثل والتفكير، وإشاعة رؤية علمية موضوعية للذات والموضوع والعالم، وذلك من خلال السهر على أن تضطلع نظم التربية والتكوين الإلزامية في المدرسة والتطوعية في المسجد والإعلام ووسائل الاتصال بذلك دون السقوط في التقنين الدولاني الحاد من الحريات المشروعة.

• إشاعة العلوم والمنتوجات الثقافية المغذية للعقل.

• ضمان الحقوق الثقافية واللغوية والكَلغْرافية.

• تشجيع وحماية البحث العلمي والتكنولوجي.

• ضمان الولوج إلى المعلومة.

• السعي إلى بناء مجتمع المعرفة.

• ضمان وحماية حرية التعبير، في حماية للفرد والمجتمع من الظلم بهذا الصدد، من القذف والرمي غير المشروعين، مما تكون له آثار على ضياع مصالح الفرد والجماعة مادية كانت هذه المظالم أم معنوية[١٥٠].

د. حفظ المال:

• تحريم السرقة.

• حماية الملكية العامة والملكية الخاصة (مادية كانت أم فكرية أم اختراعية أم تجارية أم صناعية أم مهنية).

• سلامة واستقرار التبادل التجاري.

---

[١٥٠] علمًا بأن كل ما سلف أعلاه من مفردات، عليها شواهد تفصيلية في القرآن والسنة وكسب الصحابة والتابعين وأعلام الأمة في مختلف أجيالها، لا يتسع المقام لاستقرائها.

• حماية المستهلك من أن ينفق ماله فيما يضره أو يضر غيره.

• حماية حقوق العمال (أجورًا وحسن معاملة) سواء كانوا أبناء البلد أو من الوافدين.

• منع الربح غير المشروع، ومنع الاستغلال بسائر أنواعه وأشكاله (ربا، ميسر، رشوة...).

• إشراف الدولة على التنمية المستدامة اقتصاديًا وبشريًا.

• حماية السوق من المضاربات التي تؤدي إلى غلاء الأثمان غير المشروع.

هذه هي المصالح الكلية التي جاءت الشريعة الإسلامية لتأمينها بأن نصّت على كل منها، وبينت أهميتها، وخطورتها ومكانتها، في تحقيق السعادة للإنسان، ثم كلّفت بالأحكام الوظيفية لضمان تحقيقها.

ويدل الاستقراء والبحث والدراسة والتأمل على أن الشرع الحنيف جاء لتحقيق مصالح الناس الضرورية والحاجية والتحسينية، وأن الأحكام الشرعية كلها إنما شرعت لتحقيق هذه المصالح. ومعلوم أن ضمان الحقوق للإنسان، من أعظم الأمور التي تحصل بها سعادته[١٥١].

ب- العدالة

١- العدالة في التوزيع: (مفهوم القَسْم) بين المسلمين، ومثال أراضي

---

[١٥١] ومنهج التشريع الإسلامي لرعاية هذه المصالح يسلك طريقين أساسين: الأول: تشريع الأحكام التي تؤمّن تكوين هذه المصالح وتوفر وجودها. الثاني: تشريع الأحكام التي تحفظ هذه المصالح وترعاها وتصونها، وتمنع الاعتداء عليها أو الإخلال بها، وتؤمّن الضمان والتعويض عنها عند إتلافها أو الاعتداء عليها، وبذلك تصان حقوق الإنسان وتحفظ، عن طريق إقرارها بما يلزم. الموافقات ٥/٢.

سواد العراق الرائع، حيث لم يوزعها عمر بن الخطاب ﷺ بين الفاتحين، وإنما وزعها على أهل العراق.

٢- العدالة الكونية: حلف الفضول "لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفًا ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت"[١٥٢]. ويدخل في هذا: الوفاء بالعهود (الآليات والالتزامات والعقود بعد المصادقة عليها) ومنها الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

٣- العدالة التصحيحية: والأصل فيها قوله تعالى: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ۝ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾(الأنبياء:٧٨-٧٩)، حيث تروي كتب التفسير مراجعة سليمان عليه السلام لأبيه نبي الله داوود عليه السلام في الحكم، مما يعد نواة مقدرة للعدالة التصحيحية.

قال ﷺ: "إنما أنا بشر، إنما أنا أقضي بينكم بما أسمع منكم، ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من أخيه فمن قضيت له من حق أخيه شيئًا، فإنما أقطع له قطعة من النار"[١٥٣].

ويدلُّ على رجوع القاضي عن حُكمه في هذه الحالات، ما ورد في كتاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه حيث قال فيه: "ولا يمنعك قضاءٌ قضيتَ فيه اليوم فراجعتَ فيه رأيك، فهُديت فيه لرشدك، أن تُراجع فيه الحق، فإنَّ الحق قديم لا يُبطله شيء، ومراجعة

---

[١٥٢] أخرجه البيهقي في سننه ٢٦٧/٦، وابن سعد في الطبقات الكبرى ١٢٨/١-١٢٩.

[١٥٣] أخرجه البخاري، كتاب الأحكام، باب من قضي له بحق أخيه فلا يأخذه فإن قضاء الحاكم لا يحل حرامًا ولا يحرم حلالاً، رقم ٦٧٥٩.

الحق خيرٌ من التمادي في الباطل"[١٥٤].

٤- العدالة السياسية: ومن ركائزها مبدأ الشورى لقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾(آل عمران:١٥٩)، وقوله سبحانه: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾(الشورى:٣٨)، ومبدأ **شفافية الحكامة** Tranparency of governance، ومبدأ فصل السلط، وكل ذلك مؤطر بضرورة رعاية مصالح الناس، وهو ما أشار إليه علماء الأصول بقولهم: "تصرف الإمام على الرأي منوط بالمصلحة"[١٥٥].

---

[١٥٤] ومما يشهد له ما رواه الإمام البيهقي: أن النبي ﷺ لما أراد أن يبعث معاذًا إلى اليمن قال: "كيف تقضي إن عرض لكَ قضاء؟" قال: أقضي بكتاب الله، قال: "فإنْ لم تجد في كتاب الله؟" قال: فبسُنَّة رسول الله، قال: "فإنْ لم تجدْ في سُنَّة رسول الله ولا في كتاب الله؟" قال: أجتهد رأيي ولا آلو، فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال: "الحمد لله الذي وفق رسولَ رسولِ الله لما يُرْضي رسولَ الله"، أخرجه البيهقي في "السنن الكبرى"، (ج١٠، ص:١٥٠)، والدارقطني في سننه، (ج٤، ص:٢٠٦)، و"إعلام الموقعين"، (ج١، ص:٩٢)، و"أخبار القضاة"، (ج١، ص:٧٢).

وما رواه عمرو بن العاص ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب، فله أجران، وإن حكم فاجتهد ثم أخطأ، فله أجر". أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الاعتصام)، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب وأخطأ (ج٨، ص:١٥٧)، ومسلم في صحيحه (كتاب الأقضية)، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ (ج٢، ص:٥٦).

وكتب الفقه طافحة بذِكْر الأمثلة على ذلك من فعْل الصحابة ﷺ ومنهم حُكم عمر بن الخطاب ﷺ في المشرَّكة، حيث حكم بإسقاط الإخوة الأشقاء ثمَّ شرَّك بينهم وبين الإخوة لأمّ في قضية أخرى رُفعتْ إليه، ولم ينقض حكمه الأول، وإنما قال: "تلك على ما قضيْنا، وهذه على ما نقضي"، أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (كتاب الفرائض)، باب المشرّكة (ج٦، ص:٢٥٥)، وعبد الرزاق في مصنفه (كتاب الفرائض) (ج١٠، ص:٢٤٩-٢٥٠)، قال ابن القيم رحمه الله تعالى: "فأخذ أميرُ المؤمنين في كلاَ الاجتهادَين بما ظهر له أنَّه الحق، ولم يمنعه القضاء الأوَّل من الرجوع إلى الثاني، ولم ينقض الأول بالثاني، فجَرَى أئمة الإسلام بعده على هذين الأصلين"، إعلام الموقعين ١/١١١.

[١٥٥] القاعدة نص عليها الشافعي أيضًا، وقد أخرج سعيد بن منصور أصل هذه القاعدة في سننه.

جـ- المساواة تحت القانون

ومما يشهد لهذا المحدد آية: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾(التوبة:٧١).

وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(النحل:٩٧)، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾(النساء:١)[١٥٦].

د- الحسبة العامة والخاصة[١٥٧]

ونجد للحسبة أصلاً في الآية: ﴿لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾(النساء:١١٤)، وفي الآية: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾(الحجرات:٩).

ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾(الرعد:٢٢).

---

[١٥٦] ومن صور هذا المبدأ: المساواة في الفُرص، والمساواة في الحقوق والواجبات.

[١٥٧] ولاية الحسبة من الولايات الشرعية العامة الخاضعة لسلطة الدولة، حيث تجب على الإمام بحكم وظيفته في حفظ الدين على أصوله المستقرة وتنفيذ أحكامه، ورعاية حقوق الناس ومصالحهم. ولذلك كان الخلفاء في العصور الأولى للإسلام، يباشرونها بأنفسهم، ثم أسندوا أمرها إلى والٍ خاص يُعْرَف بالمحتسب، وأُعطي من الصلاحيات و الأعوان بحيث يقوم بها خير قيام، فيمشي في الأسواق والشوارع ويقتحم أبواب المؤسسات العامة والدوائر الحكومية، ليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، سواء تعلق ذلك بقيمة من قيم الإسلام معطلة أو بحق من حقوق الناس مهدر.

ولا تقتصر هذه الفعالية على الفرد، وإنما تتعدى إلى الجماعة والدولة. فإذا كان الأمر بالمعروف واجب على الفرد المسلم، فإنه واجب على الجماعة، حيث يتعاون عليه الأفراد في الجماعات ويتشاورون فيه لقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(آل عمران:١٠٤)، وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾(المائدة:٢).

وهذا واجب على كل مسلم قادر، وهو فرض على الكفاية، ويصير فرض عين على القادر الذي لم يقم به غيره. وفي تسمية علماء الأصول -خصوصًا الأوائل- لها بالفروض الكفائية، إيحاء، بأن القيام بها من لدن القادرين، ينبغي أن يكون كافيًا للأمة، وإلا فإنها لا تسقط، ويبقى الإثم عالقًا بعموم الأمة.

إلا أن غير القادرين، لا يبقون -بخصوص الفروض الكفائية- بدون مسؤولية، فالشرع يُرتِّب عليهم مسؤولية السعي، لإقامة القادرين[١٥٨].

هـ- لا ضرر ولا ضرار[١٥٩]

ونفيُ الضرر ورفعه، مقصد عليّ من مقاصد الشريعة الإسلامية. فلا

---

[١٥٨] قال الشاطبي: "القيام بهذا الفرض -يقصد الفرض الكفائي- قيام بمصلحة عامة، فهم مطلوبون بسدها على الجملة، فبعضهم هو قادر عليها مباشرة، وذلك من كان أهلاً لها، والباقون، وإن لم يقدروا عليها، قادرون على إقامة القادرين، فمن كان قادرًا على الولاية، فهو مطلوب بإقامتها، ومن لا يقدر عليها، مطلوب بأمر آخر، وهو إقامة ذلك القادر، وإجباره على القيام بها.. فالقادر إذن، مطلوب بإقامة الفرض، وغير القادر، مطلوب بتقديم ذلك القادر، إذ لا يتوصل إلى قيام القادر، إلا بالإقامة، من باب، ما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب"، الموافقات ٣٥٣/٨.

[١٥٩] والأصل في هذه القاعدة وغيرها من قواعد رفع الضرر قوله ﷺ: "لا ضرر ولا ضرار" (رواه ابن ماجه والدارقطني).

يقبل كل فعل فيه ضرر على الفرد أو المجتمع في الحال والمآل. وهو ما يتساوق تمامًا مع مبدأ التيسير ورفع المشقة الذي يعد بدوره مقصدا أساسًا من مقاصد التشريع في الإسلام: ﴿يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾(البقرة:١٨٥).

و- تحريم الظلم

إن النصوص التي تحث المسلمين على تحريم الظلم، والسعي إلى ضمان حقوقهم وترغِّب في ذلك، أكثر من أن تُحصى(١٦٠) في هذا

(١٦٠) منها قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾(الشورى:٤٠)، ﴿وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لاَ تُنْصَرُونَ﴾(هود:١١٣)، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾(الشعراء:٢٢٧)، وغيرها من الآيات المحذرة من الظلم، والمذكرة بجزاء الظالمين.
وفي الحديث عن ابن عمر ﵄، أن رسول الله ﷺ قال: "المسلم أخو المسلم، لا يظلمُه، ولا يُسْلِمه"، رواه البخاري في كتاب المظالم، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، رقم ٢٤٤٢.
وعن البَراء بن عَازِب ﵁ قال: "أمرنا رسول الله ﷺ بسَبْعٍ، ونَهَانا عن سَبْعٍ، فذكر عيادةَ المريض، واتِّبَاعَ الجنائز، وتَشْمِيت العاطس، وردَّ السلام، ونصر المظلوم، وإجابة الدَّاعي، وإبرار القَسَم"، رواه البخاري في كتاب المظالم، باب نصر المظلوم، حديث رقم ٢٤٤٥.
وعن أبي موسى ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله ليملي للظالم فإذا أخذه لم يفلته" ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾(هود:١٠٢).
وفي الحديث: "اتقوا الظلم؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة" (رواه مسلم). وعن عائشة ﵂ أنها قالت لأبي سلمة بن عبد الرحمن، وكان بينه وبين الناس خصومة: يا أبا سلمة اجتنب الأرض، فإن النبي ﷺ قال: "من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين" (رواه البخاري ومسلم). وعن حذيفة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تكونوا إمّعة، تقولون: إنْ أَحْسَنَ الناس أَحْسَنّا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وَطِّنُوا أنفسكم، إنْ أَحْسَنَ الناس أن تُحسِنوا، وإن أساءوا فلا تَظلموا" (رواه الترمذي). وأثر عن عبد الرحمن الأوزاعي قولته لأبي جعفر المنصور: أنت راعي الله، والله تعالى فوقك، ومستوف منك، ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا

المقام... والمتعامل معها، يلاحظ، أن في الإسلام نظامًا كاملاً، لإقامة العلاقات الاجتماعية بين الناس، على وجه يُبعِدُ كلَّ الأدواء التي تَنْخر كِيَان المجتمعات عن المجتمع الإسلامي... وهو نظام حري بأن يُبحث فيه وتُوَضَّح معالمُه، في دراسة جادة موضوعية مستقلة.

وبذلك فإن هذا المقصد، تحريم الظلم، يمكن أن يعتبر من المقاصد المركزية في الشريعة الإسلامية. ومن شواهد ذلك قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾(الكهف:٤٩)، ﴿وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾(آل عمران:٥٧)، وفي الحديث القدسي: "يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرّمًا فلا تظالموا"(١٦١). وهو ما تجلى في سنة رسول الله ﷺ التي تزخر بحرصه عليه الصلاة والسلام على إيفاء أهل الحقوق أفرادًا وجماعات حقوقهم(١٦٢).

ثالثا: الآليات

حيث إن جلَّ المصالح التي تقوم عليها حياة الأمم وارتفاقاتها -وفي لبّ ذلك ضمان حقوق الخلق- تحتاج إلى اجتهاداتٍ مستأنفةً في كل حين قصد تَبيُّنِها، ومَقْدَرَتها، وتقعيدها، وتقنينها، من أجل تنزيلٍ مُتَّزِنٍ لها على أرض الواقع، كان لابد من آليات تمكّن من جلب هذه المصالح، ودرء ما يهددها من مفاسد في سياقاتها المختلفة، نظرًا في المعتبر من هذه المصالح، واعتبارًا للمآلات، وتحقيقًا للمناطات، وتنقيحًا لها، وأخذًا

حَاسِبِينَ﴾(الأنبياء:٤٧).

(١٦١) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، (٢٥٧٧).

(١٦٢) قال ابن حجر العسقلاني في شرحه لحديث "المومن للمومن كالبنيان يشد بعضه بعضًا": "نصر المظلوم فرض على الكفاية، وهو عام في المظلومين، وكذا في الناصرين، بناء على أن فرض الكفاية مخاطب به الجميع وهو الراجح" فتح الباري ٩٩/٥.

بمبدأ سد الذرائع وفتحها على السواء، واعتبارًا لأصل الاستحسان، والموازنة الدقيقة بين المصالح والمفاسد، جلبًا للأُولى إن رجحت، ودفعًا للثانية إن غلبت، تسديدًا وتقريبًا وتغليبًا. ومن آكد هذه الآليات:

١- إعمال أصل المصلحة المعتبرة

مقاصد الشريعة(١٦٣) على اختلاف أقسامها ووسائل إثباتها ومستوياتها، تتركز في مقصد كلّي جامع جرى التعبير عنه تارة بـ"جلب المصالح ودرء المفاسد"، وتارة بـ"تحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها"(١٦٤).

من أبرز ميزات الفكر المقاصدي، كونه فكرًا كليًّا يأبى الانحسار في ظواهر الأدلة الجزئية، دون وصلها مع الأدلة الكلية. من هنا كانت حقوق الإنسان مقصدًا أساسيًّا من مقاصد التشريع الإسلامي، لارتكازها على مبادئ كلية من قبيل التكريم، والاستخلاف، والمساواة، والعدل، والحرية، والكرامة

(١٦٣) مقاصد الشريعة في اصطلاح العلماء هي: الغايات والأهداف والنتائج والمعاني التي أتت بها الشريعة، وأثبتتها في الأحكام، وسعت إلى تحقيقها وإيجادها والوصول إليها في كل زمان ومكان. انظر مقاصد الشريعة الإسلامية، الطاهر بن عاشور، ص:١٣.

(١٦٤) حدّد العلماء مقاصد الشريعة بأنها تحقيق مصالح الناس في الدنيا والآخرة، أو في العاجل والآجل، يقول العز بن عبد السلام رحمه الله تعالى: "اعلم أن الله سبحانه لم يشرع حكمًا من أحكامه إلا لمصلحة عاجلة أو آجلة، أو عاجلة وآجلة، تفضلاً منه على عباده"، ثم قال: "وليس من آثار اللطف والرحمة واليسر والحكمة، أن يكلف عباده المشاق بغير فائدة عاجلة ولا آجلة، لكنه دعاهم إلى كل ما يقربهم إليه... ومصالح الناس في الدنيا هي كل ما فيه نفعهم وفائدتهم وصلاحهم وسعادتهم وراحتهم، وكل ما يساعدهم على تجنب الأذى والضرر ودفع الفساد، إن عاجلاً أو آجلاً". انظر شجرة المعارف والأحوار، ص:٤٠١.

وقال الإمام الشاطبي: إن وضع الشرائع إنما هو لمصالح العباد في العاجل والآجل إما بجلب النفع لهم، أو لدفع الضرر والفساد عنهم. الموافقات ٩/٢.

لهذا الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم، مع الالتزام بالسبل والوسائل التي تحقق هذه المقاصد، وتحافظ عليها وتمنع من إهدارها أو ضياعها. وإذ إن مصلحة ضمان حقوق الإنسان، من أعظم المصالح، فلا خلاف يمكن أن يثور حول محورية هذا المقصد في توجيه الأحكام والاجتهاد.

٢- إعمال أصل سد الذرائع

"أصل سد الذرائع"[١٦٥] وجه آخر من وجوه رعاية مقصود الشارع في حفظ حقوق الإنسان ورعايتها، هذا بالإضافة إلى أصول أخرى وقواعد تميز بها المذهب المالكي، وكانت السبب المباشر في ولوع علمائه بالمقاصد[١٦٦].

٣- إعمال أصل"فتح الذرائع"

بما أن المراد بالذريعة؛ ما يتوصل به إلى مفسدة فتكون ممنوعة، أو

---

[١٦٥] يعتبر المذهب المالكي من أهمّ المذاهب القائلة به. واعتبار أصل الذرائع بالسد أو الفتح يُعدُّ من وجهٍ توثيقًا لمبدأ المصلحة الذي استمسك مالك بعروته؛ فهو اعتبر المصلحة الثمرة التي أقرَّها الشارع واعتبرها ودعا إليها وحث عليها؛ فَجلْبُها مطلوب، وضدها -وهو الفساد- ممنوع؛ فكل ما يؤدي إلى المصلحة بطريق القطع أو بغلبة الظن يكون مطلوبًا بقدره من العلم أو الظن، وكل ما يؤدي إلى الفساد على وجه اليقين أو غلبة الظن يكون ممنوعًا على حسب قدره من العلم؛ فالمصلحة بعد النص القطعي هي: قطب الرحى في المذهب المالكي، وبها كان خصبًا كثير الإثمار. أبو زهرة، مالك عصره وآراؤه الفقهية، ص:٣٥٢.

[١٦٦] ومن أدلة هذا الأصل قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾(الأنعام:١٠٨)، فحرم الله سب آلهة المشركين، مع كون السب غليظًا، وإهانة لآلهتم، وما ذلك إلا لكونه ذريعة إلى سبهم لله تعالى، فكان مصلحة ترك مسبته تعالى أرجح من مصلحة سبنا لآلهتهم.

قال الشاطبي رحمه الله: "وسد الذرائع مطلوب مشروع وهو أصل من الأصول القطعية"، انظر: الموافقات ٦١/٣.

إلى مصلحة فتكون مطلوبة. فإن الذريعة لا يكون المطلوب سدها دائمًا، بل يكون سدها أو فتحها خاضعًا لحكم ما أفضت إليه، وبمعنى آخر، فسدها أو فتحها، منوط بما تفضي إليه من المقاصد والحكم. قال الإمام القرافي: "اعلم أن الذريعة كما يجب سدّها، يجب فتحها، ويكره ويندب ويباح، فإن الذريعة هي الوسيلة، فكما أن وسيلة المحرَّم محرَّمة، فوسيلة الواجب واجبة كالسعي للجمعة والحج"[١٦٧].

وأشار صاحب المراقي[١٦٨] إلى فتح الذرائع بقوله:

سدّ الذرائع إلى المحرّم حتمٌ كفتحِها إلى المُنحتم

وبخصوص ما قررناه في هذه الفقرات من ضرورة فتح الذرائع الجالبة للمصالح، فإننا نجد علماء الأمة قد قرروه في قواعد محكمة، من قبيل قاعدة "ما لا يتم المأمور إلا به"، أو "ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب"[١٦٩]. فتسد الذرائع دون ما يمنع تحقق مقصد ضمان حقوق الإنسان، وتفتح أمام ما ييسر ذلك ويسهم فيه.

وأصل سد الذرائع أو فتحها، يحيلنا على أصل ثانٍ مكمّل هو أصل اعتبار المآل[١٧٠].

---

[١٦٧] شرح تنقيح الفصول، ص:٤٤٩، والفروق ٦٣/٢.

[١٦٨] نظم مراقي السعود، نظم في موضوع أصول الفقه، للشيخ عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي الشنقيطي (ت ١٢٣٣هـ).

[١٦٩] مختصر ابن الحاجب ٢٤٤/١، شرح الكوكب المنير ٣٥٧/١.

[١٧٠] وسدُّ الذرائع فيه اعتبار للمآلات وجلبِ المصالح ودرءِ المفاسد ما أمكن الدفع والجلب؛ فإنه لما كان مقصود الشريعة إقامة مصالح الدنيا على طريقةٍ تُحكَم فيها بحكم الدين المسيطر على الوجدان والضمير، ودفع الفساد ومنع الأذى حيثما كان؛ فكل ما يؤدي إلى ذلك من الذرائع والأسباب يكون له حكم ذلك المقصد الأصلي، وهو الطلب للمصلحة، والمنع للفساد والأذى.

٤- إعمال أصل اعتبار المآل

اعتبار مآل الأفعال من المقاصد المهمة من الشريعة، قال الشاطبي: "النظر في مآلات الأفعال، معتبر مقصود شرعًا -كانت الأفعال موافقة أو مخالفة- وذلك أن المجتهد لا يحكم على فعل من الأفعال الصادرة عن المكلفين بالإقدام والإحجام إلا بعد نظره إلى ما يؤول إليه ذلك الفعل، مشروعًا إلى مصلحة فيه تستجلب، أو لمفسدة تدرأ، ولكن له مآل على خلاف ما قصد فيه؛ وقد يكون غير مشروع لمفسدة تنشأ عنه، أو مصلحة تندفع به، ولكن له مآل خلاف ذلك، فإذا أطلق القول في الأول بالمشروعية، فربما أدى استجلاب المصلحة فيه إلى مفسدة تساوي المصلحة أو تزيد عليها، فيكون هذا مانعًا من إطلاق القول بالمشروعية.

وكذلك إذا أطلق القول في الثاني بعدم المشروعية، ربما أدى استدفاع المفسدة إلى مفسدة تساوي أو تزيد؛ فلا يصح إطلاق القول بعدم المشروعية. وهو مجال للمجتهد صعب المورد، إلا أنه عذب المذاق، محمود الغب جارٍ على مقصد الشريعة"[(١٧١)].

والنظر إلى مآل المجتمع الضامن لحقوق إنسانه، كما النظر إلى مآل المجتمع المهدر لها، يفرض تقديم القياسات الضامنة لحقوق الإنسان، وإن خفيت، على القياسات كلها وإن كانت جلية، وهذا يقودنا إلى آلية الاستحسان.

٥- إعمال أصل الاستحسان

بيَّن الإمام الشاطبي بعض معاني الاستحسان الذي هو أخذٌ بالمصلحة

---

(١٧١) الموفقات ٣/١٩٤.

عند المالكية قائلاً: "الاستحسان في مذهب مالك: الأخذ بمصلحة جزئية في مقابل دليل كلّي؛ لأنه يقوم على التيسير ودفع المشقة ورفع الحرج عن الناس.

ومقتضاه: الرجوع إلى تقديم الاستدلال المرسَل على القياس؛ فإن من استحسن لم يرجع إلى مجرد ذوقه وتشهّيه، وإنما رجع إلى ما علم من قصد الشارع في الجملة، في أمثال تلك الأشياء المفروضة(١٧٢)، كالمسائل التي يقتضي القياس فيها أمرًا، إلا أن ذلك الأمر يؤدي إلى فوت مصلحة من جهة أخرى، أو جلب مفسدة كذلك"(١٧٣).

فآلية إعمال أصل الاستحسان، اعتبارًا لمآل إهدار حقوق الإنسان وضمانها، يمكّن من القيام بترجيحات معتبرة بهذا الخصوص، مما يفتح ذريعة العدالة، ويسدّ ذريعة الظلم.

٦- إعمال فقه الموازنات

قال الشاطبي: "وإنا وجدنا الشارع قاصدًا لمصالح العباد، والأحكام العادية تدور معها حيث دارت، فترى الشيء الواحد يمنع في حال لا تكون فيه مصلحة، فإذا كان فيه مصلحة جاز"(١٧٤).

ومفاد ذلك، وجوب الموازنة بين الاحتمالات الممكنة في غير

---

(١٧٢) يقصد الإمام الشاطبي "العلم بقصد الشارع بالاستقراء الكلي للأدلة في إجمالها وتفصيلها"، كما هو مبين في كتابه "الموافقات".

(١٧٣) الموافقات ٢٠٧/٤.

(١٧٤) الموافقات ٢٢٥/٢، وقال في الموازنة بين المصالح الكلية: "وكل واحدة من هذه المراتب لمّا كانت مختلفة في تأكد الاعتبار -فالضروريات آكدها ثم تليها الحاجيات ثم التحسينيات- وكان مرتبطًا بعضها ببعض كان في إبطال الأخفِّ، جرأةٌ على ما هو آكد منه، ومدخل للإخلال به، فصار الأخفُّ كأنه حمى للآكد، والراعي حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، فالمخلّ بما هو مكمّل، كالمخل بالمكَمَّل من هذا الوجه" الموافقات ٣٠/١.

المحكم من الأحكام، ترجيحًا وموازنة بين ما تحققه تنزيلاتها في إطار الشرع الحنيف، وبمقاييسه وموازينه، من المصلحة في الظرف الواقعي المعين، ثم اعتماد الاحتمال الذي يرجُح أنه أكثر تحقيقًا للمصلحة بضوابطها الشرعية المبينة في أماكنها، واعتبار ذلك هو الحكم الشرعي في تلك الحالة، وهذا مناط الاجتهاد، فيما مردّ الأحكام فيه إلى النظر.

ومن تداعيات الوعي العميق عند علمائنا بهذه الآليات في النظر، كونهم درجوا على ألا يسقطوا من اعتبارهم الآراء المرجوحة في تراثنا الفقهي، إذ هي ذخيرة اجتماعية قد تمس إليها الحاجة في أوضاع لاحقة مختلفة، فما لم يرجح في واقع عيني مشخص نظرًا لملابِسات وسياقات معينة، قد يضحى راجحًا ضمن ملابسات وسياقات أخرى، وفقه إمام دار الهجرة إمامنا مالك -رضي الله عنه- يحضر فيه هذا الوعي العميق بشدة، لانبنائه على قواعد واقعية كعمل أهل المدينة، والاستحسان، والمصلحة المرسلة، وسد الذرائع.

وفقه الموازنات فقه دقيق يقتضي أن يكون المُعمِل له -فردًا كان أم جماعة- ريّانًا من علوم النص وعلوم السياق، وعلى دراية بالعواقب والمآلات، مما ينتج عنه ملكة في الترجيح والتغليب بعد القيام بالتسديد والتقريب، وجليّ أن ذلك من معضدات ضمان حقوق الإنسان في المجتمعات.

الخاتمة

١- رامت هذه الدراسة، الانخراط في العكوف الكوني على معالجة جملة من القضايا والإشكالات ذات العلاقة بتنزيل مختلف أجيال

حقوق الإنسان، كما هي متعارف عليها كونيًّا على أرض عالمنا المعولم، في مراعاة لمقتضياته السياقية المختلفة والمتداخلة، وكذا في مراعاة للمستلزمات المعرفية والثقافية والتشريعية.

٢- كما رامت هذه الدراسة، الإسهام في بلورة نظرية ""R.M.R (Reverse Moderate Relativism) في مجال حقوق الإنسان، والتي تعنى بالنظر التعارفي المنفتح، إلى ما يمكن أن تغني به المنظومات التشريعية المختلفة، منظومة حقوق الإنسان الكونية. وقد انكببنا في مقامنا هذا على النظر فيما يمكن أن تغني به المنظومة التشريعية الإسلامية منظومة حقوق الإنسان كما هي متعارف عليها كونيًّا.

ووعيًا بأن حال الفرد المستهدف بضمان حقوقه والاستنهاض للقيام بواجباته -وعلى حد تعبير مارسيل غوشيه- لا يتغير من الخارج فحسب، وإنما من الداخل أيضًا، حيث إن هذا الفرد -في الوقت نفسه- الذي يجد فيه أن تحديده يعاد، سواء تعلق الأمر بحقوقه أم بمصالحه، فإن عناصر علاقته بنفسه تتغير بشكل أساسي، وينقلب إدراكه الداخلي لمكونات شخصيته رأسًا على عقب، وإنها ظاهرة ذات تأثير بالغ يعيد فكرة الذاتية المتعلقة بصورة المواطن المطروحة منذ القرن الثامن عشر إلى بساط البحث(١٧٥)، مما يستلزم نظرًا مستأنفًا، واجتهادًا متجددًا، بخصوص موقع

(١٧٥) الدين في الديمقراطية، لـ"مارسل غوشيه"، ص:١١٤، يعني غوشيه هذه المسألة قائلاً: "إن إطار هذه التحولات التي تجري في المجتمع المدني، ونمط تركيبه وديناميكيته، هو الذي يجب أن يتم خلاله فهم التحولات، حتى تلك المتعلقة بالمعتقد، وهي تحولات متعلقة بطبيعته وموقعه، وفي الوقت نفسه، بأوضاعه الخاصة وحالته العامة. فالمعتقدات تحولت إلى هويات، مما يعني في الوقت ذاته، طريقة أخرى للاندماج فيها من الداخل، وطريقة أخرى للانتماء إليها من الخارج"، الدين في الديمقراطية، لـ"مارسيل غوشيه"، ص:١١٣.

الفرد، والتشاكس السياسي، والتسويقي الشرس للاستئثار باهتمامه وطاقاته ومقدّراته، ولا شك أن من آكد حقوق الإنسان، الحق في قدر نسبي من التوقير حتى لا تضيع منه أزِّمة ذاته فَيَتِيه عنها وعن محيطه.

٣- وقد استحضرت هذه الدراسة ضمنيًّا، كون مكتسب الديمقراطية في عالمنا المعاصر، قد نما في تمظهرات كثيرة له على التصادم مع "المقدس"، مما أصاب الديمقراطية عن طريق العدوى بشيء من "القداسة"! جعلتها تسمو فوق الذاتيات والمكتسبات الشخصية، فاستحثت الإنسان للخروج من حالة "القصور" مما سربل الديمقراطية بـ"وقار" جعل منها "دعوة" وخدمة على حد تعبير غوشيه "شبه كهنوتية"[١٧٦] ومادة للتفاني غير المشروط، في مفارقة لأن تصبح "المشروع الشامل" الذي يحيط بالوضع البشري بأكمله، مما كان من نتائجه استدعاء الأديان إلى المجال العام، فأعطى الديمقراطية هيئتها الجديدة في منطقتنا وما حولها، مما يُلزم باجتهاد متجدد، يتغيّا تعميق محيط الفعل الحقوقي والسياسي، وحتى الاقتصادي.

وإذ إن تملّك الإعلان العالمي لحقوق الإنسان والمعاهدات المنبثقة منه، أمر ضروري في الالتزام بمقتضياته، فإنه من اللازم تفعيل مقاربة R.M.R، ببرهانية ترفع وهم التناقض مع ثقافتنا المحلية بكل مرتكزاتها، ومن أهمها الدين الإسلامي، وذلك بفتح نوافذ الاجتهاد والتجديد غير المتعارضين روحًا مع الإعلان العالمي، ولا مع فحوى النظم الاعتقادية والتشريعية في العالم والتي جميعها تجعل الإنسان في مركزيتها ولبابها، وما الإسلام ببدع من هذه النظم.

٤- وقد تبين من البحث أن الشريعة الإسلامية ليست فقط غير

---

[١٧٦] الدين في الديمقراطية، لـ"مارسل غوشيه"، ص:١٢٩.

متعارضة مع الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، وإنما تكتنز قوة اقتراحية من شأنها، إغناؤه وتزويده بجملة من آليات التفعيل والإجراء، ولا سيما في مجال القرن الوظيفي الممقدر "Dosé" للحق بالواجب، كما تبين أثناء الحديث عن الجيل الثالث من حقوق الإنسان. ولا شك أن هذه المقاربة من شأنها تجاوز الكليشيه المعتاد الذي مفاده، وكما يقول الباحث "Jason Morgan Foster": "إن بعض الثقافات تتلكؤ في قبول الحقوق التي تبنّاها معظم عالمنا باعتبارها أساسية، فإنه يتبين في هذه الحالة -للعبرة- أنه على العكس من ذلك تمامًا، فإن الثقافة الإسلامية ليست وراءً، بل هي رائدة، حيث إن خطابها التشريعي مقدّرٌ، ومُقتدى بهذا الصدد، مما من شأنه أن يمنح منظورًا منعشًا للتداول حول كونية حقوق الإنسان"[١٧٧].

---

[177] Jason Morgan Foster, Yale University, Human Rights And Development L.G, Vol 8, pp 116.

المبحث الثالث عشر:

فقه المجتمع

نحو استئناف التأسيس

شهد عهد الخلافة الراشدة تطورًا في المجتمع الإسلامي وفي فقهها، فكتاب عمر لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه ما في القضاء شاهد على ذلك، إذ فيه توجيهات إلى الفهم والاستشارة، كما فيه دعم وتأصيل للمؤسسة القضائية، التي كانت مؤسسة مجتمعية محضة مستقلة عن الدولة قائمة بذاتها.

فقه المجتمع نحو استئناف التأسيس(١٧٨)

بين فقه المجتمع وفقه الأفراد

فقه المجتمع في أمتنا لم ينل من الحظ تنظيرًا وبسطًا ما ناله فقه الأفراد، فتراثنا الفقهي يشهد بأن الثاني كان الاهتمام به ضافيًا، بخلاف الأول، مما جعل البعد التنظيمي للمشاركة في هموم المجتمع وتحمّل مسؤولياته يكون ضامرًا، الأمر الذي ترك هذه الممارسة لأريحية الأفراد دون أن يضبطها ضابط من تنظيم وتقنين يجعلها أكثر فاعلية واستمرارية.. وهذا أمر وراءه أسباب متعددة، منها:

١- أن المجتمع المسلم الأول كان بسيطا في تركيبته؛ فقد كان الناس قبل الإسلام ينتظمون في أسرهم وعشائرهم وقبائلهم، وهي مؤسسات تقوم على أعراف قديمة مستقرة ومألوفة تُرْضَع مع حليب الأمهات وتُتَنَفّس مع الهواء، فلا يستوي الفرد إلا وقد تعلمها مع المشي والكلام، وانضبط لها كما ينضبط لقوانين الجاذبية والنمو، بل أكثر من هذا، فالذين انفلتوا من هذا النظام معلومون معروفون باسم "الصعاليك"، ولا يزال بعض أعيانهم معروفين عند الأمة إلى الآن.

من هنا، فإن الضبط المباشر الذي جاء في التشريع الإسلامي لهذه

(١٧٨) مجلة حراء، العدد: ١٣ (أكتوبر - ديسمبر ٢٠٠٨).

المؤسسات كان كافيًا، ولم يتم بالتالي تلقي الإشارات الكثيرة الموجودة في الكتاب والسنة، والتي تؤصل لبلورة فقه المجتمع والدولة من مختلف التوجيهات، كالأمر بالشورى، والحض على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتكافل، والانتصار من بعد الإصابة بالبغي...إلخ. وهي توجيهات تحتاج إلى هيئات وقوانين من أجل تنزيلها على واقع الناس، والحفاظ عليها وتنميتها، مما يحتاج إلى جهد مستأنف لاستدراك النقص الذي فيه.

٢- الاعتماد على البعد العقيدي في النفوس أزهد المسلمين في ضبط المؤسسات وبلورة فقه خاص لها يُستنبط من الأحكام التي تؤطرها، فاحتلت الثقة مكانًا أكبر مما ينبغي. فلما ضعف الوازع العقيدي وكثرت الكوارث طفت الأزمة على السطح وبحدة كبيرة، مما جعل المسلمين يقبلون في العصر الحديث كثيرًا من القوانين والتنظيمات الدخيلة عليهم، لسد الفراغ الذي تركه قصورهم وقعودهم عن الاجتهاد، لبلورة فقه المجتمع ومختلف مؤسساته.

٣- شهد عهد الخلافة الراشدة تطورًا في المجتمع الإسلامي وفي فقهها، فكتاب عمر لأبي موسى الأشعري ﵁ ما في القضاء ـ مثلاً ـ شاهد على ذلك، إذ فيه توجيهات إلى الفهم والاستشارة، كما فيه دعم وتأصيل للمؤسسة القضائية[١٧٩]، التي كانت مؤسسة مجتمعية محضة مستقلة عن الدولة قائمة بذاتها، وماتِحَة مباشرة من المرجعية العليا للأمة (أقصد القرآن والسنة) مضافًا إلى ذلك اجتهاد القضاة وفهمهم، وهو ما ألحَّ عليه عمر ﵁ في كتابه إلى أبي موسى ﵁ سالف الذكر.

---

[١٧٩] انظر أعلام الموقعين، لابن القيم (١/ ١٦٤).

وقد شهد عصر عمر ﵁ أيضًا اقتباس نظام الدواوين، كما شهد ضبط مؤسسة الجند وتنظيمها، فقد بدأ عمر فعلاً ببلورة فقه خاص بها، من ذلك على سبيل المثال: جعله المدة القصوى التي يبقاها الجندي بعيدًا عن أهله هي أربعة أشهر، بناء على سؤال سأله ابنتَه أم المؤمنين حفصة ﵂ عن صبر المرأة على زوجها، حيث أجابته بأن المرأة لا تصبر على زوجها أكثر من أربعة أشهر.

الانحراف التاريخي

غير أن انحرافًا كبيرا في هذا المسار يسجل بعد تقلص ظلِّ الرشد عن الدولة الإسلامية، فقد طغى على الانشغال بالمجتمع وقضاياه انشغالُ المسؤولين بإخماد الثورات، والتمكينِ للدولة القائمة على أنقاض دولة، وتتبع بقايا الدولة المسقطة وجذورها، وبناء الهيبة، وجمع الخراج، والسقوط في وِهاد مشاريع وهمية منحرفة، ثم انشغال جهاز الدولة من الداخل بالمؤامرات، والمؤامرات المضادة، كمؤامرة البرامكة، والبويهيين، والانشغال بفتنة قيام الدولة الفاطمية في مصر... وحين تمزقت الدولة العباسية وترهلت الدولة الفاطمية، جاء دور المماليك، وهلم جرًّا.

الشأن نفسه في المغرب، حيث كان الأمويون في الأندلس، إلى حين عهد المؤامرات، فالمؤامرات المضادة بين ملوك الطوائف، ثم انطفاء الجذوة، والدول المتعاقبة في المغرب الأقصى وإفريقيا بشكل عام.

وباختصار، لم يكن همُّ الاشتغال بالمجتمع هو الهم المركزي، وإنما الاشتغال بالدولة أو لنقلْ: "بالذات"، وأُسْلِمَ المجتمع إلى نفسه، بخلاف الشأن حين كان الرشد معانقًا للدولة، فقد كان الاهتمام "بمجال

التشريع، وتأصيل الشريعة الإسلامية، وتنظيم الشورى، وإعلان قراراتها، والتخطيط، والإحصاء، والرقابة، ووضع السياسات التي تراقب معاملات المجتمع وتوجه المناشط الاقتصادية فيه"[١٨٠].

ليس هذا يعني أن الدولة الإسلامية كان تاريخها مجردًا من الوضاءة والإشراق ـ وإن ركزنًا ههنا على جانب له صلة بموضوعنا ـ وإلا فلا يخفى عطاء المسلمين خلال التاريخ، وهذا أمر لا ينكر، وكان يمكن أن يكون أحسن لولا ما ذكرنا وأمور أخرى لا يتسع المقام لذكرها.

العزوف عن النهج الشوري

وخارج فترات الرشد كانت جهود الفقهاء منصبة على تطوير فقه الأفراد وتفصيله، لأن الدولة انتهجت بعد الفترة الراشدة نهجًا غير شوريّ، محيّدًا لعموم المسلمين عن تحمل مسؤولياتهم في النصح والتسيير... وإن التسيير لعبء ينوء بالعصبة أولي القوة... فبرز أنموذج للمواطن الصالح، بعيد كل البُعد عن الأنموذج القرآني، فأَصلَحُ الناسِ أنآهم عن تحمل المسؤوليات وأبعدُهم عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبكلمة مختصرة: صار أصلح الناس أكثَرهم انحسارًا وإقبالاً على خويصّة نفسه، وهذا تجانف صارخ عن قيم الإسلام الذي جعَل هذه الأمةَ ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾(آل عمران:١١٠)؛ لأنها أمة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله... ورسول الله ﷺ يقول في الحديث الصحيح: "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع

[١٨٠] د. حسن الترابي، مجلة قراءات سياسية، العدد الثالث، ١٩٩٢، ص:٧.

فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان"[١٨١].

فلما ساد هذا الوضع، بعد مقاومة أطيح فيها برؤوسٍ خيِّرَةٍ من المؤمنين، كالحسين بن علي ﵄، وعبد الله بن الزبير ﵄، وسعيد بن جبير -رحمه الله- وغيرهم.. وأُسلم المسؤولون لأنفسهم ولغرائزهم وأهوائهم... أسلموا لسكرة السلطة، فتسلطوا.

ونشأ إذن فقه المجتمع ومؤسساته بعيدًا عن المجتمع، وانطلاقًا من الرأي الواحد، والفهم الواحد، فُقه الدولة، وفهم الدولة، فلم يُبْرَد ويشحذ بالمناظرات والحوارات والرسائل، شأن فقه الأفراد (فقه العبادات بشكل عام)؛ إذ لم يكن همُّ التنظير للحياة في المجتمع، والممارساتِ ـ بشتى أنواعها ـ التي تجري فيه، وهمُّ استنباط الأحكام الخاصة بذلك همَّ المجتمع وفقهائِه، بل بقي همَّ الدولة وفقهائها فقط.

وهذا سبب هام من أسباب فقر هذا الفقه وضموره، وقلة مصداقية ما هو موجود منه، مما ينبغي أن يتجاوز ويستدرك، وإنني لأميل إلى الاعتقاد بأن هذا التجاوز وهذا الاستدراك لا يمكن إطلاقًا أن يتم خارج المعترك السياسي، وخارج إطار تحمل أماناتٍ ومسؤوليات حقيقية ـ قلَّت أم كثُرت ـ من مسؤوليات الأمة، من قِبَل مؤمنين بهذا الدين، معتقدين بصلاحية شريعته لتأطير حياة الناس في كل مصر وعصر، حتى تكون المواكبة لمستأنفات الأحوال بكل الكسب الفقهي اللازم موازنة وتسديدًا وتقريبًا وتغليبًا. وإلا فلن تعدو الاجتهادات أن تكون نظرية عُلوية مطلقة، متجانفة عن الإشكالات الحقيقية الموجودة في المجتمعات المشخصة

---

[١٨١] أخرجه في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان، حديث رقم: ٤٩.

والعينية التي تحتاج إلى اجتهادات خاصة بها... وهي اجتهادات لا غرو سوف تكون أيضًا عقب سَيْرٍ في الأرض، ونظر في تجارب الآخرين واستفادة منها. والله المستعان.

المبحث الرابع عشر:

الحوار بين الحضارات

مقاربة تصنيفية ومقترحات منطلقية

كلنا نحلم بالتسامح وبالجمال وبأن تكون البشرية متعاونة على البر والتقوى فوق هذا الكوكب، ولكن الواقع يُثبت أن ثمة سوابق معرفية وبرديغمات تؤطر الأذهان، ومن خلال هذا التأطير تُوجِّه الواقعَ وسلوكَ الإنسان.

الحوار بين الحضارات
مقاربة تصنيفية ومقترحات منطلقية[١٨٢]

تعيش البشرية فوق كوكب صغير يسمى الأرض، وهو على شساعته لا يعدو كونه نقطة زرقاء سابحة في الفضاء. وكوكبنا بحكم اكتشاف سكانه عددًا من الإمكانات الهائلة التي تقرب المسافات وتطوي الزمان وتيسّر التأثير والتأثر قد أضحى أشبه بخلية النحل الهائجة المائجة، وأضحت عليه هذه المجموعة البشرية أشبه بالبويضة الملقّحة التي يمكن أن يتولّد عنها كائن إنساني سوي وخيّر، كما يمكن أن يتولد عنها مارد مدمر لذاته وللحياة من حوله.

في ضرورة الحوار

وبناء على هذا الإدراك فإن الحوار اليوم قد تجاوز بمراحل كونه مجرّد اختيار إلى صيرانه ضرورة؛ ولاسيما أن البشرية اليوم قد أصبحت أفعل وأقدر في مجالات التدمير منها في كل العصور التي مضت. فنحن نمتلك من القنابل النووية والذَّرية والهيدروجينية وغيرها، ما نستطيع به تدمير الأرض آلاف المرات وليس مرة واحدة. ويكفي تسلل قناعة مظلمة لواذا إلى عمق الإنسان فتستقر فيه لكي يدمر هذا الكويكب الذي ليس لنا ملجأ

---

[١٨٢] مجلة حراء، العدد: ١٥ (أبريل - يونيو ٢٠٠٩).

سواه؛ فلا أرض -راهنًا- سوى هذه الأرض يمكن أن تُقلّ النوع البشري.

وأثبتت تجربتنا التاريخية المشتركة أن الرشد الذي برهنا عليه مجتمعين لم يبلغ درجة الكفاية، حتى في إطار تديناتنا المتنوعة، فالقراءة للتاريخ تثبت أن تعاطينا مع الوحي وهداياته لم يكن فيه -في الأغلب- التوجّه لهذا الوحي لنستمد منه أجوبة عن سؤالاتنا، وإنما كان تعاملنا معه -على الأعمّ- تعاملاً استعماليًّا من أجل أن ننصر به قضايا ضيقة، أو أن نقضي به أغراضًا زائلة، وقد يقارف هذه القضايا وهذه الأغراض في كثير من الأحيان إضرار بالذات أو بالمحيط، أو بهما معًا.

وقد كانت الفترات -على قلّتها- التي سلَّم فيها الإنسان فعلاً للوحي ولهدايته وأنواره بتوجه وفهم سليمين عبر التاريخ البشري أكثرَ الفترات سلامًا وعطاء ورشادًا وتعاونًا على البر والتقوى.

إننا في هذه المرحلة أحوج ما نكون إلى فتح الأبواب على الواقع كما هو، لنتمكّن من إدراكه على ما هو عليه، لنكون أقدر على تصييره ذلك الواقعَ الذي نحلم به، فكلنا نحلم بالتسامح وبالجمال وبأن تكون البشرية متعاونة على البر والتقوى فوق هذا الكوكب، ولكن الواقع يُثبت أن ثمة سوابق معرفية وبرديغمات تؤطر الأذهان، ومن خلال هذا التأطير تُوجِّه الواقعَ وسلوكَ الإنسان. وبالتالي فإنه لابد من فتح هذه المنطقة ودخولها لاستكشافها وتنقيتها وإعادة ترتيبها؛ وهي خمسة أمور لا يمكن تصوّر تحققها بدون اعتماد مستلزماتها ومقتضياتها، وفي طليعتها الأساس المعرفي البحثي العلمي.

ففتح رمّانة المعتقدات والتصورات والسوابق المعرفية والبرديغمات والقيم والمعايير، وإحصاءُ حبّاتها عددًا، وقياس تأثيراتها، وتتبع تجلياتها

في حياة الناس أفرادًا وجماعات، أمر لا يمكن بدون ركوب مَركب المعارف المساعِدة، والتشميرِ للقيام بالبحث العلمي اللازم بالمناهج الملائمة، مراعاة للسياقات التاريخية والحضارية والثقافية المتنوعة.

كما لا يمكن تصور دخول هذه المجالات المركّبة دون الاستثمار الزمني والنفسي والذهني والمادّي الملائم، إذ هو دخول لا يمكن أن يتم دون التعاطي الميداني التفاعلي المباشر مع أهلِ ومكونات الحضارات المختلفة.

أما الاستكشاف، فلا يمكن تصوّر وقوعه بدون ما يلزم من آليات منهاجية ولغوية للتعايش مدخل الاستكشاف، وكذا يلزم من مهارات ومقتضيات مادّية لدراسة العلوم والآداب والفنون والصنائع والشرائع والنظم، والتي هي جميعًا مُتجلّى المعتقدات والتصورات والسوابق المعرفية والبرديغمات المؤطرة والقيم والمعايير، مع ضرورة مواكبة ذلك كله بالانتباه المتوفّز للفروق بين مختلف الحقول العلمية والعملية، والتفاوتات التاريخية، ومع الملاحظة الدقيقة والجمع المستوفي للمعطيات مع دراستها وتحليلها بالمناهج الملائمة، وهي مناهج يضطر المستكشف في كثير من الأحيان أن يبنيها بناء.

كما لا يمكن تصور القيام بتنقيةٍ، دون امتلاك ناصية المعرفة الدقيقة بالأصول والمنطلقات، إذ لا تعدو التنقية في نهاية المطاف تصفية الأمور ممّا يشوبها عبر الزمن وردّها إلى أصول نشأتها الأولى دون تمحّل ولا تكلّف، كسحًا للألغام المفاهيمية، والإعاقات التصورية التي قد تتسرّب إلى هذه الأنساق خلال مساراتها التاريخية وتقلباتها الاجتماعية، فتحجمها وتلجمها أو تفتحها على سراديب الكلّيانية والعنف الحضاري والدمار المدني.

أما إعادة الترتيب، فلا يجوز أن تكون خارج الثوابت تنصيصًا وتقصيدًا

في مراعاة تامة للواقع وتطلباته، واعتبارٍ لمختلف المآلات التي قد تنجم عن هذا الترتيب أو ذاك.

أنواع المحافل الحوارية

غير أننا حين ننظر إلى المحافل الحوارية في عالمنا اليوم فإننا لا نجدها تتجاوز خمسة أنواع رئيسة من المحافل؛ معظمها في منآة عن هذا الكدح الخماسي المشار إليه آنفًا:

١- المحافل التوظيفية: في هذا النوع من المحافل يتم توظيف الحوار من أجل الإبقاء على أمور معينة، أو من أجل الوصول إلى أغراض محددة.. كما يغلب على المقولات والأفكار التي تروَّج في هذه المحافل كونُها صدى لما يحمله المنظِّمون من قناعات؛ إذ يتم البحث في دائرة "الآخر" عمن سوف يتكلم بما في أذهان المنظمين وعما يشتهون، وليس عمن يحمل أفكارًا وقناعات "أخرى"!

وهذا المنحى التوظيفي تندرج ضمنه جلُّ الدراسات التي تم القيام بها خدمةً للمنظور الاستعماري، أو خدمةً لأغراض ومنافع تجارية واقتصادية صرفة. وهو ما قامت به الدول عبر التاريخ مرورًا بالفراعنة ووصولاً إلى يومنا هذا؛ حيث تدرس المعتقدات والقناعات ضمن هذه المقاربة التوظيفية بغرض التسلل إلى المعمار الذهني للآخر بغية تأطيره والتحكم فيه.. ومن هنا فإن المحافل التي تنحو هذا المنحى توظيفية بامتياز.

٢- المحافل الدعوية التبشيرية: وهناك منحى ثان، يمكن أن نصطلح على تسميته بـ"المنحى الدعوي أو التبشيري"، وهو منحى لا تكاد تبرأ منه ملة من الملل؛ ويمكن أن نجده في المسيحية كما يمكن أن نجده

في الإسلام، أو في الهندوسية أو البوذية أو في كل الديانات ذات النزوع التبشيري، ومن ثم فإن الحوار في هذه المحافل لا يكون تعارفيًّا استكشافيًّا بقدر ما يكون مستهدِفًا ضم الآخر بل أحيانًا هضمه.

٣- المحافل الأكاديمية: الضرب الثالث من المحافل يمكن أن نصطلح على تسميته بـ"الأكاديمي"، حيث يُعنَى فيه الباحث بمعرفة الأمور والوقائع والمعطيات كما هي، يكشف عنها ويتركها بحياد متاحة للتوظيف من طرف أي من المحافل الأخرى. وهو محفل له إيجابياته ويحتل المنزلة بين المنزلتين: التوظيفية والتعارفية.

٤- المحافل التوليفية المستهدِفة لتحقيق التعايش: هذا النمط الرابع من المحافل الحوارية يسعى إلى البحث عن نقاط الالتقاء والقواعد المشتركة مع "الآخر" من أجل وضع حد للصراعات العدمية؛ فهو بهذا يمارس التوظيف، لكن بطريقة إيجابية تروم حقن الدماء، وصيانة الأرواح، واستبقاء المصالح وعيًا بضرورة الإبقاء على التوازنات بشكل أو بآخر دون الغوص في معرفة الآخر ومحاولةِ فهمه فهما عميقًا صادقًا وصحيحًا وإفادته والاستفادة مما عنده.

٥- المحافل المعرفية التعارفية: وهي أكثر هذه المحافل ندرة، إنها المحافل التي تريد أن تستفيد من الحكمة أينما كانت؛ إذ الحكمة ضالة الباحث المحاور فأينما وجدها فهو أحق الناس بها. ونحن لا نتحدث هنا عن النص أوعن العلاقة الإيمانية به ولا عن تصديقه أو هيمنته، وإنما نتحدث عن الحكمة التي تبلورت من خلال التعامل مع النصوص في كل الديانات.

والحاصل أن المرء يمكن أن يتعلم الكثير ضمن هذه الخانة كما يمكن

أن يتعلم منه الناس. وثمة حاجة ماسة للعمل ضمن هذه المحافل حتى يُرَقّى فيها الحوار نحو أن يصبح تعارفيًا؛ يتأسس على البراديغمات التي تشجع على العبور نحو الآخر والإفادة منه، مثل براديغم وحدة البشرية أو الأسرة الآدمية الممتدة، وبرديغم مؤقتية الوجود الإنساني ومؤقتية الكون كله، وبرديغم نسبية الإنسان ونسبية معارفه وبرديغم التكامل وغيرها من البرديغمات المؤسسة. وهذا النموذج المعرفي التعارفي نموذج مستوعِب متجاوِز مقارنة مع "نموذج التسامح" السائد. والذي يعتريه قصور؛ لأن التسامح (Tolérance) يفيد أنني أسجل عليك أشياء أتحفظ عليها ولا أقبلها فأتفضل وأتغاضى عنها من أجل أن أصل إلى خانة التوظيفية أو التبشيرية أو ربما التوليفية.. ومن ثم فإن التسامح يبقى محدودًا ليس بإمكانه تجاوز هذا المستوى. أما النموذج التعارفي فهو أكثر قابلية للتعاطي والإثراء الإيجابيين.

وهو نموذج نجد التعبير عنه والتوجيه إليه بصيغ متعددة ومختلفة في جل الديانات، ومن أجلى التعبيرات عنه عندي، ما نجده في القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(الحجرات:١٣). وعند التأمل فإننا نجد في كل الديانات تدريبات على التعارف تختلف في شموليتها واستيعابيتها على التعارف.

والنموذج التعارفي ينطلق من حقيقة أن كل طائفة من بني آدم قد عاشت في سياقات مختلفة حَررت فيها كفاءات معينة وأطلقتها، بحيث إن التحديات التي تفرضها هذه السياقات تضغط أزرارًا في الكينونة الإنسانية، فتنشئ أضربًا من المعرفة ومن الحكمة عادة ما لا تكون عامة، وبشكل يجعل باقي بني آدم محتاجين للاستمداد منها. إن هذا النموذج يعترف بأن

كل طائفة من الآدميين قد بلورت في مجالاتها حكمة خاصة واستثنائية يمكن -من خلال تشغيل نموذج التعارف- أن يتم تقاسمها مع الآخرين وتعديتها إليهم، كما يمكن من خلال هذا التشغيل ذاته أن يؤخذ عنهم ما بلوروه هم أيضًا من الحكمة ومن المعارف.

وفي النموذج الإسلامي يوجد هذا بقوة وإشراق كبيرين في عبادة الحج، ففي قوله تعالى لنبيه إبراهيم: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾(الحج:٢٧)، يعني يفدون لكي يتجمعوا حول نقطة معينة هي الكعبة. وهذه الكعبة سميت كذلك لأنها مكعبة، لا أقل ولا أكثر، وحين تصل إلى هذه النقطة تجد أن الصف ليس صفًا مستقيمًا وإنما هو دائري، وهذه الدوائر يصطف وفقها المسلمون وينظرون من مواقعهم فيها إلى الكعبة التي لا تعدو كونها سهمًا مؤشرًا على جلال الله وقدرته، وحضوره وعنايته.

والزاوية التي تراها أنت من الكعبة؛ حجرًا أسود كانت أم ركنًا يمانيًّا، أم ركنًا شاميًا... لا يستطيع غيرك رؤيتها؛ لأنك تنظر من نقطة لو تزحزحتَ عنها بقدر أنملة فسوف تتغير الرؤية والبانوراما كلها، ولذلك فأنت مدعو ضمن هذه الشعيرة/الركن، التي هي الحج، إلى أن تطوف، وأن تنظر إلى الزوايا الأخرى من النقط والمواقع التي يقف عندها الآخرون... وطوافك لن يكون في نقطة رؤية واحدة، بل سوف تجتمع في أشواطك السبعة كثير من النقط التي تكون ضمن المطاف. غير أن هذا يستدعي النباهة؛ إذ لا تعارف دون انتباه لما تراه، وبعد ذلك يتم الصعود إلى عرفة. ولم يُسمَّ ذلكم الموقف عرفة من عبث، وإنما لوجود التعارف فيه. وشعيرة عرفة لا يحل إبانُها إلا وقد تشابهت الأشكال والملامح وتمازجت الروائح؛ إذ

لا حق لك بعد يوم التروية في استعمال الطيب، ولا حق لك في الحلق، كما أنك تجتنب لبس أمور الزينة والتميّز وتمتزج مع غيرك من الحجاج الذين جاؤوا من كل فجّ عميق كأنك وُضعتَ معهم كلهم في قِدْرٍ واحدة تَمَّ تحريكها لكي تمتزج فيها التوابل وتكون الطبخة من ثم طبخةً واحدة!

حين ننظر في النصوص التي فيها حديث عن ما بعد مرحلة التعارف بعرفة نجد شيئًا اسمه "الإفاضة"، ونجد أن الناس يُفيضون: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾(البقرة:١٩٨). والإفاضة توحي بأن ثمة قوةً تُذلل العقبات التي في طريقها: كجمرة العقبة التي ليس رجمها رجمًا لإبليس، وإنما هو تذليل للعقبات التي تحول دون الناس والتعارفِ فيما بينهم ومن ثم التعاون على البر والتقوى سواء من باطن أم من ظاهر.

وفي هذا رسالة للبشرية جمعاء لتحقيق الامتداد النابض لنفَس التعارف ذهابًا إلى الكعبة وإيابًا منها، حيث يلتقي الناس من كل فج عميق فيتعارفون، ويتشاطرون أضرب الحكمة المتعالية، ثم يعودون بها لأقوامهم ويأتي آخرون... وهكذا دواليك، في حركة تحاكي نبض الفؤاد.

الواقع البحثي في مجال الأديان المقارنة

ويحق لنا من خلال هذا النموذج المعرفي أن نسائل الواقع البحثي في مجال الأديان المقارنة... فلنذهب مثلاً إلى مكتبة موريال، أو مكتبة كمبريدج أو مكتبة جامعة محمد الخامس ولنبحث عن صورة الآخر في الديانات المختلفة، فسوف نجد أنها تندرج جميعها -إلا ما استثني- ضمن الخانات الثلاثة الأولى؛ كما سوف نجد أن البحوث التي تندرج ضمن الخانة الرابعة قليلة، أما الخانة الخامسة فحدث عن الندرة ولا حرج.

مما يعني أن صورة الآخر في الكتابات التي تدرّس في مقررات تاريخ الأديان تكون في أغلبها إما توظيفية، أو تبشيرية، أو تقريرية؛ تقرر الواقع وترصده كما هو، وفي حالات ناذرة جدًّا تكون توفيقية؛ ولذلك فإن الباحثين الجادين الذين يريدون بالفعل البحث عن تجليات هذا النموذج المعرفي التعارفي في الدراسات والأبحاث والكتابات المختلفة سيجدون فراغًا كبيرًا.

كيف يمكن إذن أن نطمح للقيام بهذه التأسيسات ضمن الخانة التعارفية في المقررات التي تدرس للطلبة، وفي التكوينات التي تعطى للقساوسة أو تعطى للأئمة أوالحاخامات، أولأهل الديانات الأخرى؟ كيف يمكن أن نوصل البعد التعارفي إلى هذه التكوينات لكي لا يبقى بُعدًا شعاراتيًّا، ويصبح واقعًا حيًّا معيشًا؟

إن هذا يصعب أن يتأتى بغير المقاربة البرهانية المخلصة سعيًا إلى استخلاص وتحرير البحث العلمي من الشواهدية (أي طلب الشهادات)، ومن البراغماتية الجامدة وكذا من التوظيفية؛ فالمقاربة الشواهدية للدراسة والبحث قد جنت على البحث العلمي ما جنت، وهذه قضية تحتاج للعلاج من النواحي المنهجية والتوجيهية وكذا التشريعية.

أما القضية الثانية التي تستدعي العلاج فهي النفعية؛ فالمعاهد العلمية تحتاج -من أجل البحث- إلى تمويل، غير أن هذا التمويل غالبًا ما يكون مشروطًا؛ فالمؤسسات الداعمة تقول للباحث، بطريقة أو بأخرى: إذا أردت أن أعطيك هذا الدعم أو هذه المنحة البحثية فيجب أن يستجيب بحثك لجملة من المواصفات البراغماتية التي أتوخاها "أنا"، ومن ثم فإن الأبحاث والأعمال التي تنتج في هذه الإطارات تدخل ضمن الخانة

التوظيفية بامتياز. وهو الأمر الذي يجب تجاوزه بإدخالِ بُعد العمل الاجتماعي في العمل البحثي.

إن كثيرًا من الناس لا يتصورون العمل الاجتماعي خارج الأمور المتعلقة بالمجاعات والكوارث وقضايا اجتماعية كالصحة على سبيل المثال، بيد أن العمل الاجتماعي في المجال البحثي محوري أيضًا وبالغ الأهمية.

واعتماد المقاربة البرهانية يقوم على ركنين:

الركن الأول: وهو عود على ما ذكرناه في مطلع هذا المقال، ومفاده: وجوب إدراك أن هذا الكوكب الأرضي كوكب محدود، وأن محدوديته تفرض التعايش، وأن هذا التعايش يجب أن يكون تعايشًا مستدامًا، ولكي يكون كذلك فلابد أن تكون لدينا القدرة على معرفة الآخر وفهمه، وأن نعينه أيضًا على معرفتنا وفهمنا من خلال التواصل معه حتى نستطيع التعامل والتعاطي والتعاون الإيجابي على البر والتقوى.. فحينما نستطيع بحثيًّا أن نبرهن على أن هذا الخيار لا يمكن التخلي عنه، وأنه أمر ضروري وشرط لا محيد عنه من أجل كل تعايش إيجابي وبنّاء لنا مجتمعين فوق كوكبنا، فسوف نكون قد برهنا بالفعل على ضرورة القيام بالبحث والدراسة والحوار ضمن الخانة التعارفية.

أما الركن الثاني: فهو الركن الوظيفي؛ والذي يدرس التاريخَ سوف يجد الشواهد المتعددة على وظيفية المقاربة التعارفية؛ فحينما سادت هذه المقاربة في بغداد كان فيها من الازدهار ما كان، وكذا حين سادت هذه المقاربة التعارفية في قرطبة وفي أصفهان وشيراز وسمرقند ودلهي وغيرها... وجلي أن الانتصار لنجاعة هذه المقاربة لا يحتاج إلى كثيرِ مرافعة، فنحن إن لم نتعايش سوف نفوت فرصًا ضخمة للبناء المشترك،

وإن لم نحذر فقد يدمر بعضنا بعضًا.. في حين أننا إن تعايشنا ازدهرنا جميعًا، واستفاد بعضنا من بعض، ونفع بعضنا بعضًا.

وإن صحّ لنا -انخراطًا في استمرار البحث في هذه القضية المحورية- أن نختم بسؤال، فليكن هو الآتي: كيف السبيل إلى تعميم هذه المقاربة التعارفية في الجوانب البحثية والتكوينية؟ وتجاوزِ العادات والممارسات الستاتيكية أو السلبية التي لا تزال بهذا الصدد تسود في محافلنا الحوارية وفي جامعاتنا.

المبحث الخامس عشر:

مفهوم استئناف بناء الحضارة

فتح الله كولن والأفق الجديد

الحضارة، شهودٌ ينتسج بحوار الإنسان -فردًا واجتماعًا- مع مرجعيته، ليستخلص منها قبلته ووجهاته إليها... والحضارة، شهودٌ ينصاغ بجهد الإنسان وبحواره مع الكون، ليمتح منه قدرته على الفعل والتسخير، كل بحسب سهمه في الأيدي والأبصار.

مفهوم استئناف بناء الحضارة..
فتح الله كولن والأفق الجديد[١٨٣]

بِناء حضارة، لا شك أنه بناء ليس كمثله كل بناء! ضخامة، وتركيبًا، واتّساعًا، وشمولاً، واستيعابًا، وامتدادًا، وأهمّية وخطورة.

فالحضارة، تشيؤ وظيفي يتم عبر الزمن، لعناصر التراب، بفعل الناس، ووفق النُّظم التي يتواضع عليها الناس... والحضارة، شهودٌ ينتسج بحوار الإنسان -فردًا واجتماعًا- مع مرجعيته، ليستخلص منها قبلته ووجهاته إليها... والحضارة، شهودٌ ينصاغ بجهد الإنسان وبحواره مع الكون، ليمتح منه قدرته على الفعل والتسخير، كل بحسب سهمه في الأيدي والأبصار.

ومن هنا، فإن نون النسبة في "حضارتنا"، التي بها ألحق الأستاذ الجليل فتح الله كولن الحضارة بأناسها المعنيين، بـ"نا"... هذه النون، جاءت بائحة بكل ما سلف، وأشجانًا.

بناء حضارة! وفق أي مثال؟ وبأي نفس؟ وبأي مناهج؟ وبأي أناس؟ وبأي تمكين؟ ووفق أي تشريع؟ وبأي تنظيم؟ وبأي نكهة؟ هذه كلها أسئلة أطّرت بجلاء، بل بنتوء هذا القول الثقيل المكنون في هذا السفر المُغني عن جملة الأسفار في بابه، وعن رَهقة الأسفار دون لُبابه.

---

[١٨٣] مجلة حراء، العدد: ٢٩ (مارس – أبريل ٢٠١٢)، والمقال هو مقدمة كتاب "ونحن نبني حضارتنا"، للأستاذ فتح الله كولن.

إنه لم ينبر -عبر تاريخ أمتنا- للكدح في هذا الورش اللاحب إلا أحد خمسة: قوي عالم راشد مأذون أمين، أو ناصِحٌ عارف محبّ حكيم، أو جندي مخلص صادق مكين، أو انتهازي عتلٍّ بعد ذلك زنيم أو روَيبضة[١٨٤]، والروَيبضة أدهى وأمرّ.

والأستاذ فتح الله كولن هو كل الثلاثة الأوائل الأصفياء، وهو ممّا دون ذلك منزّه براء، فقد خصه الجليل ﷻ بخصال من الفضل ليس من أقلّها إكرامه جل وعز إيّاه، بذوق ثمرات البذل، والكدح، والمكابدة، في خاصة نفسه، وفي محيطه، حيث تدرّج -حفظه الله- عبر مدارج بناء الذات مقامًا مقامًا، ومهارة مهارة، وخُلقًا خلقًا، ومعلومة معلومة، على عين الله سبحانه، فكان من المصطنعين: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾(طه:٤١)، ثم تيمّم -حفظه الله- شطر الفَلاح مُتَسَرْبلاً بطُهر الصلاح، ومشمّرًا دون لواء الرّباح، لا يثنيه عن ذلك شيء، أخذًا من مشكاة قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾(الأعلى:١٤).

ثم اتّبع سببًا... فأكنَّ وَقْدة حُبّ الله في فؤاده فأضحى ناشدًا محابّه لينيط بها، ووجد أن من أولى ما يناط به نفع عياله، مصداقًا لقوله ﷺ: "الخَلْق كلُّهم عِيالُ الله، فأحبُّ الخَلْق إلى الله أنفعهم لعياله"[١٨٥].

ثم أتبع سببًا.... فرأى أن أحرى ما يُنفع به الإنسان، إعانته على استرداد كرامته، وأول مدارج الكرامة استعادة القدرة على قول "لا"

---

[١٨٤] عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: "إنها ستأْتي على الناس سِنُونَ خَدَّاعَةٌ، يصدَّق فيها الكاذبُ، ويكذَّب فيها الصادقُ، ويؤْتَمن فيها الخائنُ، ويُخوَّن فيها الأمينُ، وينْطِق فيها الرُّوَيْبِضَةُ"، قِيل: وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ يا رسول الله؟ قَالَ: "السَّفِيهُ يتكلَّم في أمْر العامة"، أخرجه أحمد في مسند، حديث رقم: ٧٩١٢.

[١٨٥] المعجم الكبير، للطبراني، رقم الحديث: ٩٨٩٧.

للشهوات والنزوات والنزغات والرّغبات والرهبات والكبوات والعثرات والنعرات والفترات... فشدّ حيازيمه ولم يملك كل من لامسَتْه لوعة أخذ الكتاب بقوّة، إلا أن يفعل مثل ذلك فيجتاز المسالك أو يلزم المهالك!

ثم أتبع سببًا... فطفق في نقش المحاضن، وإعداد المساكن، وبث الجواشن[١٨٦]، وصقل المحاسن، ورَفْع المآذن بدفع الهمّة وصوغ اللّمّة وجمع الأمة.

ثم أتبع سببًا... فانتقل إلى البوح بعد الكتم، وإلى التجلية بعد التحلية.

ثم أتبع سببًا... فانتقل إلى ترميم الجذور، وتلقيح البذور، ومدّ الجسور، وإشاعة البرور، مصطفًّا خلف المصطفى ﷺ، صافًّا كلّ من أقبل، وراء ناصية الربح، وداعي النُّجح، عليه الصلاة والسلام.

فجاء هذا الكتاب ممهدًا طريق الإيمان بالديان، واتباع العدنان، والإناطة بالأركان، وبناء الإنسان، وتطهير الوجدان وصقل الجنان، والسباحة في الأكوان، والاستغناء عن الترجمان، وتجاوز الأوثان، واستثمار الأزمان، وإقامة العمران، والشوق إلى الرحمان.

فجاء كتاب "ونحن نبني حضارتنا" بفضل الله، صالحًا لأن يسمّى "كيف نبني حضارتنا؟!"، لأن اليراعة التي خطّته، حرّكتها أنامل الخِرّيت ذي الخُبر، الذي جاءنا من الكتاب الهادي للّتِي هي أقْوم، وسنة نبِي الله الأكرم ﷺ، برسم المهيع اليَبَس الناهج وسط بحر الفتَن والغفلات المائج.

فكان هذا السفر النفيس، لتَضَمُّخِه بمسك كل هذه الخصال، بمثابة البُراق المنهاجي الذي يحمل طالبه على صهوة متنه، يطوي به المراحل، ويفكّ له المسائل، لانسياب حقائقه سلسبيلاً، حيث إنها وصف لما يُحَسُّ

---

[١٨٦] جمع جوشن، وهو كتاب الأدعية المعروف.

ويُشَاهَد، وليست استظهارًا لما حُفِظَ فيعاوَد.

وقد شرفتُ أيما تشريف بترشيحي لتقديم هذا العلق المبارك، وما أصْدق مقال الشاعر عن هذا المقام إذ قال:

قالوا يزورك فيصلٌ وتزوره قلت المكارم لا تفارق منزله
إن زارني فبِفضله، أو زرتُه فلِفضله، فالفضل في الحالَين له

أسأل الله ذا الجلال والإكرام والفضل والإنعام، أن يجزل مثوبة الأستاذ فتح الله كولن "هُوجا أفَندي" بخير ما جزى به هاديًا، ناصحًا، حدوبًا، حريصًا، رؤوفًا، رحيمًا، عن أمّته. آمين آمين، والحمد لله رب العالمين.

رحلة أفق حول كتاب "ونحن نبني حضارتنا"

في ليلة صافية من ليالي الرباط الجميلة في المغرب الجميل وبعد صدور كتاب "ونحن نبني حضارتنا" للأستاذ "فتح الله كولن" جاء حوار الأنس هذا مع الأستاذ الدكتور "أحمد عبادي" حدثنا فيه عن قصته مع الكتاب ومكابداته الفكرية والروحية أثناء كتابة المقدمة. إنها رحلة أفق فكرية عرفانية شارك فيها كوكبة من الأساتذة من أمثال الأستاذ جمال ترك، والدكتور محمد بباعمي، والأستاذ نوزاد صواش، والأستاذ شفيق الإدريسي، وكانت في اليوم الثالث من شهر فبراير من عام ٢٠١٢م.

جمال تُرْك:

منذ أن نوينا السفر، كان غرضي الأول، أن أستمع من حضرتكم أستاذنا قصة التقديم لهذا الكتاب، أو بعبارة أخرى، لهذا السفر: "ونحن نبني حضارتنا". هل يمكن أن تتكرموا علينا بالحديث عن قصة تقديمكم للكتاب "ونحن نبني حضارتنا" للأستاذ فتح الله كولن؟

أ.د. أحمد عبادي:

الحاصل أن هذا الخبر؛ خبر ترشيحي لهذا التشريف العظيم والجمّ،

أن أقدِّم هذا السفر المبارك، المُغني عن جملة أسفارٍ في بابه، بلغني عن طريق أخي الأستاذ نوزاد حفظه الله، فشق علي الأمر كثيرًا، أن أرشَّح إلى هذا المقام، (مقام تقديم كتاب الأستاذ فتح الله كولن حفظه الله)، فاعتذرتُ عن ذلك؛ إلا بشرط أن يكون الإذن من الأستاذ نفسه.

فعلاً، بعد فترة، أخبرني فضيلة الأستاذ نوزاد صواش أنه حصل الإذن، فدخلتُ مرحلة تشبه المخاض، فما كان مني إلا أن اصطحبت معي الكتاب إلى بيت الله الحرام، في الحج، الذي يسّر الله تعالى الاجتماع به، شبحًا وروحًا. كان يتراءى لي الكتاب كما لو كان جبلاً أشم؛ أو بحرًا خضمًّا، أدخل إلى عبابه، ولكني أجدُ أن الدفق والكثافة الموجودة في الكتاب غامرة فعلاً دفق كبير، وكثافة غامرة.

لم أستطع أن أستوعب هذا الذي في الكتاب؛ أما الكلمات فهي ذات الكلمات التي نألفها، ولكن كنت أشعر أن الزخم من المعاني ومن المشاريع الموجودة في هذا الكتاب، يتأبّى على الاستيعاب حقيقة. فكنت أستجمع الجأش، لكي أدخل إلى غمار الكتاب مرة أخرى؛ لأن القضية التي يحملها ليست قضية عادية، ولأن الكتاب نفسه ليس كتابًا عاديًا، فيه معمارٌ لبناء الإنسان فردًا ولبناءِ الإنسان اجتماعًا، وفق منهج محدَّد، أبدى جوهرَه سيِّد الخلق صلى الله عليه وعلى آله وسلم، في سياق مخصوص، ثم قبَس الأستاذُ هذه القبسة، وهو يريد أن يستأنف هذا البناء بأدوات في غاية الفاعلية، ولكن في أسيقة متنوِّعة ومتعدِّدة وشاملة؛ في إطار من التنافس الشرس والفاتك على هذا الإنسان.

المسألة هي مسألة فيها نوع من الظفْر لكل أبعاد هذا الإنسان، وليس لبعد واحد، فكري مثلاً، أو اقتصادي، أو روحي، أو بعد من الأبعاد المفردة الأخرى،

لكنَّ هذه الأبعاد كلها متضافرة متواشجة، ويراد منها أن تمثل في هذا البناء.

فلمَّا تراءى لي أن هذا الأمرَ جلل، كنتُ أشعر أن النفَس ينقطع، وأنا لا أستطيع المجاراة؛ لأنَّ الدفق الموجود في الكتاب ليس دفقًا عاديًا. فكنتُ ملزمًا إلزامًا أن أجلس وأنتظر، حتى تتبلور عندي الأنزيمات لتمكنني من هضم هذا الذي أخذتُه، إذ القضية الأساس في هذا الكتاب ليست قضية قوة معنوية فقط، ولكنها تنضح بالسعة، والشمولية، والأخذ بتلابيب الإنسان في كلِّ أبعاده، فردًا واجتماعًا.

ولقد حاولت أن أراعي الأنساق المختلفة أثناء عملية الهضم هذه، والتي كانت تأخذ زمنًا غير بسيط. فكنت أحاول أن آخذ بعض النقاط وبعض المعاني إلا أنني أمسك؛ لكن الله ﷻ قيّض لي من يساعدني في هذا العمل، وكان أشدَّ الناس مساعدة لي -حقيقة- المرحوم فريد الأنصاري، فما خطَّته يراعته في كتابه "عودة الفرسان" كان مدخلاً حقيقًا لي. نعم، لقد استعنت بالأستاذ فريد الأنصاري، فقلت له: "يا فريد، أخبرني عن هذا الذي استوعبتَه، أخبرني عن هذا الذي أدركتَه، عن هذا الذي استشففتَه".

كنت أجلس إلى الأستاذ فريد الساعات الطوال، من خلال "عودة الفرسان"، فكان يخبرني، ويعطيني معلومات في غاية الأهمية؛ لأن رحلاتي التي يسرها الله ﷻ في كتابات الأستاذ فتح الله وفي آثاره المعنوية والبشرية والعمرانية، ولأن مجالستي لكل من فضيلة الأستاذ مصطفى أزجان والأستاذ جمال ترك، والأستاذ نوزاد صواش، ولسائر الإخوة الذين قبسوا من أنوار هذا المعين المبارك.. كل هذه أعطتني فكرة؛ ولكن وجدتُ نفسي حقيقةً غير قادر على أن أقدِّم لهذا الكتاب من خلال قراءته فقط؛ لأن مضمونه ـ كما قلت ـ مختلف أشدَّ الاختلاف عن غيره.

أما رحلاتي مع الأستاذ فريد -رحمه الله- وأجزل مثوبته، وجلساتي مع الأستاذ فتح الله من خلال الأقراص المدمجة، التي حصلتُ عليها أثناء بعض الرحلات إلى اسطنبول؛ وكذا نبضات الأستاذ، وطريقة تصرُّفه، ثم إقامتي في الطابق الخامس، ودخولي إلى غرفة الأستاذ، وتعاملي مع فضائه الذي كان يتحرك فيه، هذه كلُّها كانت مساعِدات؛ ولكن مع ذلك كان يقصُر مني النفَس.

كنت أطيل الجلوس ولا أخط شيئًا؛ لأني لم أشأ أن أسيء إلى الكتاب بشيء لا يرقى إلى مضمونه الخطير، واستفرغ هذا الانتظار مني ما يقرب من عام كامل، وأنا في حال "الحالّ المرتحل" في ثنايا هذا السفر القيم. ولعل من الخصائص التي صعّبت الأمر علي، وجعلته شاقًا غير ميسور، أن محتواه ليس سردًا سجينًا لزمن معين، لكنه في غماره تشعر -إن صحَّ التعبير- أن "جدران الزمن تتلاشى"، فلا يبقى شيء اسمه القرن الفلاني، أو العصر العلاني، أو الحكم الفلاني... إنك تجد أن كل شيء تلاشى ولم يبق إلا الله تعالى، رب الإنسان؛ ولم يبق -على إثره- إلا الإنسان كما ينبغي أن يكون في كل مكان وفي كل زمان.

ورغم أن الكتاب يحلل دلالة التدافع في أبعاده المختلفة، ولكنك تجد أن الخيط الناظم لكل ما جاء في الكتاب، في تعالٍ مبهر، يرفض الانسجام أو الانحباس في فترة أو لحظة تاريخية مَا.

وفي الكتاب بحث عن "عيون الجمال" في الوجود الإنساني وعن منابع هذا الجمال، التي لا يمكن أن يتم الحديث فيها بالحفر من أجل استخراجها، إذا لم يكن الأنسان هو نفسه مستشعرًا لهذا الجمال، متصورًا لهذه المنابع.

والذي تبدَّى من خلال الكتاب -كذلك- أنه ليس بكاء على الأطلال، إذ لم يكن الأستاذ فتح الله كولن حفظه الله تكرارًا لنموذج معين، وإنما مقصده إطلاق النموذج القرآني في بناء الإنسان، فردًا واجتماعًا. هو نموذج لحضارة معتقة من كل أنواع العبودية والرهق التي يعيشها الإنسان، ولا يزال.

تستشعر وأنت تتعامل مع الكتاب أن هنالك أفقًا أنُفًا، لم يتمَّ رصده من قبل، فأنت تشعر أن الأستاذ، حتى في الفصل الذي فيه الحديث عن العلوم الإسلامية، لا يتكلم عن العلوم الإسلامية باعتبارها أمرًا قد تمَّ الفراغ منه، وتم اكتماله؛ لكنه -عكس ذلك- يرى أنه بنيان ينبغي أن يُستأنف، لارتياد تلك الآفاق الأنف التي لم يتم ارتيادها من قبل. أقول، حتى في هذا الفصل العيني، الذي كان من المفروض أن يكون مدرسيًّا تراثيًّا، أو حتى تجديديًّا بالمعنى الكلاسيكي لكلمة التجديد في باب العلوم، تجد أن هنالك الضابط نفسه، لأن ثمة آفاقًا لم تبلغ مداها الإنسانية بعدُ، فهي لم تغادر شطآنها، فأنى لها أن تغوص في أعماقها وفي فضاءاتها المختلفة؟!

الحق أنني حين اكتشفتُ هذا السر ازددتُ رهبة، لكن مع ذلك حصل شيء هام، كنت قد ذكرته للأستاذ نوزاد صواش، وهو أنَّ بناني فجأة انطلق.. كأن كل الإدراكات انتظمت.. وشعرتُ كما أنه جاء إذْن معيَّن بأن أكون قادرًا على كتابة هذا الذي فعلاً أشعر أنه ليس تقديمًا لكتاب "ونحن نبني حضارتنا"، ذلك أني لا أزعم ذلك.

ولقد رأيت أن يسمى الكتاب "كيف نبني حضارتنا"، ذلك أنه كتاب عملي وظيفي، كتاب إنساني مبشِّر؛ فأنت تشعر أنَّ تحيزه للإسلامية، هو في حقيقة الأمر انمحاء في الإلهية والنبوية، وليس انتماء إسلاميًّا بالمفهوم

المتداول. فمفهوم الإسلام هنا واسع جدًا غير منحسر، ذلك أن الأفق أفق إلهي، ثم نبوي على إثره، وهو مشترك بين جميع بني البشر... والحق أن هذا الكتاب ليس فيه هذه الشنشنة التي قد تجدها أحيانًا في بعض الكتابات، من مثل الرغبة في استرجاع مجد بائد، أو استعادة مكانة معينة، بل تجد أنه تخفيف، وكما قال الله ﷻ: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾(الأعراف:١٥٧).

إني لا أزعم أن ما كتبتُ هو مقدمة، وإنما هو تقاسم لبعض ما أحسست به، وأنا لا أدعي أنني دخلت كِنَّ هذا الكتاب، ولكني لامسته لمسًا رفيقًا؛ لا أدعي أنني استوعبته حقًّا بطريقة كلية، ولكني استشففتُ بعض الذي جاء فيه لا غير.

هذا الكتاب ليس من الكتب التي تقرأ مرة واحدة، أو مرتين أو بضع مرات، وإنما هو كتاب، فهو يُسْتَنْطَق، ويُستَفْسَر، ويُجرَّب... ذلك أن محتواه لا يفهم إلا بالتنزيل الميداني، من هنا لزم تجريبه ومحاورته، وأنت تقول: "هل هذه التجربة هي مقصد هذا الفصل، أو هذه الفقرة، أم أنها شيء آخر".

وأود أن أختم جوابي عن سؤالكم هذا، بأنه قد حصل لي شرف عظيم بهذه الثقة، وبهذا الترشيح، الذي أستشعر بكل صراحة، وبكل موضوعية، أني لست في مستواه؛ وهذا ليس تواضعًا مني، لكن لكون هذا الكتاب ثمرة لكدح -لا أقول طويل فقط- لكنه كدح عميق وعريض ومبارك، لم يقتصر على مجرد قضاء ليال وأيام في التفكر والتدبر، وليس ذلك لمجرد تعميق المعاني، وإنما هي البركة حين تحلُّ على الذي وقف نفسه لله تعالى، ومحض ذاته للذات العلية، وكان كل عمره سلمًا إلى الله تعالى، قاصدًا وناويًا دفع الناس كلهم لارتقاء هذا السلم. فدقائق الأستاذ وأنفاسه وثمراته هي بحول الله نتاج العمر الكلي الذي يسري إليه عبر أجداده من

لدن المصطفى ﷺ، وليس فقط نتاج عمره الفعلي.

فكل المكونات والنكهات والأرومات الحضارية، من الكدِّ المعروف عن أهل "أَرْزُرُوم"، إلى العزم المعروف عن العثمانيين، إلى المكابدة والنضالية المعروفة عن التركمان، إلى التحليق والبلاغة المعروفة عن العرب، إلى الدقة والغوص في التفاصيل المعروفة عن الأوروبيين، إلى الاستماتة المعروفة عن الآسيويين... كلها متكاثفة أعطتنا هذه الثمرة المباركة.

وبهذه الخاصية تبوأ الأستاذ مقام "المهندس الحضاري" بامتياز. فالدرس الذي في هذا الكتاب هو "الهندسة الحضارية"؛ أي هندسة المعمار الحضاري الشامل، وهذا الكتاب يتحدى كل من أراد أن يأتي ويناقش هذا "الجينوم الحضاري"، وكل من سأل: هل هذه الحضارة قابلة أن تنافس، وأن تزاحم، في الذكاء الكلي، أم لا؟

ولذا أعتقد أن الأستاذ "طرح همَّته" في هذا الكتاب، ولقد استهدف الأستاذ حين طرح كتابه باسم "ونحن نبني حضارتنا" حقيقة كبرى، وهي تتمثل في تحدي كل من أراد مناقشة تلكم المعاني الكبرى.

في هذا الكتاب درج الأستاذ كينونته، ذلك أن القارئ سيبحث وسيسأل: هل الأستاذ متسامح؟ هل هو متفتح؟ ما هو أفقه؟ هل هو منحبس ضمن إطار في نسق عالم ثقافي معين، أم هو منفتح على الأنسقة الأخرى؟ ثم هل الأستاذ -من خلال كل المقولات التي صدرت منه أو صدرت عنه- هل هو قرآني؟

وهذه الأسئلة ذاتها أشعرتني بعظم المسؤولية، أعني مسؤولية التناول لمثل هذا الكتاب، ولذلك تلاحظون أن الكلمات التي يسرها الله تعالى قد رامت أن تجلِّي بعض معالم الإنسان الذي صدر عنه: من هو هذا الإنسان

الذي وقف هذا الموقف، وقام هذا المقام؟ قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ﴾(الجن:١٩)، مَن هو هذا العبد؟

في الحقيقة، كما ذكرتُ آنفًا، الكتاب يُتحاوَر معه، وليس كتابًا للقراءة مرة أو مرتين. وإني أحمد الله أن كتب لي هذا الشرف العظيم، وأسأله تعالى أن يعينني لأكون في مستوى هذا "الاقتران" ضمن هذا السفر: أن يقترن هذا العبد لله، بهذا العلم الشامخ. وإني أسأل الله ما حييت أن يجعلني في مستوى ذلك، والحمد لله رب العالمين.

نوزاد صواش:

في إحدى جلساتنا قلتم عن الكتاب "إنه لا يطرح أفكارًا جديدة فحسب، بل يعطينا "آلية منهجية" لإنتاج الأفكار الجديدة". فهل يمكن أن تفصلوا لنا ذلك؟

أ.د. أحمد عبادي:

هذا الذي قصدته "بالجينوم"، أي ذلكم الشريط "الجيني" الذي تتكون به الكائنات، فهذا الكتاب هو "جينوم" حقيقة، فيه (DNA) "الحضارة الإنسانية المرتقبة المنشودة"، التي يكون فيها الإنسان كما أراده رب الإنسان، وهذا ما يفسر أن رسول الله ﷺ أرسِل للناس كافة، للناس جميعًا، للعالمين: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾(الأعراف:١٥٨)، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(الأنبياء:١٠٧).

فمفهوم الجينوم هذا يعطيك المادة والأصل الذي تتخلق به الحضارة المرتقبة. فالأستاذ لا يعطيك هذا الأصل في "تلبيساته" المختلفة، بل

يعطيك إياه في إطلاقه القابل للتنزيل في السياقات المختلفة؛ لذلك جاء الكتاب نسقًا مفتوحًا، ولم يأت نسقًا مغلقًا؛ يعني أنه جاء مثل تلك المادة المركزة التي تخلطها بما يسر الله من مكونات أخرى، فتعطيك هذا "الإكسير الحضاري المرتقب".

الكتاب الذي جاء في هذا الإطلاق، هو عملي في إطلاقه، فيه "التنزيل العملي"، لكن غير منحبس في نسق مغلق، زمني أو مكاني ولا حتى تحيزي مطلق، فهو ليس متحيزًا حتى للإسلامية، بل هو متحيز للإلهية والنبوية؛ والإلهية والنبوية عامة كما هو معلوم.

وفي الكتاب قابلية تعدية ملَكة التناول لمثل هذه القضايا الكبرى، فهو تمامًا مثل صورة الغلاف الموفقة جدًّا، وإن كنت لا أعرف من أنجزها، فالكتاب -كما في الصورة- يمنحك أجنحة تخرجك من الأسوار نحو الإطلاق، يعني أنك ترى هنالك طريقًا، ولكن هذا الطريق يخرجك من أسوار الانسجام والنسق المغلق، بهذه الأجنحة التي منحت لك، نحو هذا الإطلاق، والذي تخف فيه الكثافة رويدًا رويدًا، فلتلاحظ أن كثافة الباب الأول في الصورة شديدة لكنها تخف وتقل عند المدخل الآخر، ثم يظهر باب آخر، ثم بعد ذلك نشاهد "الأفق الأنف" الذي لم نصل إليه بعدُ، وإننا نرى بعيدًا عمرانًا معينًا، لا تبدو ماهيته، لكنك متيقن بأنه جميل، فأنا أهتبل هذه الفرصة لكي أهنئ هذا المصمم الموفق، الذي وضع هذه الصورة للغلاف.

نوزاد صواش:

كيف لفكر أن يكون تنزيليًّا، وفي نفس الوقت موفقًا في كل الدوائر، كيف يتأتى ذلك، وأيُّ عقل يقدر على ذلك؟

أ.د. أحمد عبادي:

ليس القضية قضية عقل، إنما الأمر يتجاوز العقل، فمثلاً، في هذه اللحظة التي نجلس فيها الآن معًا، تجلس هذه الجثامين، وهي مادة، ولكنَّ هذه المادة تتحول إلى مركَبات يتيسر بها التجابر لهذه الأرواح التي تركب هذه المركَبات، وهذه المركبات فيها جهاز العقل، وفيها جهاز العضل وجهاز المضغ... فيها كل هذه الأجهزة، ولكني لا أستطيع أن أقول: "إن الأستاذ نوزاد الذي أراه أمامي أو الأستاذ جمال الذي أمامي أو سائر الإخوة المقابلين لي معناهم هذا "الساكن النوراني" الذي هو نفخة: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾(الحجر:٢٩)، فهي نفخة من لدن الله تعالى، فهذا الساكن حين يتحرر من الأعصار، وتنحط عنه الأغلال، ينطلق لكي يعانق الأصل: ﴿إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾(البقرة:١٥٦)، فحين يعانق هذا الأصل كثافة، لا يبقى هنالك جدران ولا أرض ولا أكوان... الكل يضمحل؛ وهذا يعني أن الإنسان حين يصبح معانقًا للإطلاق أصالة، يكون -بالطبع- توقيعه وهو يتكلم، توقيعه وهو يقول، يكون ذلكم التوقيع متأبيًا عن أيِّ ضرب من أضرب التحيز، والقرآن الكريم تجده يذكّر هذه الروح، يحدوها:

فَحَيَّ على جنّات عدنٍ فإنها   مَنازِلُكَ الأُولَى وَفِيهَا المُخَيَّمُ

يحدوها إلى أن تعانق أصلها مرة أخرى. وكلما اقترب الإنسان من الجوهر القرآني الذي هو كلام الله ﷻ، استطاع أن يتخفف من هذه الآصار ومن هذه الأغلال؛ الآصار ليست فقط آصار تشريعية، إذ إننا حين نقرأ آية سورة الأعراف: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾(الأعراف:١٥٧) باعتبارها موجهة إلى بني إسرائيل، في بعدها

التشريعي الذي وضعت فيه الآصار والأغلال، سوف نخطئ المعنى الكلي المتضمن، لا شكَّ أن فيها هذا المعنى، لكن المعنى الشامل لهذه الآية، هو المتجاوز لكل ذلك، والمستوعب لكل أضرب الأغلال والآصار، بما في ذلك الآصار الجثمانية. لذلك حين تخف هذه الكثافة عن طريق التزكي، طريق اللزوم لباب الله تعالى في الاغتراف بين يدي وحيه الخاتم، تتحرك آليات أخرى وتنبثق، بل أقول تندهق، كفايات أخرى في هذا الإنسان، الذي يصبح قادرًا على التعبير عن النظم، وعن الفعل، وعن القول، المتجاوز لأنواع التحيزات، لا ينطق هذا لإنسان بعقله، وإنما يستعمل عقله، يملي على عقله الذي يترجم هذه المعاني وهذه المدركات السامية، التي جاءت من حياض الملكوت ومن رياض الجبروت يتلقى هذه الأمور الموجودة في هذه التي نسميها آيات في القرآن المجيد، والتي ترجمها سيد الخلق ﷺ لتصبح هذه الملكة لنقل المعاني، فتملي هذه الأمور على العقل المتجاوز. هنا يصبح العقل مجرد معبر، يعيد ترجمة وسبك المدركات المتعالية السامية، في شكل تعابير وبنًى لفظية، لتنقل هذه المركبات التي تُقلُّنا فنجلس ها هنا معًا.

فالكلام الموجود في هذا الكتاب، بل في كل كتب الأستاذ وفي كل افتتاحياته وفي كل المحاضرات التي يلقيها، ليس كلام عقل أو نقل من الكتب، وإنما هو وصف لما يشاهد بالمفهوم الروحي للمشاهدة، وليست استظهارًا لما حفظ أو لما تمت ملاحظته في الكون؛ بل هي عبارة عن آليات أخرى تكون ثمرة من ثمار المجاهدة التي تقلل من هذه الكثافة.

يخطيء مَن ظن أنَّ هذا الكتاب -أو كتابات الأستاذ فتح الله كولن حفظه الله بشكل عام- هي نقل لملاحظات، أو استظهار لمحفوظات

أو مساجلات، أو أيّ شيء من هذا القبيل، إنما هي مدركات تأتي عن طريق المعاناة. فنحن نستشعر أن جسم الأستاذ ودماغه مكونات لنقل هذه الأمور التي ترفضها اللوعة، ويرفضها الشوق، والاحتراق، والمخافة، والمسؤولية، والحرص على التوفية والحنان والحدب وحب الخير للإنسان، أين ما كان الإنسان وحيث ما بان، لقد اتبع هذا المنهج الذي يحتاج إلى استكشاف -حقيقةً- فهو منهج ليس فيه مخادعة لأحد، لأنه مرتبط بالكدح. والأستاذ لا يخفي هذه القضية في ثنايا كتابه، ولا في كل ثنايا كتبه، بل وحتى في حياته الخاصة. حقًّا إن وجود الإنسان وعطاء الإنسان وفلاح الإنسان مُرتهن بالمكابدة والكدح: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾(البلد:٤)، ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاَقِيهِ﴾(الانشقاق:٦)؛ فالأستاذ لا يخادع أحدًا، وهو لا يقول هناك عصا سحرية، أو فقط إذا قمت بهذا سوف تبنى الحضارة، بل يؤكد على الكدح والمكابدة، ثم لابد من الكسب والعكوف، ولابد من ثني الركب والمجاهدة: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾(العنكبوت:٦٩). فالأستاذ لا يوهم أحدًا، لكنك تجده دائم التلويح إلى الاحتراق والمعاناة والمكابدة بالمحنة... من هنا كنا في حاجة إلى استكشاف هذا المنهج، لكن الجميل أن ذلك لم يأت بصيغة التنويه، إذ الطريق سالك ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾(العنكبوت:٦٩).

الكتاب فيه هذا الحُداء.. يقول لك "إن هذه المجاهدة مثمرة"، ويوفَّق في إبراز ثمرتها. هذا التوفيق سبب في كتابة المعاني التي هي ثمرات خلوة للمجاهدة. فالكتاب إذن لا يمكن استكشافه نظريًّا فقط، وإنما تحتاج إلى أن تتحاور معه من خلال التنزيل التجريبي الخاضع للتقويم المستدام،

مع ضمان أسرار عملية التنزيل وعدم تقطعها.

يتحدث الأستاذ في هذا الكتاب عن المعية -معية الله ﷻ- ولكنه، استلهامًا من الوحي الذي هو الأصل والمرجع الأساس، يربط المعية بالإحسان. والإحسان له مقتضياته في الفصول الأخيرة التي تشرح معنى التزكية والتصوف، فهو يبرز هذا المعنى بجلاء، أي يبرز أن هذا الاستمداد لكنوز الغيب الذي يرجع الإنسان إلى أصل حقيقته، وهو أنه من الله تعالى وإلى الله تعالى. ويمكن أن نعتبر هذا الاستمداد سرَّ الحبكة في هذا الكتاب، لكن يجب أن نتنبه إلى أن سرَّ الكينونة بالله تعالى لا يتأتى إلا بأن يكدح الإنسان، وأن يجاهد نفسه.

والإبصار مسألة أساسية في الكتاب وعند الأستاذ، لأن الإبصار هو الذي يمكنك من السير: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(الملك:٢٢).

فالكتاب ليس فيه وصفة سحرية، إنما هو يرشدك إلى البناء بكل شروطه التي في مقدمتها الكدح والمجاهدة، اللذان يتولد عنهما الإبصار، والإبصار سوف يؤدِّي إلى السير، والسير سوف يؤدي إلى الاستهداء، وهذا الاستهداء سوف يقود إلى التعاون، وهذا التعاون سوف يقود إلى التناصح، ولكن التناصح والتعاون يبقيان رهيني الصبر، إلى غير ذلك مما يتكشف أثناء قراءة هذا الكتاب وتصفحه. إنك تشعر حرص الأستاذ -حفظه الله- على أن يربط هذه المعاني الروحانية الرفرارفة والهفهافة بكثافة الواقع، يذكِّرك بأنك تحتاج إلى فنون، يذكِّرك بأنك تحتاج إلى اقتصاد، يذكِّرك بأنك تحتاج إلى طعام وإلى مصانع، لكن يذكِّرك بأن هذه ينبغي أن تتم في أصول وحسب مراعاة هذه الجوانب المحيطة،

وهذا أحدث ما وصل إليه الفكر الإنساني: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾(الرحمن:٧)، فاستصحاب مفهوم الميزان تجده حاضرًا باستمرار.

نوزاد صواش:

أستاذي الكريم، هناك توصية تكرمتم بها لأحد تلاميذ الأستاذ فتح الله كولن حينما دعوتموه إلى إلقاء كلمة حيث قلتم: "أخي الحبيب أنت رأيت الأستاذ ودرست عليه، تَوجَّهْ وتكلم". فما حقيقة هذه التوصية؟

أ.د. أحمد عبادي:

حقيقتها يمكن أن نترجمها فيزيائيًّا، فلو لم يتوجه القمر إلى الشمس لما اكتنز بأنوارها ولما أضاء، لكن الاكتناز بالأنوار يحتاج إلى قابلية وإلى استعداد. الله ﷻ حين خلق الإنسان خلقه بقابلية الاكتناز بالأنوار أو الاحتراق بالنيران، لأن طباع الإنسان سرَّاقة كما يقال، وهذا هو مفهوم التأسي ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾(الأحزاب:٢١)، وهذا مفهوم الإمامة في القرآن المجيد، فأنت تجده متعديًا إلى هذا البعد ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾(السجدة:٢٤). وسيد الخلق ﷺ يقول: "مثل الجليس الصالح كمثل بائع المسك، إن لم تبتع من عنده أصابك ريحه الطيب، وجليس السوء كمثل نافخ الكِير، إن لم تحرقك نيرانه أصابك من نتن الريح"[١٨٧].

---

[١٨٧] أخرجه البخاري في صحيحه بنحوه، كتاب الذبائح والصيد، باب المسك، حديث رقم:

فالله سبحانه خلق الإنسان هكذا. ولذلك الله يقول ﷻ: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾(الكهف:٢٨)، ونجد في القرآن المجيد مواطن ومواقع تبين أن هؤلاء الذين يزيَّل بينهم يوم القيامة، هم الذين كانوا يسرقون من بعضهم البعض الأمور السيئة، والذين يُجمع بينهم، هم الذين كانوا أيضًا يأخذون من بعضهم البعض الأمور الجيدة.

كان الواحد من الصحابة ﷺ إذا لقِست نفسه -أي عجزت- يذهبُ فينظر إلى أخيه، فيعمل على تلك النظرة أيامًا، ويكفي لذلك نظرة واحدة.. وكذلك التابعون والصلحاء في هذه الأمَّة. وحين يكرم الله ﷻ عبدًا من عباده بجعله من الأئمة، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾(الأنبياء:٧٣)، ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾(الفرقان:٧٤). فحين يكرَم عبد من العباد بهذه الخصيصة يصبح في مقام الإمامة والهداية للخلق، أي يصبح شمسًا من الشموس ونجمًا من النجوم. وحين يتم بالتوجه إليه، قابلية الاكتناز بالأنوار وبالخيرات تشتغل.

الإشكال في المجال الإنساني، هو أن هناك بعض الناس الذين عندهم قابلية الإشعاع، ولكن تكون هنالك أعراض جانبية مع هذا الإشعاع. فهناك الإشعاع الذي ليست معه أعراض جانبية كماء زمزم. وكذلك الأدوية فهناك أدوية تكون معها كثير من الأعراض الجانبية. كذلك الاقتداء ببعض الأشخاص، قد يكون وراءه نجاح وفاعلية، ولكن تكون أعراض جانبية -ضَيعة- من نوع ما، من درب ما، ومن شكل ما.

٥٥٣٤. ومسلم في صحيحه مع اختلاف يسير في اللفظ، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب مجالسة الصالحين، ومجانبة قرناء السوء، حديث رقم: ٢٦٢٨.

الوضع الوحيد -وأعي ما أقول- الذي لا تكون هناك فيه أعراض جانبية، هو حين يكون الالتحام بالهدي النبوي؛ لأن سيدنا رسول الله ﷺ، كان يهدي إلى الفضل وإلى الخير المحض بتوفيق الله تعالى وتسديده ﷻ، فليست هناك أعراض جانبية. وكلما كان الإمام على قدم سيد الخلق ﷺ اختفت هذه الأعراض الجانبية.

فإذن التوجه ائتمام بإمام، وليس الائتمام هاهنا ائتمام شعائر -الصلاة مثلاً- وهي ولا شك ركن، بل هي عماد الدين، وفيها تقوم بالحركة نفسها، وتحاول أن يتبع باطنك باطنها، لكنَّ الائتمام في المجال العام، وفي الشأن العام، يجعلك توقظ في قلبك ذلك الناصح الموجود في قلب كل منا، ولكن يكون وراء ذلك أغلال وآصار، إذ لا يمكن أن يستيقظ إلا بعد زوال الكثافة. فهذا الناصح يستيقظ حين يكون هناك إمام يوقظه، أي إن الإمام في مرحلته الأولى يكون ناصحًا لك من خارج ذاتك. فحين يحصل لك انتفاع بنصحه، يدخل قلبك بالمحبة، فيصبح ناصحًا لك من خارج ذاتك ومن داخل ذاتك، ويستمر الأمر على هذا الشأن فترات... فإذا بناصحك الذاتي يستيقظ ويتماهى مع ناصحك من إمامك -من خارجك ومن داخلك- فهو يقول لك "أحسنت أو أسأت". وتَوجُّهك إليه وإن لم يكن ماديًّا وجسمانيًّا فهو معنوي وروحي؛ هنالك تستمع إلى نصحه بقوله "أحسنت" أحيانًا وقوله "أسأت" أحيانًا؛ وإلى قوله: "ما هكذا يا نوزاد..."، أو "هكذا ينبغي أن تتصرف"، لأنك تسأل نفسك، "لو كان الأستاذ في مكاني ماذا كان سوف يفعل؟".

فالذي يزعم أنه سوف يقتدي بالنبي ﷺ مباشرة هم الذين رسخت أقدامهم، واستيقظ ناصحهم الذاتي، لكن المقام الأول هو مقام الإمام

المتوجَّه إليه، مقام الشيخ الذي تتأسى به، وبعد ذلك تصل إلى مقام هذا الناصح الذي يمكِّنك من التأسي بالنبي، ولذلك تكلموا عن مجموعة من المعاني، تكلموا عن رؤية الرسول ﷺ يقظة، أي إنه دائم السؤال لنفسه: "لو كان سيدي رسول الله ﷺ في مقامي هذا، ماذا كان سوف يصنع"، ويصبح هذا المتوجه قادرًا على الإجابة؟ لكن هذا لا يكون إلا للراسخين وهم قلة... أما من يكونون في مقامنا، فلابد من أن يكون هناك تدرج، فالتوجه هو توجه لناصحك -من خارج ذاتك ومن داخل ذاتك- المستقر في عرش قلبك بمحبتك إياه، لانتفاعك به. فانتظار أن يستيقظ بعون الله تعالى ناصحُك، من داخلك ومن خارجك يؤدي إلى حصول مدد معنوي، لأن الجدران لا وجود لها، والمسافات لا وجود لها.

نحن إن تأملنا في عالمنا هذا، ظننا أننا في "أيْس" والحاصل أننا في "ليس"، والأيس الوحيد المتفرد هو رب العزة ﷻ، لا شيء إلا هو. فإن مفهوم التوجه في هذه الخصيصة، تغييب للكثافة واضمحلال لها، فتصبح حاضرًا مع الأستاذ، وهو يقول لك: "هكذا ينبغي أن تقول.." يعني، تمر إليك عبر هذه القنوات النورانية كلُّ تجربته، وكلَّما صفت المحبة قوي التوجُّه، وكلما قوي التوجُّه قوي هذا المدد بهذه المعاني التي ذكرناها.

جمال ترك:

بمناسبة ما تفضلتم به "أن الإنسان معانق الإطلاق" تذكرت مقال "الاستغفار" للأستاذ فتح الله كولن في الجزء الثاني من "التلال الزمردية" يتحدث فيه عن "العودة إلى الكنزية"، وكذلك مقال "سبحات الوجه" ومقال "الواحدية والأحدية". فالأستاذ عند كتابة هذا المقال الأخير،

اشتغل عليه أسبوعًا كاملاً، أو أكثر من أسبوع. وفي ليلة من الليالي، على الساعة الثانية ليلاً، خرج والأوراق بين يديه يسأل الإخوة أن يمدوه بالنار، يريد أن يحرق ما كتب، وهو يقول: "هل ما كتبته يليق بشأن الذات الإلهية؟ هل هذه الكلمات ناسبت القدر الإلهي أم أساءت إليه" والأستاذ كما هو معلوم ينتقي الكلمات أثناء الكتابة بعناية فائقة. لكنَّ الإخوة أثنوه عن موقفه، وطلبوا منه أن يراجع مرة أخرى، ففعل، حتى اكتمل في الصورة الأخيرة. واليومَ كلما قرأت هذا المقال أحسست بمعان جديدة، ووجدت دررًا جديدة، لم أحس بها، ولم أتنبه إليها من قبل.

أستاذنا الكريم؛ لقد قلتم بأن ترشيحكم لكتابة المقدمة تشريف لكم، ونحن سمعنا من الأستاذ ذاته قال عندما علم بتولي جنابكم أمر الكتابة "إنه تنزل للدكتور أحمد عبادي من مقامه السامي". فكيف تقيمون هذا؟

أ.د. أحمد عبادي:

وجوم... وسكوت... وتأثر... ولم يقدر أن يقول شيئًا.

جمال ترك:

أحيانًا نقرأ بعض الفقرات أمام الأستاذ، بخاصة من كتاب "التلال الزمردية" فيقول: هل هذا مما كتبته فعلاً؟

أ.د. أحمد عبادي:

هذا مقام الرحَّالة الذين رحلوا في أكوان المعاني. وهؤلاء الرحالة لا

يهدؤون أبدًا، هم في سجود واقتراب وارتحال في أكوان المعاني هذه. ولكثرة هذه المشاهدات وهذه الإدراكات، وهذا الابتعاد رقيًّا وتقدمًا عن المنازل السالفة؛ قد تُنسى المنازل السالفة، يعني تبقى هناك ذكرى لها؛ لأن كينونة الإنسان تكون قد تشكَّلت بطريقة أخرى، ووصل إلى مقامات أخرى. تبقى هذه الذكريات التي كانت بهذه الشدة، وبهذه الملحاحية، وبهذا الضغط، لمَّا تحركت بنانه لكي يكتبها، لكي يودعها في كلمات، تبقى هذه الذكريات مثل الوكت، مثل أثر تدحرج شيء حارق على جسد الإنسان.. تبقى رسومًا وذكريات، لكنها بعيدة... بعيدة.. مثل ما يستشعر أحدنا عن بعض ما شعر به في الصبا، حين رأى البحر لأول مرة.. يعني لهذه المشاعر التي هجمت عليه وعبّر عنها بملامح وجهه، لأن العبارة ساعتها لم تكن تسعفه، هذه الذكريات تبقى حاضرة، ولكن لن يذكر عبارات وجهه ولا الملامح ولا الأصوات التي صدرت عنه ساعتئذ، أما الذين سمعوها فيذكرون. في هذه الحالة التي نتكلم عنها، عبارةُ الوجه والأصوات والملامح تعوّضها الكلماتُ، ولكن كما أنَّ هذا الصبي، إذ كبر لا يذكر عبارة وجهه، كذلك الرحالة إذ كبر ـ معنويًّا ـ وارتقى، قد لا يذكر بعض هذا الذي كتبه لنا، وانتقل إلى منازل أخرى، لذلك يكون هذا التساؤل: "الآن أنا كتبت هذا الكلام؟"؛ لأنه ارتحل إلى مقام آخر غير الذي كان فيه من قبل.

جمال ترك:

نود أن نعود إلى رحلتكم في كتاب "ونحن نبني حضارتنا" للأستاذ فتح الله كولن. بعد هذا الغوص البعيد في أعماق الكتاب، كيف يمكنكم أن تلخصوه لنا؟

أ.د.أحمد عبادي:

هذا الكتاب عبارة عن جملة ضفائر منهجية تسكِّن ما يمكن أن نصطلح على تسميته بهندسة الحضارة. ومفهوم هندسة الحضارة مفهوم استيعابي، يضمُّ إدماج مختلف الأبعاد المشكِّلة لمناشط الإنسان، ولكن ضمن ناظم منهاجيٍ رؤيوي اعتقادي، وهو في هذه الحالة قرآني إيماني.

ها هنا في هذا الكتاب جدلية الحضارة والهداية، ولا أقول جدلية الحضارة وهداية الخلق، ولكن هي جدلية الهداية بمفهوم أشمل، ففيه الاستهداء ثم الاهتداء ثم الإهداء.

والبعد الاستهدائي هو عمل على الذات وفي الذات ومع الذات، التي يمكن أن تمتد إلى ذوات موافقة، تنخرط في هذا المشروع. والذي يبرز في "ونحن نبني حضارتنا" هو تلك الدعوة لتجديد المناهج الاستهدائية، حيث إن الأستاذ لا ينطلق بكونها أمرًا مكتملاً، قد تم الفراغ منه، وإنما ينطلق من كونها أمرًا وجب أن يكون البحث فيها جاريًا، ﴿كَلَّا لاَ تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾(العلق:١٩)، ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾(الحجر:٩٩)، هذا عن البعد الأول، ولا شك أن القول يقصر دون توفية مقاصد الأستاذ في الكتاب بهذا الصدد حقها.

البعد الثاني الذي هو الهداية في هذا السياق العام الذي يمكن أن نسمِّيه مجال "الشهود الحضاري" قد تكلم فيه الكثيرون، وبينوا خصائص المجال الشهودي والسياقات المتراكبة فيه والأدوات والآليات المتواشجة المتضافرة فيه بحيث أنه لا يبقى عندك بعدٌ واحد، ولا مرتبة واحدة في مجال الهداية، لم يتم تناوله.

فالهداية في مجال الاقتصاد ليست هي الهداية في مجال السياسة، وليست هي الهداية في مجال الاجتماع، وليست هي الهداية في مجال التربية، وليست هي الهداية قبل ذلك وأثناءه وبعده في المجال المعرفي، ناهيك عن المجال العرفاني الذي هو أعلى شأن من كل هذا.

فنحن نحتاج إلى اطّراحٍ بين يدي الكتاب من أجل سؤاله وتثويره واستنطاقه، لكي يحرر لنا هذه الهداية في مختلف المستويات.

والأستاذ ينبه إلى أن ها هنا نوعًا من الكلاليب الجارفة للأسف، من حيث المنهج، وبالخصوص مناهج التفسير، لذلك ختم الأستاذ كتابه بالمعرفة والعلوم الإسلامية، وأعطى بوارق ولمعًا عن التجديد في هذه المجالات، لأننا سوف نجد أنفسنا مضطرين لمراجعتها شئنا أم أبينا. وهنا قضية فيها إثارة أسباب الأزمة في العالم الإسلامي: هل هي أزمة علم، أم أزمة منهج، أم أزمة تنزيل لهذه العلوم؟

والحق أن هذه الأزمات جميعها يثيرها الأستاذ بلطف دون أن يلج جدل المقابلات ونفي الأضداد ولا الثنائيات. وإنما يشير إشارات في غاية التلطف والنبل إلى هذه الإشكالات بشكل أكاد أقول عنه إنه متفرد. فالأستاذ يطرح أسئلة: بأيّ نفَس، وبأيّ فهم، وبأيّ إرادة، وبأيّ نظم، وبأيّ تنظيم، وبأيّ تكوين؟... وهكذا، دون أن يقرِّر ويقضي ويقاضي.

يطرح الأستاذ في الكتاب أمورًا تأسيسية في قضية الهداية، فإذا المجال عند القارئ يتفرع إلى جملة من المستويات، وإلى جملة من المراجعات، يجد الجواب عنها بين ثنايا السطور.

فالإهداء يعني ببعديه: الإهداء للهدية، والإهداء للناس: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(الشورى:٥٢)، والهداية إلى ﴿صِرَاطِ الْعَزِيزِ

الْحَمِيدِ﴾(إبراهيم:١)، لابد لها من أناسها، ومن أنفسها، بحيث إنها لا تتم بنفس قصير؛ ولا تتم في عقدين أو ثلاثة، أو في قرن أو قرنين.

الزمن المفتوح يطبع منهج الأستاذ في تناوله لهذه المسألة، ولا يسجنها في الزمن الدائري أو في الزمن المغلق، فالزمن المفتوح ليس رهينة لأحد، ولا حتى لجيل أو أجيال، وإنما هو رهينة بالإنسان بشكل عام.

ولقد ابتلي الأنسان وعرف انفصامًا، عالجه الأستاذ بشكل في ثنايا الكتاب، إذ هو انفصام بين الإنسان وأصله، بحيث إنه ابتعد وأبعِد واجتيل عن أصله بطرق متعددة أحدثت فصامًا بينه وبين ذاته. والتحدي هو في كيفية الالتحام بهذا الكيان الإنساني، خاصه وعامه، في فرديته واجتماعه، بحيث يصبح الإنسان موحدًّا، مجتمعًا على الله في ذاته وبذاته، ثم يحقق جمعية بذوات أخرى، بتوحده مع الله. وهذا ما نسميه "رأب الصدع والشرخ" الذي كان في كينونة الإنسان.

أعطى الأستاذ أهمية بالغة لهذه المسألة، أي مسألة الإنسان، بحيث تناول هذه العمليات بشكل فيه ظفر بين الإنجاز والتقويم والمظهر، يعني أن الأستاذ يقرن دومًا بين "الجلالي" و"التنظيماتي" الذي في التشريعات، وبينهما وبين "الجمالي" الذي ينضح من كلام الله تعالى وسنة نبيه المجتبى، فالأستاذ ينبه إلى منابع الجمال في الوحي، ولا يقتصر على الأبعاد التشريعية المحضة، وهذا البعد في غاية الأهمية لمن يطالع "ونحن نبني حضارتنا".

والسؤال الجدير في الصدد هو: كيف يمكن أن نضطلع بالهداية عبر جميع مراتبها، ثم بالإهداء إلى العالم؟ أي فن الإلقاء إلى العالم بما ينبغي أن يكون خلال ذلك من قرن بين الجلال والجمال.

الأستاذ في ثنايا الكتاب يؤسس لقضية التكامل، وينبه إلى الفوارق التي يحصل من مقتضاها التمييز بين الكمال والإتمام، أخذًا من مشكاة قول الله ﷻ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾(المائدة:٣).

نجد التمييز بين التكميلي -أو الإكمالي- وبين التتميمي -أو الإتمامي- واضحًا؛ فإكمال الدين قد حصل وإتمام النعمة قد حصل، ولكنَّ هذا الحصول حصول منفتح، قادر لأن يحصل في كل زمان وفي كل مكان، شريطة أن يوجد الإنسان الذي هو "عبد الله"، الإنسان الذي يقوم لله تعالى، والذي يتلقى هذه القدرات على الاستفادة والإفادة، ثم الإقامة للتكميلي والتتميمي.

أما الدين فبفضل الله تعالى قد كمُل وارتُضي، لكنَّ هذه النعمة لابد من قلوب تتنزل عليها، وإتمام النعمة هذا يبقى مفتوحًا عند كل جيل، لكي ينال الاستحقاق. ورغم أن رحمة الله وسعت كل شيء، لكن مع ذلك الاستحقاق يأتي بـ: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾(مريم:٢٥)، لذلك نجد مكانًا بارزًا في البناء للتبتل وللعبادة وللذكر وللدعاء أثناء الكتاب، لذلك قلنا إن الكتاب يتأبى حتى على فصوله وعناوينه التي وضعت له، لأنه متواشج دائمًا، ولأنه كتب بكل هذه الضفائر المتواشجة المضفورة بعضها في البعض؛ يعني أن هذه العناوين التي تجدها في الكتاب هي فقط إجرائية، لكي تسهل عليك الأمور، وتسهل عليك القراءة والتطارح.

والهمّ حاضر في كل ثنايا الكتاب، ولا يمكن تخصيص جانب دون آخر، والمكانة التي أقامها الأستاذ للتبتل هي لا شك تؤدي إلى الخلاص الفردي والجماعي، ولكن التبتل أيضًا هو إجراء وظيفي، إذ لا يمكن

ادعاء بناء الحضارات دونه. لكن هذا التبتل -كذلك- يتكامل مع المحبة، والمحبة نقرؤها ببروز في الكتاب بأبعادها الخلاصية والإجرائية. فلا يمكن أن تكون هاديًا ولا مستهديًا ولا مهديًا ولا مانحًا للهداية إذا لم تكن محبًّا، فمثلاً محبتك لسيدنا رسول الله بدر التمام والتتميم ﷺ إذا لم تكن جلية، فإن تعاملك مع سنته لن يكون بشكل مأمول. ثم إذا لم تحب الإنسان الذي تتعامل معه، وتروم خلاصه... أنى لك أن تهديه. وقل مثل ذلك عن حبك للأكوان ابتغاءً للإحسان إليها، ذلك أنك مستخلف فيها، إذا لم تحبها فإنك لن تعمل فيها إلا بالإفساد: ﴿وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا﴾(الأعراف:٥٦).

إذن، بُعد المحبة له تجلياته التي هي تجليات خلاصية، وتجليات إغراقية. فالمحبة ليست قضية استيطيقية، أي من المحسنات، وإنما هي وظيفية، فوجودها وجود وظيفي لا تحسيني.

ونقرأ في هذا الكتاب قضية أخرى، لا تقلُّ أهمية، يمكن أن نسميها "اللوعة"، وهي ذلكم الحرص الشديد الذي يلامس وجود المتعة، حتى يصبح الإنسان مستمتعًا بأدائه للأمانة. فإنبات هذه اللوعة في الذات الفردية والجماعية والكونية هو الذي سوف ينقدح معه زند البشارات الكبرى التي جاءت في الكتاب والسنة. هذه اللوعة التي تجعل الإنسان قادرًا صابرًا مكابدًا كادحًا.. هذه اللوعة التي تمكنه من اجتياز الحجب والكثافات، وتجعله قادرًا على منازلة الشواظ التي تعترض طريقه حتى وإن كان من نار ونحاس، وبذلك فقط يتخطى العقبات وينتصر في كل المنازلات.

وقضية أخرى تناولها الأستاذ في ثنايا الكتاب، هي قضية العلم باعتباره مسألة وظيفية لابد من أن يكون التخطيط لها بمنهج لا يعارض

كل ما سلف، بمعنى أن العلم وجبت مقاربته بصورة تزعزع أركان النمط السائد في تشكل العلوم، ونقل العلوم، وتلقي العلوم... ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾(محمد:١٩). كل هذا كان في الأساس ثم تناول الأستاذ على إثره الإجراءات الأخرى التي بها تحصل هذه العلوم، ثم تعرض للمحاضن، والمناهج، والمدارس، والتراث... وبين كيفية التعامل مع التراث العلمي، وكيفية إعادة الإفادة منه، والاستلهام من معينه دون التوقف عنده، ولا يحصر الكتاب المسألة في العلوم الشرعية فقط، لكنه يخرج بها إلى الجوانب الكونية على إطلاقها.

ويمكننا -مرة أخرى- أن نصف الكتاب على أنه إقامة للحجة. وهذا البعد يستند إلى إظهار الإمكان، ولذلك كان بُعد إقامة الحجة في "ونحن نبني حضارتنا" بُعدًا إمبريقيًّا، تجريبيًّا، ومن ثم كان الكتاب أشبه بالدليل الذي ينبغي محاورته، منه بالكتاب الذي تتم مطالعته فقط. نعم، إنه دليل بناء الحضارة، وهو الدليل الذي يطلق شرارة تقدح زند الحضارة، فهو إذن ليس كتابًا عاديًا كأي كتاب آخر، يحوي جملة من النظريات وجملة من الأفكار. وهذه المقاربة غير منطوق بها في ثنايا الكتاب، لكنها تستمد صدقيتها من حقيقة المؤلف وما أنجزه على أرض الواقع، ومن حقيقة الذين يَلُونه من الخلَّص... ممن سانده في شتى المجالات، وبمختلف المستويات؛ ولذلك يمكن أن يكتب عليه عبارة: "جُرِّب فصحَّ".

ولا يخفى أن بُعد إقامة الحجة له وجه آخر هو مدى إقامة الحجة من خلال فاعلية التواصل مع العالمين، ولقد ألحَّ الأستاذ على هذه القضية مرارًا في الكتاب، فتعرض للانفتاح، والتواصل، والتعارف... مع العالمين.

نوزاد صواش:

مع هذه التحولات التي تشهدها الساحة العربية في الآونة الأخيرة، كيف ينبغي أن يقرأ الكتاب في رأيكم؟

أ.د. أحمد عبادي:

جاذبية القوالب الجاهزة، والأجندات الدعية والمدعية، والحديث الطويل عن حقوق الإنسان، وعن العدالة الاجتماعية، والحقوق الثقافية والاقتصادية، والكلام عن التنوع والتسامح، ومسمى مجتمع المعرفة والرفاه... كل هذه القوالب التي تجعل الكثير ينساقون وراءها، لبريقها، وليسرها المذهبي، كل هذه الاعتبارات، بالتأمل والتعمق في ثنايا الكتاب، تجعلنا نقول إنه بحق مختلف عنها، فهو "ناصح أمين"، فيه علم هندسة الحضارة، وكيفية إقامتها انطلاقًا من المرجعية الحقيقية للأمة... ولذا، فإن الأستاذ لم يتبع سراب القوالب الجاهزة، وإنما هو يقول: "العمل لم ينجز بعد، فلديكم قولكم الذي ينبغي أن تقولوه، ورأيكم الذي يجب أن تطرحوه، دون نفي وإقصاء للاعتبارات الأخرى..." ولذا أقول إن الكتاب جاء في وقته، غير أنه ينبغي أن يتم التنبيه إليه، والتنبه له.

نوزاد صواش:

وكيف التنبيه إليه؟

أ.د. أحمد عبادي:

التنبيه يكون في مستويات عديدة متعددة، منها:

أولاً، بعد نشره الأولي، ينبغي ترجمته إلى اللغات الحية، مع إعطاء الأولوية للغات الإسلامية. نعم وجب أن يترجم للإنجلزية التي أصبحت الآن لغة إسلامية؛ لكن لا نغفل الفارسية، لإنقاذ مرحلة ما بعد خاتمي في سياقها الحالي، وللخروج من فخ "صدام الحضارات" إلى "تحالف الحضارات"، وإنما بشكل باطني لا نُظمي؛ لإن إنسان الحضارات ينبغي أن يكون قادرًا على التحالف وليس الانصياع.

ثم وجب أن يترجم إلى الأردية، والسواحلية، والروسية، والفرنسية بقصد نفع شعوب إفريقيا، ثم الإسبانية... وليترجم إلى العبرية إن أمكن.

ثانيًا، قراءة الكتاب قراءة مسؤولة، من قبل أناس يشعرون بثقل المسؤولية. وكذا قراءة تأسيسية يستدعى إليها المكابدون والمعانون، ولتكن بين ثلة قليلة من أهل الهمة وأهل الحرقة، وليشارك فيها ثلة من تلاميذ الأستاذ، ولتتم بأسلوب ونسق مفتوح منفتح؛ أي لا يقرؤونه كما يقرؤونه بينهم، ولكنهم يقرؤونه للعالم، وليستدعى بعض أهل المعاناة من الحضارات الأخرى، من الذين يعانون ليروا شيئًا جديدًا، وليتجاوزوا أزمات هذا العالم اليومَ... ولتتم القراءة في أقطاب جاذبة، أقترح أن تكون "روما" مثلاً؛ لأنها قطب جاذب على مستوى العالم.

جمال ترك:

يعجبني هذا التوافق مع ما جاء في مقال للدكتور إبراهيم بيومي غانم،

حول مقال "الوعي الجمعي" للأستاذ فتح الله كولن الذي نشر في العدد ٢٥ من مجلة حراء، وهو بمثابة رسالة إلى الثورات العربية؛ فالتوافق من جهة استعماله مصطلح "الناصح الأمين"، وأنتم الآن تذكرون نفس المصطلح.

د. محمد باباعمي:

سؤالي الأول عن "الحجية"، ونحن ندرك أن القرآن الكريم قد بلغ الحجة، فما مقام كتاب "ونحن نبني حضارتنا" من القرآن الكريم، وما مقام القرآن الكريم في الكتاب؟

أما السؤال الثاني فعن مكانة الكتاب في سلسلة مؤلفات الأستاذ الأخرى، في أيِّ مقام نصنفه؟

أ.د. أحمد عبادي:

بالنسبة لسؤالك الأول عن القرآن المجيد ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾(النساء:١٦٥)، فخاتم الرسل جاء بهذا الوحي، ومن ثم لا يمكن أن تكون هناك أي حجة بعده. والرسل جاؤوا بالحجة من خلال إظهار الإمكان، وهو ما نسميه "نقض الاستحالة". فالرسل الكرام إذن ينقضون الاستحالة بإظهار الإمكان، كما أظهر موسى عليه السلام الإمكان من خلال نشأته في قصر فرعون، وأظهر إبراهيم عليه السلام الإمكان وهو ابن صانع الأصنام. وكذا بداية الحضارة من خلال امرأة ضعيفة وهي هاجر عليها السلام، مع رضيعها، في واد غير ذي زرع... فمن هذا المحتد تنشأ أعظم حضارة على الإطلاق، أي ليس هناك استحالة، ولذلك كانت حضارة "الله أكبر" هي حضارة كونية ناقضة للاستحالة، مواصلة مسيرة الرسل عليهم

السلام؛ من هنا وجب على الأتباع إلى يوم الدين أن يستأنفوا المسيرة، بهدي هذا الوحي، فيظهرون الإمكان، وينقضون الاستحالة، وهذا بالضبط ما قام به الأستاذ فتح الله كولن.

فهو يظهر الإيمان وينقض الاستحالة وسط المدلهمات الخطيرة: الغرائزية، والشبهاتية، والشهواتية، والنظمية... التي تغزونا من كل حدب وصوب. فالأستاذ يبين أن الإمكان موجود، وأن التقاط الموجة الصافية لا يزال ممكنًا، وأن حوارك مع وحيك ورجوعك إلى أصلك لا يزال ممكنًا.

فحجية ما يقوم به الأستاذ مستقاة من مشكاة القرآن المجيد، ومن مشكاة سيدنا رسول الله ﷺ؛ لأن مهمة الأنبياء، ومهمة كل أتباع الأنبياء هي ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾(النساء:١٦٥). وأنت تعلم أن هذه القضية بدأت في تركيا، وما أدراك ما تركيا، حيث كلمة الدين كانت شبهة لحدِّ ذاتها. ففي خضمّ هذا المحيط القاسي كل هذه القسوة على الدين، وعلى كل ما يمت بصلة إلى الدين، ولا سيما من الناحية النظمية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية... في هذا الكيان خرج الفضل كله، بمعنى أنك أنت في بلدك[١٨٨]، أو في غيره من بقاع العالم الإسلامي، أنت أكثر قدرة على أن تحقق هذا التمكين. من هنا كان الكتاب إقامة للحجة، من خلال إبرازه لمعالم الحضارة، وهندسة الحضارة.

أما سؤالك الثاني فهو وثيق الصلة بالأول، ويمكننا أن نقول إن ظهور الكتاب في هذا الوقت، وفي هذه اللحظة هو ظهور قدري، لأنه من الناحية التدبيرية يبدو أنه ظهر أوان الاكتمال، ومن ثم نشبهه "قبة في البناء"، فكتاب "ونحن نبني حضارتنا" قبة في بناء يكاد يكون

[١٨٨] جاء ذكر الجزائر، الآن الدكتور محمد باباعمي في الجزائر.

بفضل الله تعالى مكتملاً؛ فالقبة بكل ما ترمز إليه من سطوة، وإظلال، واستيعاب، وتغطية، وشدّ لأركان البناء، ومن إعطاء معنى لهذا البناء، كل هذه الدلالات نقرأها في هذا الكتاب. ثم إنا لنرجو فوق ذلك مظهرًا؛ وهنا بقي لنا الكثير، من نقش، وفرش، وتسمية... الخ.

د. محمد باباعمي:

عندما نزلت ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ﴾(النصر:١) كان الناس يفرحون، أما أبو بكر رضي الله عنه فكان يتألم؛ لأنه فهم منها الاكتمال والكمال.

أ.د. أحمد عبادي:

بالنسبة للأستاذ، فإن هذا الجهد بحول الله مستمر، بحيث إنه متابعة لمهمة الأنبياء التي لا تنتهي، فالأمر أشبه بمن أراد أن يصبغ نهرًا، لا يمكن أن يزعم أنه فعل إذا لم يواصل صباغته عبر أجيال، لا من خلال جيل واحد فقط... ما دام النهر دافقًا، كانت الصباغة مستمرة.

أي نعم، ها هنا ليست صباغة، لأن الأستاذ ليس ظاهريًا؛ وأنت تعلم أن "الميتافورات" يجب أن تكون متجاوبة مع سياقاتها، لذلك نقول: "تصفية النهر"؛ فتصفية النهر يجب أن تكون مستمرة، فلا يمكنك أن تصفي صبيبًا وتنتهي، والمصفاة إذا لم تجددها سوف تختنق، ولن تكون قادرة على أداء دورها، فتكون سببًا للهدر. لذلك وجب أن تجدد تصفية هذه الأجيال، وبناء هذه الأجيال... هي تصفية كتصفية النهر لزم أن تكون مستمرة.

لذلك، فإن التنزيل سوف ترافقه كثير من الأمور التي وجب أن تستدرَك، وبحول الله تعالى فإن الأستاذ سيواصل الكتابة والإبانة، ولذلك

أعتقد أن جيلاً جديدًا من كتابات الأستاذ سيظهر.. جيلٌ من الكتابات التقويمية والإجرائية، أعني إجراءات التنزيل.

فالمستوى الأول كان هو التوجيه، فالتخطيط، فالتشريع، فالتنظيم، ثم التعيين، ثم التمكين، ثم الإنجاز، ثم التقويم، ثم مراجعة التوجيه... فهي سلسلة ثمانية لا تنتهي، دائرية لا تتوقف... من هنا أقول إن جيلاً جديدًا من كتابات الأستاذ سيرى النور بحول الله تعالى.

وبيان ذلك أن "النور الخالد" كتبه الأستاذ لنفسه، قبل أن يكتبه لغيره؛ ولذا كانت محتوياته أبحاثًا فيها كدح ومكابدة من قبل الأستاذ لكي يتعرف أكثر على محبوبه، فلا يخطئ في حقه، ويستطيع أن يوفيه بعد ذلك حقه، ثم بعد أن كتبه لنفسه، وانتفع به هو، نقله للناس ونفع به الخلق؛ ف"النور الخالد" إذن يأتي في المرحلة التأسيسية.

وحديثي عن المكابدة أن الأستاذ دائمًا يكون قبل الدرس في مخاض، فيكف عن الكلام، وعن المخالطة؛ أي إنه يكون كالمرأة الحامل، توشك على الوضع. وصدق أن نقول: إن الأستاذ لا يستظهر محفوظاته، لكنه يصف مشاهداته، وهذا مستوى أعلى من الإلقاء. والخلاصة أن "النور الخالد"، "والتلال الزمردية"، "ونحن نقيم صرح الروح"... وغيرها، جاءت في المرحلة التأسيسية؛ والآن قد انتقل الأستاذ إلى الظفر، وجمع ما تفرق.

د. محمد باباعمي:

يدافع الأستاذ عن الجيل الآتي، فكيف يحدد الأستاذ دور هذا الجيل؟

أ.د. أحمد عبادي:

الأستاذ في كتابه يشير إلى أن لا أحد يقدر على تحديد الدور لأي إنسان، فالكل يحدد دوره بنفسه. فكما أن البناء في حاجة إلى إسمنت، وزليج، وفسيفساء... كذلك الإنسان عليه أن يستنطق قدراته هو، لكي يحدد ماهية هذه القدرات ومتى إبّان تدخله بها. لكن، في الآن ذاته، هناك المشرف على البناء والمهندس، الذي من دوره استبانة المؤهلات عند المرشحين للانخراط في عملية البناء، فدوره دور تأطيري وتوجيهي، حتى لا يخطئ أحد في حق ذاته، فيظن أنه من أهل الفسيفساء مثلاً، لكنه هو من أهل الإسمنت. فهي جدلية إذن، فمن جهة أنت تصقل ما بداخلك، ويأتي الخِرِّيت الذي يدلّك على أمثل موقع لك. فأنت تبدأ ذاتيًا، ويكون الاحتضان بعد ذلك من قبل الخِرّيت، الذي يضعك في مكانك اللائق بك. فالخريت اليوم موجود، ونحن بحول الله جميعًا محتَضَنين، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من المخلصين.

جمال ترك:

سمعت من جنابكم، أن الأستاذ من خلال هذا الكتاب "طرح ذمته"، فهذا كلام عميق، فما تفسيره؟

أ.د. أحمد عبادي:

نعم، الأستاذ بإقدامه على خط هذا الكتاب قد "طرح ذمته" أمام العالمين، يعني أنه يقول: "هاؤمُ اقرأوا كتابي، هذه رؤيتي للأشياء". فقد

استهدف، ولكنه استهدف وهو موقن، ولم يُلقِ الكتاب إلا بعد أن أيقن أنه ألقاه بإذن الله تعالى، فليقرؤوه إن شاؤوا. فالكتاب مهم جدًّا، إذ الأستاذ -كما ذكرتُ- طرح ذمته بامتياز، وكان الطرح في مأمن بفضل الله؛ لأن الكتاب اندهق اندهاقًا، وانبثق انبثاقًا، ولم يكن كتاب رصفٍ للكلمات؛ فالأستاذ فوض أمره لله.. بقيت المسؤولية مسؤوليتنا جميعًا، وهي أن نوفي الكتاب حقه، بحول الله تعالى.

الخاتمة

هي إذن جملة أفكار مركّزة، حاولت من خلالها ملامسة إشكال التعامل مع الوحي، عبر تجلية بعض سبل هذه الملامسة، وبحسبنا أن تكون هذه الإشارات عبارة عن صور أولية ترسم معالم هذا الورش العلمي والحضاري، خصوصًا بعدما ظهر بشكل جليّ وبيّن معاناتنا من أضرب من القصور في مجال استبانة معالم الرؤية الكلية الناظمة والتوحيدية الكامنة في القرآن الكريم، وهو قصور عززه الإصرار على التركيز على المقاربة التجزيئية الذرية لمفردات القرآن الكريم وآياته، بمنهج "التعضية"[١٨٩].

ولا يخفى أن التجديد في هذه المناهج يعد مفتاحًا عمليًّا لتجريد الرؤية الكلية المسعفة في إسهام المسلمين في تشكيل التاريخ المعرفي والحضاري الكوني، وإن هذه الرؤية لهي العتبة الأساس، والمنطلق لبلورة مناهج القراءة الوظيفية للكتابين، وبلورة قوة اقتراحية لدى أمتنا، تكون قابلة للفهم والفحص، متأبّية على الردّ والتفنيد، وإلا فإن هذا التاريخ المعرفي والحضاري العام سوف يستمر في التشكل ونحن غيابٌ هذا الغياب الجزئي.

وهذه جميعًا مقتضيات لابد من الكدح المندمج والوَلوع لاستكمالها،

---

[١٨٩] أخذا من قوله تعالى: ﴿جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾(الحجر: ٩١).

حتى لا يبقى التوق إلى رتق مناهج التأصيل والتنظير والتفعيل في مجال التعامل المنهاجي مع الوحي؛ قرآنًا كريمًا، وسنة نبوية شريفة، مجرد آمان نعيش بها زمن كتابة أو قول رغد، في انفكاك عن تطلبات التنزيل الإجرائي الراشد على أرض الواقع، لهذا البعد المحوري من أبعاد الحياة الإنسانية.

فهرس المصادر والمراجع

• الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، ١٣٩٤هـ/١٩٩٤م.

• أحكام القرآن، ابن العربي، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلَّق عليه: محمد عبد القادر عطا دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان ط.٣، ١٤٢٤ هـ/٢٠٠٣م.

• إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، دار المعرفة - بيروت، د.ط، د.ت.

• أخبار القضاة، الضبي، تحقيق: عبد العزيز مصطفى المراغي، المكتبة التجارية الكبرى - مصر، ط.١، ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م.

• الأدب المفرد، البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية - بيروت، ط.٣، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

• أساس البلاغة، الزمخشري، دار صادر ودار بيروت، ١٣٨٥/١٩٦٥م.

• إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، دار الفكر، بيروت، ط.٢، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

• الأمة القطب، د. منى أبو الفضل، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط.١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

• بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروزآبادى، تحقيق: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - لجنة

إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.

• تاج العروس من جواهر القاموس، مرتضى الزبيدي، مجموعة من المحققين، دار الهداية، د.ط، د.ت.

• تاريخ الأمم والملوك، ابن جرير الطبري، دار الفكر، ١٩٧٩م.

• تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، دار الجيل - بيروت، د.ط، د.ت.

• تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر - تونس، ١٩٨٤ هـ.

• التذكرة الموضوعات، محمد طاهر الفَتَّنِي، إدارة الطباعة المنيرية، ط.١، ١٣٤٣هـ.

• التعريفات، تحقيق الأبياري، بيروت، لبنان، دار الكتاب العربي، ١٩٨٥م.

• جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، دار المعرفة، بيروت، ط.٤، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

• الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط.١، ١٤٢٢هـ.

• الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار الكتب العلمية، لبنان، ط.١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

• الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، لابن القيم الجوزية، دار المعرفة - المغرب، ط.١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

• الحج: تأملات في شعائره، علي شريعتي، ترجمة: ليلى باختيار، منشورات قاضي، شيكاغو، ١٩٩٢م.

• حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، جلال الدين السيوطي،

محمد أبو الفضل إبراهيم دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه - مصر، ط.١، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.

• حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم الأصبهاني، السعادة - مصر، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.

• زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن الجوزي، المكتب الإسلامي، ط.٣، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

• سنن الدارقطني، الدارقطني، حققه وضبط نصه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط، حسن عبد المنعم شلبي، عبد اللطيف حرز الله، أحمد برهوم، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، ط.١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م.

• السنن الكبرى، أبو بكر البيهقي، محمد عبد القادر عطا دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط.٣، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

• شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال، العز بن عبد السلام، تحقيق: أحمد فريد، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط.١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

• شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد بن محمد مخلوف، دار الفكر، بيروت، د.ط، د.ت.

• شرح الكوكب المنير، ابن النجار، تحقيق: د. محمد الزحيلي ود. نزيه حماد، مكتبة العبيكان - السعودية، د.ط، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

• شعب الإيمان، البيهقي، تحقيق ومراجعة وتخريج أحاديثه: د. عبد العلي عبد الحميد حامد، الإشراف على التحقيق والتخريج: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي - الهند مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، ط.١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.

• الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، الجوهري، تحقيق: أحمد عبد

الغفور عطار، دار العلم للملايين - بيروت، ط.٤، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

• الطبقات الكبرى، ابن سعد، إحسان عباس دار صادر - بيروت، ط.١، ١٩٦٨م.

• علم أصول الفقه، لعبد الوهاب خلاف، مكتبة الدعوة - شباب الأزهر، عن الطبعة الثامنة لدار القلم.

• الغياثي، غياث الأمم في التياث الظلم، لأبي المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني، ط.٢، ١٤٠١هـ.

• فتح القدير، لمحمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني، ط.١، ١٤١٤هـ.

• الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة، محمد بن علي الشوكاني، تحقيق: عبد الرحمن المعلمي، إشراف: زهير شاويش، المكتب الإسلامي - بيروت، ط.٣، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

• قواعد الأحكام في مصالح الأنام، للعز بن عبد السلام، راجعه وعلق عليه: طه عبد الرؤوف سعد مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة طبعة: جديدة مضبوطة منقحة، ١٤١٤هـ/١٩٩١م.

• كتاب الإسلام وهموم الناس، أحمد عبادي، كتاب الأمة العدد: ٤٩، الدوحة، ١٩٩٦م.

• لسان العرب، لابن منظور، دار صادر، بيروت، ط.٦، د.ت.

• مالك عصره وآراؤه الفقهية، أبو زهرة، دار الفكر العربي - القاهرة، ط.٢، د.ت.

• مجلة قراءات سياسية، د. حسن الترابي، العدد الثالث، ١٩٩٢م.

• المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية الأندلسي المحاربي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

• مختصر منتهى السؤل والأمل في علمي الأصول والجدل، ابن

الحاجب، دراسة وتحقيق وتعليق: د. نذير حمادو، الشركة الجزائرية اللبنانية ـ دار ابن حزم، ط.١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

• مدارج السالكين، ابن القيم، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.

• المستدرك على الصحيحين، الحاكم، مصطفى عبد القادر عطا دار الكتب العلمية - بيروت الأولى، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

• المستصفى، الغزالي، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية الأولى، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

• مسند الإمام أحمد بن حنبل، ابن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ـ عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

• المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، د.ط، د.ت.

• المعجم الكبير، الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية - القاهرة، ط.٢، د.ت.

• المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم بحاشية المصحف الشريف، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر - بيروت، ط.٤، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

• معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

• مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية - بيروت.

• مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان عدنان

داوودي، دار القلم، دمشق، ط.٣، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

• مفهوم الترتيل في القرآن المجيد: النظرية والمنهج، أحمد عبادي.

• مقاصد الشريعة، محمد الطاهر بن عاشور، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، والشركة التونسية للتوزيع، تونس.

• الموافقات في أصول الشريعة، الشاطبي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت.

• موطأ الإمام مالك، مالك بن أنس الأصبحي، صححه ورقمه وخرج أحاديثه وعلق عليه: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، د.ط، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م.

• النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز، دار القلم، الكويت، ط.٦، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.

• نحو منهاجية للتعامل مع مصادر التنظير الإسلامي بين المقدمات والمقومات، منى أبو الفضل، مطبوعات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط.١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

• نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، المنشورات المشرقية، حيدرآباد، ط.١، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.

• النقد الذاتي، علال الفاسي، المطبعة العلمية أحمد حسن غزي وشركاؤه، القاهرة، ط.١، ١٩٥٢م.

• نموذج تفسيري وتصنيفي جديد، عبد الوهاب المسيري، نسخة مرقونة.

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

مكتبة حراء

الوحي والإنسان

نحو استئناف التعامل المنهاجي مع الوحي

إنّ مِن أُولى علامات الحضور والشهود الحضاريين عند أمة من الأمم قدرتها على فهم واستيعاب ما يحيط بها من أحداث ووقائع، وتبين ما يكمن وراءها من مفاهيم ومعتقدات وقيم ومناهج وأفكار، وكذا قدرتها على بلورة مواقف إزّاء كل ذلك؛ مواقف يتم قياس جدواها بحسب تأثيرها في تأطير السلوك العام وتعبئته لاجتناب مصادر الخلل، وكذا القدرة على صوغ أحلام لها قدرتها التعبوية الموجهة لجهد الإنسان في تناسق مع المكان، واستعمال راشد للزمان، ومن المؤسف أن نرى أن كسب أمتنا في هذه الاتجاهات قد غِيض وانحسر منذ زمن غير قصير، فانفكت عرى العلاقة مع الواقع والكون والوحي، وطفقنا نتعامل مع هذه المصادر الموجهة لكسب الإنسان، تعاملاً تجزيئيًّا واجتراريًّا ومقلدًا في بُعد تام عن التكامل بينها.

ISBN: 978-975-315-623-3
9 789753 156233
www.daralnile.com
Vahiy ve İnsan

دار النيل